عِلمُ المعاني



الدكتور/عبد العزيز عتيق



الدكتور/ عبد العزيز عتيق



اسم الكتاب : علم المعاني
اسم المؤلف : د. عبد العزيز عتيق

رقم الإيداع : ١٧١٦٩ / ٢٠٠٣
الترقيم الدولى : ISBN : 977 - 344 - 076 - 4

الطبعة الأولى
١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م

دار الآفاق العربية
نشر - توزيع - طباعة
٥٥ ش محمود طلعت - من ش الطيران
مدينة نصر - القاهرة
تليفون : ٢٦١٧٣٣٩ - تليفاكس : ٢٦١٠١٦٤
e-mail: daralafk@yahoo.com



مقدمة



تتألف البلاغة العربية من علوم ثلاثة : هي المعاني، والبيان، والبديع، وميدان البلاغة الذي تعمل فيه علومها الثلاثة متضافرة هو نظم الكلام وتأليفه على نحو يخلع عليه نعوت الجمال.

وإدراك سمات الكلام البليغ لا يتأتى إلا عن طريق الدروس والبحث والتأمل. ومن أجل هذا تبدو الحاجة إلى دراسة البلاغة. فهي تكشف للمتعلم عن العناصر البلاغية التي يستطيع بالتمرس بها والتدرب عليها أن يأتي بالكلام البليغ. وهي في الوقت ذاته جزء مكمل لثقافة الناقد والأديب.

دراسة البلاغة إذن ليست ضرورية فقط لمن يريد أن يجعل اللغة وأدبها ميدان تخصصه، وإنما هي ضرورية له وللناقد والأديب على حد سواء.

وإني لآمل أن يجد الدارس في هذا البحث ما يعينه على تذوق جانب من البلاغة العربية والإفادة منه، وما يكشف له كذلك عن دور علم المعاني والبيان والبديع في فن القول وبلاغته. والله ولي التوفيق

المؤلف

د/ عبد العزيز عتيق

الفصل الأول
بيـن البلَاغة والفصاحَة

البلاغة مأخوذة من قولهم : بلغت الغاية إذا انتهيت إليها وبلّغتها غيري ، والمبالغة في الأمر : أن تبلغ فيه جهدك وتنتهي إلى غايته ، وقد سميت البلاغة بلاغة لأنها تنهي المعنى إلى قلب سامعه فيفهمه . ويقال : بلغ الرجل بلاغة ، إذا صار بليغًا ، ورجل بليغ : حسن الكلام ، يبلغ بعبارة لسانه كنه ما في قلبه [١] ويقال : أبلغت في الكلام إذا أتيت بالبلاغة فيه . والبلاغة من صفة الكلام لا من صفة المتكلم ، وتسميتنا المتكلم بأنه بليغ نوع من التوسع ، وحقيقته أن كلامه بليغ ، فحذف الموصوف وأقيمت الصفة مقامه ، كما تقول : فلان رجل مُحكم وتعني أن أفعاله محكمة . قال الله تعالى : ﴿حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ﴾ [القمر :٥] فجعل البلاغة صفة الحكمة ولم يجعلها من صفة الحكيم ، إلا أن كثرة الاستعمال جعلت تسمية المتكلم بأنه بليغ كالحقيقة ، كما أن كثرة الاستعمال أيضًا جعلت تسمية كلمة مثل المزادة [٢] راوية كالحقيقة وكان الراوية في الأصل حامل المزادة ، وهو البعير وما يجري مجراه ، ولهذا سمي حامل الشعر راوية .

ذلك مفهوم البلاغة لغة ، وقديمًا اختلف أهل العلم في مفهومها ووصفها بيانيًا ، وقد أورد ابن رشيق القيرواني في كتابه العمدة [٣] طائفة من أقوال البلغاء في تحديد مفهوم البلاغة كما تَصوَّرَها من وردت هذه الأقوال على ألسنتهم ، بيد أن النظر في كل قول من هذه الأقوال لا يعطينا مفهومًا جامعًا مانعًا للبلاغة ، ولكن ربما التمس مفهوم البلاغة المنشود من ثنايا بعض هذه الأقوال ، فلنحاول . سئل بعض البلغاء : ما البلاغة؟ فقال : قليل يُفهَم وكثير لا يُسأَم . وسئل آخر فقال : معان كثيرة في ألفاظ قليلة .

وقيل لأحدهم: ما البلاغة؟ فقال : إصابة المعنى وحسن الإيجاز . وسئل بعض الأعراب : من أبلغ الناس؟ فقال : أسهلهم لفظًا ، وأحسنهم بديهة .

وقال خلَفٌ الأحمر: البلاغة لمحة دالة .

وقال الخليل بن أحمد: البلاغة كلمة تكشف عن البقية .

---

(١) قد يعبر عن العقل بالقلب . قال تعالى : ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ [ق :٣٧] .

(٢) المزادة : القربة التي يحمل فيها الماء .

(٣) كتاب العمدة ج : ١ ص ٢١٣ . وابن رشيق : هو أبو علي الحسن بن رشيق الأزدي القيرواني (٣٨٥-٤٦٥هـ) .

وقال المفضل الضبي: قلت لأعرابي: ما البلاغة عندكم؟ فقال: الإيجاز من غير عجز، والإطناب من غير خَطَل.

وكتب جعفر بن يحيى بن خالد البرمكي إلى عمرو بن مسعدة: إذا كان الإكثار أبلغ كان الإيجاز تقصيرًا، فإذا كان الإيجاز كافيًا كان الإكثار عيًّا.

وقيل لبعضهم: ما البلاغة؟ فقال: إبلاغ المتكلم حاجته بحسن إفهام السامع، ولذلك سميت بلاغة.

وقال آخر: البلاغة معرفة الفصل من الوصل.

وقيل: البلاغة حسن العبارة، مع صحة الدلالة.

وقيل: البلاغة القوة على البيان مع حسن النظام.

وقالوا: البلاغة ضد العِيّ والعي العجز عن البيان.

وقيل لأرسطاطاليس: ما البلاغة؟ فقال: حسن الاستعارة.

وقيل لخالد بن صفوان: ما البلاغة؟ قال: إصابة المعنى والقصد إلى الحجة.

وقيل لإبراهيم الإمام: ما البلاغة؟ قال: الجزالة والإطالة.

وقال البحتري يمدح محمد بن عبد الملك بن الزيات حين استوزر ويصف بلاغته:

ومعان لو فصّلتها القوافي ... هجنَت شعر جَروَلٍ (١) ولبيد

حُزْنَ مستعمل الكلام اختيارًا ... وتجنين ظلمة التعقيد

وركبن اللفظ القريب فأدركن ... به غاية المراد البعيد

وقال العتابي: قيّم الكلام العقل، وزينته الصواب، وحليته الإعراب، ورائضه اللسان وجسمه القريحة، وروحه المعاني.

وسئل ابن المقفع ما البلاغة؟ فقال: اسم لمعان تجري في وجوه كثيرة: فمنها ما يكون في السكوت، ومنها ما يكون في الاستماع ومنها ما يكون في الإشارة، ومنها ما يكون شعرًا، ومنها ما يكون سجعًا، ومنها ما يكون ابتداء، ومنها ما يكون جوابًا، ومنها ما يكون في الحديث، ومنها ما يكون في الاحتجاج، ومنها ما يكون خطبًا، ومنها ما يكون رسائل، فعامة هذه الأبواب الوحي فيها والإشارة إلى المعنى، والإيجاز هو البلاغة.

(١) الشاعر الحطيئة.

وقال أبو الحسن علي بن عيسى الرماني: أصل البلاغة الطبع، ولها مع ذلك آلات تعين عليها وتوصل للقوة فيها، وتكون ميزانا لها وفاصلة بينها وبين غيرها وهي ثمانية أضرب: الإيجاز، والاستعارة، والبيان، والنظم، والتصرف، والمشاكلة، والمثل.

وقال عبد الله بن محمد بن جميل المعروف بالباحث: البلاغة الفهم والإفهام وكشف المعاني، ومعرفة الإعراب، والاتساع في اللفظ، والسداد في النظم، والمعرفة بالقصد، والبيان في الأداء، وصواب الإشارة، وإيضاح الدلالة، والمعرفة بالقول، والاكتفاء بالاختصار عن الإكثار، وإمضاء العزم على حكومة الاختيار. . . قال: وكل هذه الأبواب محتاج بعضها إلى بعض، كحاجة بعض أعضاء البدن إلى بعض: لا غنى لفضيلة أحدها عن الآخر، فمن أحاط معرفة بهذه الخصال فقد كمل كل الكمال، ومن شذ عنه بعضُها لم يبعد من النقص بما اجتمع فيه منها. . . قال: والبلاغة تخير اللفظ في حسن إفهام.

تلك طائفة من أقوال البلغاء في تحديد مفهوم البلاغة كما تَصوَّرها كل واحد منهم، ومنها يمكن تحديد مفهوم البلاغة بأنها: وضع الكلام في موضعه من طول وإيجاز، وتأدية المعنى أداء واضحًا بعبارة صحيحة فصيحة، لها في النفس أثر خلاب، مع ملاءمة كل كلام للمقام الذي يقال فيه، وللمخاطبين به.

ولعل تعريف عبد الله بن محمد بن جميل للبلاغة هو الأقرب إلى هذا التعريف، وكما أن مفهوم أبي الحسن الرماني للبلاغة متصل أكثر بأصلها ومباحثها. ولكن البلاغة قبل هذا وبعد هذا فن قولي يعتمد على الموهبة وصفاء الاستعداد، ودقة إدراك الجمال، وتبيين الفروق الخفية بين شتى الأساليب، ولابد لطالب البلاغة من أمرين: قراءة عميقة متصلة لروائع الأدب وحفظ ما يستجيده منه، ومران على التعبير من وقت لآخر عن بعض ما يجول في الخاطر وتجيش به النفس. ولا شك أن تضافر هذين الأمرين معًا يعينان على تكوين الذوق الأدبي ونقد الأعمال الأدبية والحكم عليها.

ومن السهل أيضًا أن نلتمس في أقوال البلغاء السابقة عناصر البلاغة، وهذه العناصر هي: اللفظ، والمعنى، وتأليف الألفاظ على نحو يمنحها قوة وتأثيرًا حسنًا، ثم الدقة في اختيار الكلمات والأساليب على حسب مواطن الكلام، وموضوعاته، وحال السامعين، والنزعة النفسية التي تسيطر عليهم.

وعلى هذا فلابد للبليغ من التفكير في المعاني التي تموج في نفسه على أن تكون صادقة قوية يتجلى فيها أثر الابتكار وسلامة الذوق في تنسيقها وحسن ترتيبها، فإذا تحقق له ذلك اختار لها من الألفاظ الواضحة المؤثرة ما يتلاءم وطبيعتها ويعبر عنها أجل تعبير، ومع ذلك ينبغي أن نتذكر دائمًا أن البلاغة ليست في اللفظ وحده، وليست في المعنى وحده، وإنما هي في الارتباط العضوي بينهما، وأثر لازم لسلامتهما وانسجامهما.

هذا عن البلاغة، أما بلاغة الكلام فهي مطابقته لمقتضى الحال مع فصاحته، ومقتضى الحال مختلف تبعًا لتفاوت مقامات الكلام، فمقام كل من التنكير والإطلاق والتقديم، والذكر يباين عكسه من التعريف، والتقصير، والتأخير، والحذف ومقام الفصل يباين مقام الوصل، ومقام الإيجاز يباين مقام الإطناب ومقام المساواة.

وارتفاع شأن الكلام في الحسن والقبول يكون بمطابقته للاعتبار المناسب، وانحطاط شأن الكلام يكون بعدم ذلك. فمقتضى الحال إذن هو الاعتبار المناسب.

وللبلاغة طرفان: طرف أعلى وهو حد الإعجاز وما يقرب منه، وطرف أسفل وهو ما إذا غير الكلام عنه إلى ما دونه التحق عند البلغاء بأصوات الحيوانات، وبين هذين الطرفين مراتب كثيرة.

ولعلنا ندرك من كل ما تقدم أن البلاغة مرجعها إلى أمرين: تمييز الفصيح من غيره، والاحتراز عن الخطأ في تأدية المعنى المراد.

أما تمييز الفصيح من غيره فمنه ما يبين في علم متن اللغة، أو الصرف، أو النحو، أو يدرك بالحس، وأما الاحتراز عن الخطأ في تأدية المعنى المراد فيكون عن طريق علم المعاني باستثناء المعنوي الذي يحترز عنه بعلم البيان.

الفصاحة

وإذا ما انتقلنا من البلاغة إلى الفصاحة فإننا نرى أن الفصاحة في أصل الوضع اللغوي: الظهور والبيان، فهي من قولهم: أفصح فلان عما في نفسه إذا أظهره، والدليل على ذلك قول العرب: أفصح الصبح إذا ظهر وأضاء، وأفصح اللبن إذا انجلت عنه رغوته فظهر، وأفصح الأعجمي إذا أبان بعد أن لم يُفصح ويبين وفَصُح اللحّان، أي كثير اللحن والخطأ، إذا عبر عما في نفسه وأظهره على جهة الصواب دون الخطأ.

وإذا كان الأمر كذلك فالفصاحة والبلاغة ترجعان إذن إلى معنى واحد وإن اختلف أصلاهما، لأن كل واحد منهما إنما هو الإبانة عن المعنى وإظهاره.

ويذكر أبو هلال العسكري نقلاً عن بعض علماء العربية، أن الفصاحة تمام آلة البيان، فلهذا لا يجوز على الله تعالى الوصف بالآلة، وإنما يوصف كلامه بالفصاحة لما يتضمن من تمام البيان.

والدليل على ذلك عنده أن الألثغ والتمتام لا يسميان فصيحين لنقصان آلتهما عن إقامة الحروف، وسمي الشاعر الأموي زياد بن سليمان مولى عبد القيس «**زيادا الأعجم**» لنقصان آلة نطقه عن إقامة الحروف [(١)].

فقد كان كسائر الأعاجم لا يستطيع لفظ العين والحاء، والصاد، فكان ينطق كلمات مثل «**الحمار**» «**الهمار**» و «**دعوتك**» «**دأوتك**» و «**تصنع**» «**تسنأ**» ومع ما في هذه الألفاظ من القبح واللكنة فهو أعجم وشعره فصيح لتمام بيانه، كقوله في رثاء المهلب بن المغيرة.

قل للقوافل والقرى إذا قروا   والباكرين وللمجدّ الرائح [(٢)]
إن المروءة والسماحة ضمنا   قبرًا بمرور على الطريق الواضح
فإذا مررت بقبره فاعقر به   كوم الهجان وكل طرف سابح [(٣)]

فعلى هذا - كما يقول أبو هلال العسكري - تكون الفصاحة والبلاغة مختلفتين، وذلك أن الفصاحة تمام آلة البيان فهي مقصورة على اللفظ، لأن الآلة تتعلق باللفظ دون المعنى، والبلاغة إنما هي إنهاء المعنى إلى القلب، فكأنها مقصورة على المعنى.

وقد استدل أبو هلال على أن الفصاحة تتضمن اللفظ، والبلاغة تتناول المعنى كالببغاء، فالببغاء يسمى فصيحًا ولا يسمى بليغًا، إذ هو مقيم الحروف، وليس له قصد إلى المعنى الذي يؤديه.

ويرى أبو هلال كذلك أنه يجوز أن يسمى الكلام الواحد فصيحًا بليغًا إذا كان واضح

---

(١) كتاب الصناعتين ص ٧-٨ .

(٢) القرى: كل شيء على طريق واحد: إذا قروا: إذا ساروا في الأرض .

(٣) العقر: قطع قوائم الفرس أو البعير أو الشاة بالسيف تمكينًا من نحرها وذبحها . وكان العرب يعقرون الإبل على قبور الموتى، أي ينحرونها، ويقولون: إن صاحب القبر كان يعقر للأضياف أيام حياته فنكافئه بمثل صنيعه بعد وفاته . كوم الهجان: الإبل الكريمة البيضاء الضخمة السنام . الطرف: الكريم من الخيل .

المعنى، وسهل اللفظ، جيد السبك، غير مستكره فج ولا متكلف وَخِم، ولا يمنعه من أحد الاسمين شيء، لما فيه من إيضاح المعنى وتقويم الحروف.

ويذهب قوم إلى أن الكلام لا يسمى فصيحًا حتى يجمع مع نعوت الجودة فخامة وشدة جزالة، فإذا جمع الكلام نعوت الجودة ولم يكن فيه فخامةٌ وفضلُ جزالة سمي بليغًا ولم يسم فصيحًا، ويضربون لذلك مثلاً قول إبراهيم بن العباس الصولي:

تمر الصبا صفحًا بساكنة الغضى ويصدع قلبي أن يهب هُبوبُها (١)
قريبة عهد بالحبيب وإنما هوى كل نفس حيث حل حبيبها

فالبيت الأول عندهم فصيح وبليغ لاشتماله على نعوت الجودة مع الفخامة والجزالة، والبيت الثاني بليغ وليس بفصيح، لتضمنه نعوت الجودة دون الفخامة والجزالة.

وربما كان ضياء الدين بن الأثير (٢) أكثر من غيره تصورًا وفهمًا لمعنى الفصاحة وذلك حيث يقول: «**لم يزل العلماء من قديم الوقت وحديثه يكثرون القول في الفصاحة والبحث عنها ولم أجد من ذلك ما يُعوَّل عليه إلا القليل، وغاية ما يقال من هذا الباب: إن الفصاحة هى الظهور والبيان في أصل الوضع اللغوي، يقال: أفصح الصبح إذا ظهر، ثم إنهم يقفون عند ذلك ولا يكشفون عن السر فيه، وبهذا القول لا تبين حقيقة الفصاحة، لأنه يُعترَض عليه بوجوه من الاعتراضات.**

أحدها أنه إذا لم يكن اللفظ ظاهرًا بينًا لم يكن فصيحًا، ثم إذا ظهر وتبين صار فصيحًا.

الوجه الآخر أنه إذا كان اللفظ الفصيح هو الظاهر البين فقد صار ذلك بالنسب والإضافات إلى الأشخاص، فإذن اللفظ قد يكون ظاهرًا لزيد ولا يكون ظاهرًا لغمرو، فهو إذن فصيح عند هذا غير فصيح عند هذا، وليس الأمر كذلك بل الفصيح هو الفصيح عند الجميع، لا خلاف فيه بحال من الأحوال، لأنه إذا تحقق حد الفصاحة وعرف ما هي، ولم يبق في اللفظ الذي يختص به خلاف.

الوجه الأخير أنه إذا جيء بلفظ قبيح ينبو عنه السمع، وهو مع ذلك ظاهر بيّن ينبغي أن يكون فصيحًا، وليس كذلك لأن الفصاحة وصفُ حُسْنٍ للفظ لا وصف قبح. فهذه

(١) الصبا: الريح تهب من مطلع الشمس. الغضى: شجر من نبات الرمل. يصدع: يشق.
(٢) كتاب المثل السائر لابن الأثير ص ٢٦ - ٢٧.

الاعتراضات الثلاثة واردة على قول القائل: «إن اللفظ الفصيح هو الظاهر البين من غير تفصيل» ثم يستطرد ابن الأثير فيقول: «ولما وقفت على أقوال الناس في هذا الباب ملكتني الحيرة ولم يثبت عندي منها ما أعول عليه. ولكثرة ملابستي هذا الفن ومعاركتي إياه انكشف لي السر فيه، وسأوضحه في كتابي هذا وأحقق القول فيه فأقول: إن الكلام الفصيح هو الظاهر البين، وأعني بالظاهر البين أن تكون ألفاظه مفهومة، لا يحتاج في فهمها إلى استخراج من كتاب لغة. وإنما كانت بهذه الصفة لأنها تكون مألوفة الاستعمال بين أرباب النظم والنثر دائرة في كلامهم، وإنما كانت مألوفة في الاستعمال دائرة في الكلام دون غيرها من الألفاظ لمكان حسنها، وذلك أن أرباب النظم والنثر غربلوا اللغة باعتبار ألفاظها وسبروا. . فاختاروا الحسن من الألفاظ فاستعملوه، ونفوا القبيح منها فلم يستعملوه، فحسن الاستعمال سبب استعمالها دون غيرها واستعمالها دون غيرها سبب ظهورها وبيانها، فالفصيح إذن من الألفاظ هو الحسن».

«فإن قيل: من أي وجه علم أرباب النظم والنثر الحسن من الألفاظ حتى استعملوه، وعلموا القبيح منها حتى نفوه ولم يستعملوه؟

قلت في الجواب: إن هذه الأمور المحسوسة التي شاهدها من نفسها. لأن الألفاظ داخلة في حيز الأصوات، فالذي يستلذه السمع منها ويميل إليه هو الحسن، والذي يكرهه وينفر عنه هو القبيح. ألا ترى أن السمع يستلذ صوت البلبل من الطير وصوت الشحرور ويميل إليهما، ويكره صوت الغراب وينفر عنه، وكذلك يكره نهيق الحمار ولا يجد ذلك في صهيل الفرس؟».

«والألفاظ جارية هذا المجرى، فإنه لا خلاف في أن لفظة المزنة [1] والديمة حسنة يستلذها السمع وأن لفظة البعاق قبيحة يكرهها السمع، وهذه اللفظات الثلاثة من صفة المطر، وهي تدل على معنى واحد، ومع هذا فإنك ترى لفظتي المزنة والديمة وما جرى مجراهما مألوفة الاستعمال، وترى لفظ البعاق وما جرى مجراه متروكًا لا يستعمل، وإن استعمل فإنما يستعمله جاهل بحقيقة الفصاحة أو من ذوقه غير سليم. . . .

وإذن ثبت أن الفصيح من الألفاظ هو الظاهر البين، وإنما كان ظاهرًا بينًا لأنه مألوف الاستعمال، وإنما كان مألوف الاستعمال لمكان حسنه، وحسنه مدرك بالسمع، والذي

---

(١) المزنة: السحابة ذات الماء.

يدرك بالسمع إنما هو اللفظ، لأنه صوت يأتلف عن مخارج الحروف.

فما استلذه السمع منه فهو الحسن، وما كرهه فهو القبيح، والحسن هو الموصوف بالفصاحة، والقبيح غير موصوف بفصاحة لِأنه ضدها لمكان قبحه.

وقد مثلت ذلك في المتقدم بلفظة المزنة والديمة ولفظة البعاق، ولو كانت الفصاحة أمرًا يرجع إلى المعنى لكانت هذه الألفاظ في الدلالة عليه سواء، ليس منها حسن وليس منها قبيح. ولما لم يكن كذلك علمنا أن «**الفصاحة**» تخص اللفظ دون المعنى.

وليس لقائل ههنا أن يقول: لا لفظ إلا بمعنى، فكيف فصلت أنت بين اللفظ والمعنى؟ فإني لم أفصل بينهما وإنما خصصت اللفظ بصفة هي له، والمعنى يجيء ضمنًا وتبعًا».

وتدعيمًا لرأيه السابق في قضية الحسن والقبح في اللفظ، وردًّا على من ينكر ذلك ويزعم أن كل الألفاظ حسن وأن الواضع لم يضع إلا حسنًا، يقول ابن الأثير [١] في موضع آخر من كتابه: «**ومن له أدنى بصيرة يعلم أن للألفاظ في الأذن نغمة لذيذة كنغمة أوتار وصوتًا منكرًا كصوت حمار، وأن لها في الفم أيضًا حلاوة العسل ومرارة الحنظل، وهي على ذلك تجري مجرى النغمات والطعوم**».

«**ومن يبلغ جهله إلى أن لا يفرق بين لفظة الغصن ولفظة العسلوج** [٢]، وبين لفظة المدامة ولفظة الأسفنط [٣]، وبين لفظة السيف ولفظة الخنشليل، وبين لفظة الأسد ولفظة الفدوكس [٤]، فلا ينبغي أن يخاطب بخطاب، ولا يجاوب بجواب، بل يترك وشأنه».

ولعل من المفيد أن نفرق منذ البدء بين البلاغة العربية والنقد الأدبي حيث لكل منهما ميدانه الخاص وفلكه الذي يدور فيه. فالبلاغة العربية تقف عند حدود البحث في مظاهر الجمال الحسي والمعنوي في المفردات والجمل، أما البحث في القيمة الجمالية للنص الأدبي المتكامل في أي صورة من صوره فهذا من وظيفة النقد الأدبي.

وعلى هذا المفهوم فإن البلاغة العربية تقدم بنظرياتها للناقد أهم الأدوات التي تعينه على تقييم الأعمال الأدبية والحكم عليها.

---

(١) المثل الثائر ص ٥٩ . (٢) العسلوج: الغصن الناعم لسنته .

(٣) الأسفنط: اسم من أسماء الخمر فارسي معرب، وقيل رومي معرب .

(٤) الفدوكس: الأسد .

وما دام ميدان البلاغة العربية قاصرًا على البحث في مظاهر الجمال الحسي والمعنوي في المفردات والجمل، وما دمنا نحاول دراسة علم المعاني الذي هو أحد علوم البلاغة العربية، فإن الأمر يستأدينا قبل الانتقال إلى مباحث هذا العلم تفصيلاً أن نستكمل الكلام عن الفصاحة والبلاغة.

لقد عرفنا مما سبق حد كل من الفصاحة والبلاغة، وخلاصته أن الفصاحة يوصف بها المفرد والكلام والمتكلم، فيقال: لفظة فصيحة، وكلام فصيح، ورجل فصيح. أما البلاغة فيوصف بها الكلام والمتكلم فقط، فيقال: كلام بليغ، ورجل بليغ. وبين الاثنين عموم وخصوص مطلق، فالفصاحة أعم والبلاغة أخص، فكل فصيح بليغ، وليس كل بليغ فصيحًا.

وتتمثل فصاحة اللفظ أو المفرد في خلوه من ثلاثة أمور: تنافر الحروف، والغرابة، والمخالفة للقياس.

فتنافر الحروف هو في مثل لفظة «مستشزرات» من قول امرئ القيس:

غدائره مستشزرات إلى العلا تضل العقاصُ في مثنّى ومرسل

فالشاعر هنا يصف غزارة شعر حبيبته، فيقول: إن حبيبته لكثرة شعرها بعضه مرفوع، وبعضه مثنى، وبعضه مرسل، وبعضه معقوص ملوي بين المثنى والمرسل.

وموضع الشاهد على التنافر هنا هو لفظة «مستشزرات» بمعنى «مرتفعات» فهي مستكرهة لثقلها على اللسان وعسر النطق بها، فتنافر الحروف فيها أدى إلى ثقلها وصعوبة التلفظ بها، وهذا بدوره أنقص من فصاحتها وقلل من فصاحة البيت وجماله. ولا ضابط لمعرفة الثقل والصعوبة في اللفظ سوى الذوق السليم المكتسَب بطول النظر في كلام البلغاء وممارسة أساليبهم.

وغرابة اللفظ أو المفرد مثل لفظ «مسرجا» بتشديد الراء التي وردت في بيت من أرجوزة طويلة لرؤبة بن العجاج يقول فيها:

والسخط قطاع رجاء من رجا أزمان أبدت واضحًا مفلّجا
أغر براقا وطرفا أبرجا ومقلة وحاجبا مزججا
وفاحمًا ومرسنا مسرَّجا وكفلا وعثا إذا ترجرجا

فالفاحم هنا الأسود، وأراد به الشاعر شعرًا أسود فاحمًا، والمرسن الأنف الذي يشد

بالرسم ثم استعير لأنف الإنسان، أما مسرجًا وهي اللفظة الغريبة هنا فمختلف في تخريجها، فقيل من سرّجه تسريجًا، أي حسّنه وبهّجه، وقيل من قولهم: سيوف سريجية منسوبة إلى قيم يقال له سريج.

شبه بها (السيوف) الأنف في الدقة والاستواء، وقيل من السراج، وهو قريب من قولهم: سرج وجهه بكسر الراء أي حسن، والزجج دقة الحاجبين.

والمعنى أن لهذه المرأة الموصوفة ثنايا بيضاء مفلجة، ومقلة واسعة حسنة سوداء وحاجبًا مدققًا مقوسًا، وشعرًا أسود فاحمًا، وأنفًا كالسيف السريجي في دقته واستوائه، أو كالسراج في بريقه وضيائه. وشاهد الغرابة فيه هو في لفظة «مسرجا» للاختلاف في تخريجها. فاللفظة إذا دلت على أكثر من معنى، واختلف في تحديد المعنى المراد منها في موضعها فإنها تكتسب بذلك صفة الغرابة التي تنتقص من درجة فصاحتها.

أما مخالفة القياس فمثل لفظة «**الأجلل**» التي وردت في بيت من أرجوزة طويلة أيضًا لأبي النجم الفضل بن قدامة العجلي، أحد رجاز الإسلام والتي منها:

الحمد لله العلي الأجلل
الواهب الفضل الوهوب المجزل
أعطى فلم يبخل ولما يبخل

فالشاهد هنا هو مخالفة القياس في قوله «**الأجلل**» إذ القياس «**الأجل**» بالإدغام. هذا كله بالنسبة إلى فصاحة اللفظ المفرد.

أما فصاحة الكلام أو التركيب فتتمثل في خلوصه، وسلامته من ثلاثة أمور أيضًا هي: ضعف التأليف، وتنافر الألفاظ، والتعقيد لفظيًا ومعنويًا مع فصاحة المفردات التي يتألف منها.

فضعف التأليف في الكلام خروجه عن قواعد اللغة المطردة كرجوع الضمير على متأخر لفظًا ورتبة في قول حسان بن ثابت:

ولو أن مجدًا أخلد الدهر واحدًا ... من الناس أبقى مجدُه الدهر مُطعما

فالضمير في «مجده» يعود إلى «مطعما» وهو متأخر في اللفظ كما نرى في البيت وفي الرتبة لأنه مفعول به، ورتبة المفعول متأخرة على رتبة الفاعل. فالبيت لهذا غير فصيح.

وتنافر الألفاظ في الكلام أو التركيب، يعني أن يسبب اتصال بعض ألفاظ الكلام

ببعض ثقلاً على السمع وصعوبة في النطق بها، لأن النطق بالحروف المتقاربة في مخارجها أشبه بالمشي المقيد. ومثال ذلك قول الشاعر:

وقبر حرب بمكان قفر وليس قرب قبر حرب قبر

ويقال أنه لا يتهيأ لأحد أن ينشد هذا البيت ثلاث مرات متواليات دون أن يتعتع [1]، أي يتلعثم والسبب بطبيعة الحال واضح، لأنه اجتماع كلمات البيت وقرب مخارج حروفها، يحدثان ثقلاً ظاهرًا على اللسان والسمع معًا، مع أن كل لفظة أو مفردة منه لو أخذت وحدها كانت غير مستكرهة ولا ثقيلة.

ومن تنافر الألفاظ في الكلام أو التركيب أيضًا قول أبي تمام، حبيب بن أوس الطائي، من قصيدة له يمدح بها أبا الغيث موسى بن إبراهيم ويعتذر إليه:

كريم متى أمدحه أمدحه والورى معي، وإذا ما لمته لمته وحدي

فالتنافر هنا ولّدَه ما في قوله «أمدحه» من الثقل لقرب مخرج الحاء من مخرج الهاء، لأن مخارج الحروف كلما قربت كانت الألفاظ مكدودة قلقة غير مستقرة في أماكنها، وإذا بعدت كانت بعكس الأول. ولهذا لم يوجد في كلام العرب اجتماع العين مع العين ولا مع الحاء ولا مع الخاء، ولا اجتماع الطاء مع التاء حذرًا من عسر النطق وفي البيت أيضًا ثقل آخر من جهة التكرار في «أمدحه» و «لمته».

ومن قبيح التنافر الناشئ عن التكرار قول الشاعر:

وإزور من كان له زائرًا وعاف عافى العُرف عرفانَه [2]

كذلك يشترط في فصاحة الكلام أو التركيب أن يسلم من التعقيد اللفظي الذي يترتب عليه خفاء الدلالة على المعنى المراد في الكلام بسبب تأخير الكلمات أو تقديمها عن مواطنها الأصلية، أو بالفصل بين الكلمات التي يجب أن تتجاوز ويتصل بعضها ببعض، وذلك كقول الفرزدق من قصيدة يمدح بها إبراهيم المخزومي خال هشام بن عبد الملك بن مروان:

وما مثله في الناس إلا مملكًا أبو أمه حيّ أبوه يقاربه

---

(١) انظر شرح شواهد التلخيص ص: ١٣٠ .

(٢) ازور عن الشيء انحرف عنه وعدل. عاف: كره. عافى العرف: المحتاج إلى المعروف. العرف والعرفان المعروف .

فالبيت كما ترى غير فصيح لضعف تأليفه الناشئ عن تعقيد ألفاظه وصعوبة استخلاص معناه. فالمعنى الذي حاول الفرزدق أن يعبر عنه في هذا البيت هو: وما مثله - يعني الممدوح - في الناس حي يقاربه - أي أحد يشبهه في الفضائل - إلا مملكًا - يعني هشام بن عبد الملك ابن أخت الممدوح - أبو أمه - أي أبو أم هشام - أبوه - أي أبو الممدوح. فالضمير في «أمه» للمملَّك، وفي «أبوه» للممدوح.

فالشاعر في البيت قد فصل بين «أبو أمه» وهو مبتدأ، و«أبوه» وهو خبر المبتدأ بأجنبي وهو «حي» وكذلك فصل بين النعت والمنعوت وهما «حي، يقاربه» بأجنبي وهو «أبوه»، ثم قدم المستثنى وهو «مملكًا» على المستثنى منه، وهو «حي يقاربه».

فنظم البيت كما نرى في غاية التعقيد اللفظي، وكان من حق الناظم أن يقول: وما مثله في الناس أحد يقاربه إلا مملكًا أبو أمه أبوه. فالخلل في نظم كلمات البيت بالتقديم والتأخير. وبالفصل بين الكلمات التي يجب تجاورها واتصال بعضها ببعض قد جعل الكلام غير ظاهر الدلالة على المعنى المراد.

وكما يشترط في فصاحة الكلام أن يسلم من التعقيد اللفظي فإنه يشترط فيه كذلك أن يسلم من التعقيد المعنوي، وهو استعمال الكلمات عند إرادة التعبير عن معنى خاص في غير معانيها الحقيقية، وبذلك يضطرب التعبير، ويصعب الوصول إلى المعنى المراد. مثال ذلك قول ابن الأحنق.

سأطلب بُعد الدار عنكم لتقربوا وتسكب عينايَ الدموعِ لتجمدا

فالمعنى الذي قصد الشاعر التعبير عنه في هذا البيت هو: أطلب وأُريد البعد عنكم أيها الأحبة لتقربوا. إذ من عادة الزمان الإتيان بضد المراد، فإذا أريد البعد يأتي الزمان بالقرب، وكذلك أطلب الحزن الذي هو لازم البكاء ليحصل السرور بما هو من عادة الزمان.

فالشاعر أراد هنا أن يكنى عما يوجبه دوام التلاقي من السرور بالجمود، لظنه أن الجمود هو خلو العين من البكاء مطلقًا من غير اعتبار شيء آخر. وقد أخطأ الشاعر في مراده إذ جمود العين هو خلوها من الدموع أو بخلها بالدمع الذي هو لازم البكاء عند إرادة البكاء منها، كقول أبي عطاء يرثي ابن هبيرة:

ألا إن عينًا لم تَجُد يوم واسط عليك بجاري دمعها لَجَمودُ

إذن فالجمود لا يكون كناية عن السرور بل عن البخل، وبهذا يكون الانتقال من جمود العين إلى بخلها بالدموع، لا إلى ما قصده الشاعر من السرور.

فالشاعر كما نرى، استعمل الكلمات في غير معانيها الحقيقية، أو بعبارة أخرى لم يكن موفقًا في اختيار الكلمات المعبرة عن معناها تعبيرًا جليًّا واضحًا، ومن ثم عقّد المعنى أو وقع في التعقيد المعنوي الذي أخلَّ بفصاحة البيت.

ولعلنا أدركنا على ضوء هذا الشرح كيف أن فصاحة الكلام لا تتأتى إلا إذا سلم من ضعف التأليف، وتنافر الكلمات، والتعقيد اللفظي والمعنوي. أما الفصاحة في المتكلم فملكة يقتدر بها على التعبير عن المقصود بلفظ فصيح.

* * *

الفصل الثاني
علم المعَاني نشأته وتطوّره

علم المعاني هو أحد علوم البلاغة الثلاثة المعروفة: المعاني والبيان والبديع. وقد كانت البلاغة العربية في أول الأمر وحدة شاملة لمباحث هذه العلوم بلا تحديد أو تميز. وكُتُب المتقدمين من علماء العربية خير شاهد على ذلك، ففيها تتجاور مسائل علوم البلاغة ويختلط بعضها ببعض من غير فصل بينها.

وشيئًا فشيئًا أخذ المشتغلون بالبلاغة العربية ينحَوْن بها منحى التخصص والاستقلال، كما أخذت مسائل كل فن بلاغيٍّ تتبلور وتتلاحق واحدة بعد الأخرى. وظل الأمر كذلك حتى جاء عبد القاهر الجرجاني في القرن الخامس الهجري «٤٧١ هـ» ووضع نظرية علم المعاني في كتابه **«دلائل الإعجاز»** ونظرية علم البيان في كتابه **«أسرار البلاغة»** كما وضع ابن المعتز من قبله أساس علم البديع.

عبد القاهر الجرجاني إذن هو واضع أصول علمي المعاني والبيان ومؤسسهما في العربية، وقد جعل من مباحث كلا العلمين وحدة يمكن النظر فيها نظرة شاملة.

والعجيب أنه لم يحدث بعده تغيير يذكر في هذين العلمين، لأنه استطاع أن يستنبط من ملاحظات البلاغيين قبله كل القواعد البلاغية فيهما، وكان ذلك إيذانًا بأن تتحول تلك القواعد من بعده إلى قوانين جامدة. وقد فتن البلاغيون بعمله فراحوا يرددون كلامه ويقفون عنده لا يتجاوزونه إلى عمق أو ابتكار، كأنما البحث في البلاغة قد انتهى بعبد القاهر الجرجاني.

نقول ذلك لأن جهود البلاغيين من بعده انحصرت في جمع قواعد علوم البلاغة التي وضعها، وفي ترتيب أبوابها، واختصارها. وكان هذا الاختصار يصل أحيانًا من الغموض والصعوبة إلى حيث يحتاج إلى شرح يوضح غامضه، ويذلل صعابه فيقبل عليه الشراح، ومنهم من يتوسع في الشرح إلى الحد الذي يجعل الإلمام بحقائق العلم أمرًا عسيرًا. وهكذا وصلت البلاغة نتيجة لذلك إلى أقصى ما يمكن من اختصارات وأقصى ما يمكن من شروح.

ومن أوائل من اتجهوا إلى الاختصار والتخليص الفخر الرازي «٦٠٦ هـ» في كتابه **«نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز»** فقد اختصر فيه كتابي **«دلائل الإعجاز»** و **«أسرار البلاغة»**

لعبد القاهر. وفي ذلك يقول: «**لما وفقني الله لمطالعة كتابي دلائل الإعجاز، وأسرار البلاغة، التقطت منهما معاقد فوائدهما، وجمعت متفرقات الكلم في الضوابط العقلية**».

وظهر بجانب الرازي وفي عصره عالم ضرب بسهم وافر في الفلسفة والمنطق وأصول الفقه والاعتزال واللغة البلاغية، وكان له تأثير خطير على البلاغة العربية.

ذلك العالم هو سراج الدين أبو يوسف بن محمد السكاكي المتوفى سنة ٦٢٦ للهجرة، وصاحب كتاب «**مفتاح العلوم**» الذي جعله أربعة أقسام: قسمًا في علم الصرف، وقسمًا في علم النحو، وقسمًا في علوم البلاغة، وقسمًا في علم الشعر.

لقد سارت دراسة البلاغة قبل السكاكي على منهاج من عدم الفصل بين فنونها، لما في ذلك من خدمة الأدب وإمداده بأسباب القوة والجمال والوضوح. وكان لهذا المنهاج أثره وقيمته في إيقاظ المواهب وإرهاف الملكات الفنية لصناعة الأدب، وإقدار أصحابها على التذوق الأدبي والتمييز بين جيد الكلام ورديئه.

ذلك كان مسار الدراسات البلاغية قبل السكاكي: تنبيه إلى مواطن الحسن والجمال من الكلام، وشحذ لملكات صنّاعه الفنية، ومحاولات للكشف عن العناصر الجمالية في البيان العربي، وتربية لملكة الذوق، وتمكين كل ذي موهبة أدبية من أن يقرأ ويفهم، ويستحسن ويستقبح، ويوازن ويفضل، أو بعبارة أخرى من أن ينقد العمل الأدبي ويحكم عليه. في هذا المنهاج لم تكن محاولة الاهتداء إلى العناصر الجمالية في البيان العربي غاية في حد ذاتها بمقدار ما كانت وسيلة لشحذ الملكات، وتنمية الذوق وإرهاف الحس، وتكوين البلغاء والنقاد.

وعلى العكس من ذلك كان منهاج السكاكي في دراسة البلاغة، فقد أصّل منهاجه فيها على أسس منطقية حولت البلاغة من فن إلى علم له قواعده ونظرياته التي إن نجحت في تكوين طبقات من البلاغيين فقد فشلت في تكوين البلغاء.

ومن هنا كانت خطورة منهاج السكاكي الذي يعد في تاريخ البلاغة بداية طور الجمود في دراستها لقد خيل إليه أنه بمنهاجه المنظم المقنن يصلح من شأن البلاغة فإذا به من حيث لا يدري يفسدها ويسيء إليها.

وشهرة السكاكي في البلاغة مصدرها القسم الثالث من كتابه «**مفتاح العلوم**» فقد أفرد هذا القسم من كتابه لكلام عن علمي المعاني والبيان ولواحقهما من البلاغة والفصاحة

والمحسنات البديعية بنوعيها اللفظي والمعنوي.

فمن خلال مجهودات البلاغيين من قبله وبخاصة عبد القاهر الجرجاني «٤٧١ هـ» والزمخشري محمود بن عمر «٥٣٨ هـ» والفخر الرازي «٦٠٦ هـ» استطاع السكاكي تحقيق أمرين: أحدهما أن ينفذ إلى علم ملخص دقيق لما نثره أولئك في كتبهم من آراء، وكذلك لما توصل إليه هو من أفكار. وثانيهما أن يصوغ كل ذلك في صيغ مضبوطة محكمة، مستعينًا فيها بقدرته المنطقية في التعليل والتعريف والتقسيم والتفريع والتشعيب. وبهذا تحولت البلاغة في مفهومه أولاً وفي تلخيصه ثانيًا إلى علم بأدق المعاني لكلمة علم، فهي عنده قوانين صبت في قوالب منطقية جافة باعدت بينها وبين وظيفتها الأساسية من إمتاع النفس، وإرهاف الحس، وتنمية الذوق، والتمكين لذوي المواهب الأدبية من القدرة على الخلق والإبداع.

وقد عرّف السكاكي علم المعاني بقوله: «**إنه تتبع خواص تراكيب الكلام في الإفادة وما يتصل بها من الاستحسان وغيره، ليُحترز بالوقوف عليها عن الخطأ في تطبيق الكلام على ما يقتضي الحال ذكره**».

وهذا التعريف وحده نموذج لتأليف السكاكي الذي أفرغه في أسلوب علمي منطقي بعيد كل البعد عن جلاء العبارة ووضوح التأليف عند من تقدموه من البلاغيين.

فهو مثلاً في هذا التعريف لا يقصد «**بتراكيب الكلام**» مطلق تراكيب، وإنما يقصد تراكيب البلغاء لا التراكيب الصادرة عمن لا حظ لهم من البلاغة، وهو كذلك يقصد «**بخواص التراكيب**» ما يسبق إلى الفهم منها عند سماعها لكونها صادرة عن البليغ، كما يقصد أيضًا «**بالإفادة**» من قبل ذي الفطرة السليمة.

فالتعريف كما ترى لا يجود بمعناه في سهولة ويسر، وإنما هو يعني طالبه عناءً شديدًا حتى يصل إليه، إن وصل. ومن أجل هذا كثر شرّاح السكاكي وملخصو بلاغته كما سنبين فيما بعد، وكأن البلاغة عند كل من تصدى لشرح أو تلخيص ما ورد عنها في كتاب «**مفتاح العلوم**» للسكاكي أقول: كأن البلاغة عند أولئك الشراح والملخصين أصبحت تنحصر في أمرين: أحدهما الالتزام ببلاغة السكاكي على أنها ختام البلاغة والذروة التي ليس بعدها مجال لمستزيد أو مجتهد وثاني الأمرين إظهار المقدرة والبراعة في شرح كتاب «**المفتاح**» أو تلخيصه.

ويمكن حصر موضوعات علم المعاني التي وردت في القسم الثالث من كتاب «المفتاح» للسكاكي على النحو التالي:

١- الخبر والطلب.

٢- الإسناد الخبري واختلافه باختلاف السامع من حيث خلو الذهن، أو الشك، أو الإنكار.

٣- الإسناد، وبيان أحوال المسند إليه والمسند، من حيث: الحذف والذكر، والتنكير والتعريف، والتقديم والتأخير، والتخصيص والمقتضات البلاغية لذلك.

٤- الفعل ومتعلقاته.

٥- الفصل والوصل.

٦- الإيجاز والإطناب، وبيان كيف أنهما نسبيان.

٧- القصر، وأنواعه، وطرقه.

٨- الطلب، ويندرج تحته:

أ- مقدمة عن الطلب مستمدة من كلام المناطقة عن التصور والتصديق وما يحصل في الذهن، وما يحصل في الخارج.

ب- أنواع الطلب الخمسة: التمني، والاستفهام، والأمر، والنهي، والنداء، وأدوات كل نوع منها، ووظائفها.

ج- الأغراض البلاغية أو المعاني أو المعاني الإضافية التي يخرج الطلب عن معانيه الأصلية من أجل الدلالة عليها، وذلك مثل: التعجب، والإنكار، والاستبطاء، والنفي.

ولما كانت عنايتنا في هذا البحث مقصورة على علم المعاني وحده، فتلك هي موضوعاته كما وردت في كتاب «مفتاح العلوم» للسكاكي، أو بمعنى أدق كما وردت في القسم الثالث منه، والذي تكلم فيه عن علمي المعاني والبيان، ولواحقهما من البلاغة والفصاحة، والمحسنات البديعية بنوعيها اللفظي والمعنوي.

وكما قلت آنفًا لقد نال هذا الكتاب شهرة فائقة في ميدان البلاغة بالذات، ولقد فتن العلماء به إلى الحد الذي جعلهم ينسون أنفسهم وينكرون ملكاتهم. ولهذا ظلوا قرابة خمسة قرون ابتداء من القرن السابع الهجري عاكفين على شرحه وتلخيصه، وكأنه لم

يؤلف في البلاغة العربية غير هذا الكتاب الذي استأثر باهتمامهم وعنايتهم .

وعلى سبيل المثال لا الحصر نذكر هنا بعض من توافروا على كتاب «**مفتاح العلوم**» للسكاكي شرحًا وتلخيصًا . فممن عنوا بشرحه :

١- قطب الدين محمود الشيرازي «٧١٠ هـ» شرحه في كتاب سماه «**مفتاح المفتاح**» .

٢-محمد بن مظفر الخلخالي في كتاب سماه «**شرح المفتاح**» .

٣- السيد الشريف الجرجاني «٨١٦ هـ» شرح القسم الثالث من المفتاح .

٤- ابن كمال باشا «٩٤٠ هـ» ألف شرح المفتاح .

وممن عنوا بتلخيصه:

١- بدر الدين بن مالك «٦٦٨هـ» . اختصره في كتاب سماه «**المصباح في اختصار المفتاح**» ، وقد نال هذا المختصر شهرة واسعة لدى طلاب البلاغة في بلاد المغرب .

٢- أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن الخطيب القزويني «٧٣٩ هـ» ، وقد اختصره في كتاب سماه «**تلخيص المفتاح**» .

٣- عبد الرحمن الشيرازي «٧٥٧ هـ» وسمى تلخيصه لكتاب المفتاح «**الفوائد الغيائية في علوم المعاني والبيان والبديع**» .

ولعل أوسع هذه الكتاب أو التلخيصات شهرة بين المشارقة في كل العصور هو كتاب «**تلخيص المفتاح**» في المعاني والبيان والبديع للخطيب القزويني الآنف الذكر .

فهذا الكتاب قد تنوع اهتمام العلماء به ، فمنهم من شرحه ، ومن نظمه ، ومن لخصه . فممن شرح :

١- الخطيب القزويني نفسه ، فقد وضع له شرحًا سماه «**إيضاح التلخيص**» قصد به أيضاح ما أبهم واستغلق منه كما ضم إليه بعض ما فاته في التلخيص مما تضمنه المفتاح ، وبعض زيادات أخرى من كتابي عبد القاهر «**دلائل الإعجاز**» و «**أسرار البلاغة**» .

٢- محمد بن مظفر الخلخالي «٧٤٥ هـ» وضع له شرحًا سماه «**مفتاح تلخيص المفتاح**» .

٣- بهاء الدين السبكي «٧٧٣ هـ» وضع له شرحًا سماه «**عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح**» .

٤- محمد بن يوسف ناظر الجيش «٧٧٨ هـ» وضع له شرحًا سماه «**شرح تلخيص القزويني**».

٥- محمد البايرتي «٧٨٦ هـ» وشمس الدين القونوي «٧٨٨هـ» وضع له كل منهما شرحًا سماه «**شرح تلخيص المفتاح للقزويني**».

٦- سعد الدين التفتازاني «٧٩٢هـ» وضع له شرحين: الشرح الكبير، والشرح الصغير للتلخيص.

٧- ابن يعقوب المغربي «١١١٠ هـ» صاحب كتاب «**مواهب المفتاح في شرح تلخيص المفتاح**».

وممن نظموه شعرًا:

خضر بن محمد مفتي أماسية، وسمى نظمه «**أنبوب البلاغة**»، وجلال السيوطي، وسمى نظمه «**عقود الجُمان**»، ثم عاد فوضع لمنظومته شرحًا، وعبد الرحمن الأخضري، وسمى نظمه «**الجوهر المكنون في الثلاثة الفنون**».

وممن قام باختصاره:

عز الدين بن جماعة، وأبرويز الرومي، وزكريا الأنصاري.

وتلك الشروح والتلخيصات والمنظومات إن دلت على شيء فعلى جمود الفكر البلاغي وعقمه منذ عصر السكاكي. نقول ذلك لأن كل ما ظهر من شروح وتلخيصات لكتاب المفتاح لا تخرج عن كونها ترديدًا وتكرارًا لمادته، ومحاولات قصد بها الإيضاح بالشرح أو التقريب والتبسيط عن طريق الإيجاز والتلخيص والنظم، وإذا هي من حيث لا يريد ولا يدري أصحابها قد زادت المفتاح صعوبة على صعوبة.

وإنه ليخيل لمن يقرأ هذه الشروح والمتون أن واضعيها لم يكونوا علماء في البلاغة بمقدار ما كانوا معلمين لها، يذكرون الكلمة أو العبارة من الأصل ثم يتبعونها بشرح المراد منها، ولا يتجاوزون ذلك. كلهم في ذلك سواء، وصدق فيهم قول بهاء الدين السبكي: «**يتناولون المعنى الواحد بالطرق المختلفة، ويتناوبون المشكل والواضح على أسلوب واحد... لا يخالف المتأخر المتقدم إلا بتغيير العبارة، ولا يجد له على حل ما استشكل على غيره جسارة... فصارى أحدهم أن يعزو أبياتًا من الشواهد لقائليها، ويوسع**

الدائرة بما لا يقام له وزن من تكميل ناقصها، وإنشاد ما قبلها وما يليها. . . فلو نطق «التلخيص» لتلا ما جئتم به؟ «هذه بضاعتنا ردت إلينا» .

فهذه الكتب الكثيرة التي أريد بها خدمة البلاغة والنقد قد عجزت عن أن تعلم نقدًا أو بلاغة، وهي إن دلت على شيء فعلى جمود عقول أصحابها وفقدانها القدرة على التجديد والابتكار.

والمقارنة بين ما كانت عليه البلاغة العربية في العصور الأولى وما صارت إليه في العصور المتأخرة وترينا كيف ازدهرت وتوهجت شعلتها على أيدي علمائها الأوائل، ثم كيف جفّت وخبت شعلتها على أيدي المتأخرين منهم.

وقد ظل أمرها هكذا جمودًا على جمود حتى قُيّض لها من أدباء العربية وعلمائها في العصر الحديث من يعملون على إحيائها ونهضتها.

* * *

الفصل الثالث
عِلم المَعَاني وأثره في بَلاغة الكلاَم

بعد أن فصَّلنا القول عن البلاغة والفصاحة وأوجه اتفاقهما واختلافهما، وبعد الكلام عن نشأة علم المعاني، وبيان كيف كانت أساليبه المختلفة مختلطة في الأول بأساليب علمي البيان والبديع، وكيف كان ينظر إليها جميعًا على أنها وحدة تؤلف بمجموعها أصول البلاغة العربية، وبعد أن عرفنا كيف أخذت كل هذه الأساليب على مرّ العصور تتبلور وتنحو منحى التميز والاستقلال حتى صارت أساليب البديع علمًا على يد ابن المعتز، والأساليب المتصلة بكل من المعاني والبيان علمًا واضح المعالم والمباحث على يد كل من عبد القاهر الجرجاني والزمخشري والسكاكي . . . أقول بعد ذلك كله نحاول الآن أن نبين أثر علم المعاني في بلاغة الكلام.

وتوطئة للحديث عن هذا الموضوع يجدر بنا أن نتذكر أن الباحثين في البلاغة العربية منذ صدر الإسلام لم يكونوا مدفوعين إلى ذلك بباعث الشغف العلمي والبحث النظري المجرد في البلاغة، وإنما حفزهم في الواقع إلى الاشتغال بها رغبة ملحة في تحقيق هدفين: هدف خاص وآخر عام.

أما الهدف الخاص فكان هدفًا دينيًا يرمي إلى معرفة إعجاز كتاب الله، ومعرفة معجزة رسوله الذي أوتي جوامع الكلم وكان أفصح من نطق بالضاد.

وذلك الهدف يدل على مدى الأثر الذي خلفته الدراسات الأولى في البلاغة وهو البحث في أسرار الإعجاز وأسبابه، واعتبارها مكملة للإيمان بالنبي ورسالته.

وقد أشار إلى ذلك عبد القاهر في كتابه دلائل الإعجاز بقوله: **«إن الجهة التي منها قامت الحجة بالقرآن وظهرت، وبانت وبهرت، وهي أنه كان على حد من الفصاحة تقصر عنه قوى البشر، ومنتهيًا إلى غاية لا يُطمَح إليها بالفِكر، وكان محالاً أن يعرف كونه كذلك إلا من عرف الشعر الذي هو ديوان العرب وعنوان الأدب، والذي لا يُشَك أنه كان ميدان القوم إذا تجارَوْا في الفصاحة والبيان ثم بحث عن العلل التي بها كان التباين في الفصل، وزاد بعض الشعر على بعض»** [1].

---

(١) دلائل الإعجاز: ص ٦-٧ .

أما الهدف العام فلا يتعلق به غرض ديني، وإنما هو محاولة الاطلاع على أسرار البلاغة والفصاحة في غير القرآن، من كلام العرب شعره ونثره، ذلك لأن من لا علم له بأوجه البلاغة يعجز عن التمييز بين الفصيح والأفصح والبليغ والأبلغ.

ويحضرنا هنا في معرض الكلام عن الهدف العام رأي فيه لأبي هلال العسكري مضمونه أن التهاون في طلب البلاغة من جانب صاحب العربية -أيًّا كان- قصور في الفهم وتأخر في المعرفة والعلم. وتفضيل ذلك الرأي كما يقول هو: «**إن صاحب العربية إذا أخل بطلبه وفرط في التماسه، ففاتته فضيلته، وعلقت به رذيلة فوته، عفى على جميع محاسنه، وعمي سائر فضائله، لأنه إذا لم يفرق بين كلام جيد وكلام رديء ولفظ حسن وآخر قبيح، وشعر نادر وآخر بارد، بان جهله وظهر نقصه. وهو أيضًا إذا أراد أن يصنع قصيدة أو ينشئ رسالة - وقد فاته هذا العلم - مزج الصفو بالكدر... واستعمل الوحشيَّ العَكِر، فجعل نفسه مهزأة للجاهل وعبرة للعاقل.. وإذا أراد أيضًا تصنيف كلام منثور أو تأليف شعر منظوم، وتخطى هذا العلم، ساء اختياره له، وقبحت آثاره فيه، فأخذ المرذول وترك الجيد المقبول، فدل على قصور فهمه، وتأخر معرفته وعلمه**»[(١)].

على هدى من هذه التوطئة التي توضح الهدفين اللذين كانا - ولم يزالا - منشودين من وراء الدراسات البلاغية نتقدم إلى بيان أثر علم المعاني في بلاغة الكلام.

ويمكن القول من البدء أن الأثر الذي يحدثه علم المعاني في بلاغة القول يتولد في الواقع من أمرين اثنين: بيان وجوب مطابقة الكلام لحال السامعين والمواطن التي يقال فيها، والمعاني المستفادة من الكلام ضمنًا بمعونة القرائن.

وتوضيحًا للأمر الأول نقول: إن مباحث المعاني من شأنها أن تبين لنا وجوب مطابقة الكلام لحال السامعين والمواطن التي يقال فيها، كما ترينا أن القول لا يكون بليغًا كيفما كانت صورته حتى يلائم المقام الذي قيل فيه، ويناسب حال السامع الذي ألقى عليه.

فللمخاطب الذي يلقى إليه خبر من الأخبار مثلاً ثلاث حالات: ففي الحالة الأولى قد يكون خالي الذهن من الحكم الذي هو مضمون الخبر، وعندئذ تقتضي مطابقة الكلام لحاله أن يلقى إليه الخبر مجردًا عن أي تأكيد.

---

(١) كتاب الصناعتين: ص ٢-٣.

وفي الحالة الثانية قد يكون المخاطب على علم بالخبر، ولكن علمه به يمتزج بالشك وله تطلع إلى معرفة الحقيقة، وفي هذه الحالة وطبقًا لمقتضيات البلاغة يحسن توكيد الخبر له إزالة للشك وتمكينًا للخبر من نفسه.

وفي الحالة الثالثة قد يكون المخاطب على علم بالخبر ولكنه منكر جاحد له، وعندئذٍ يجب أن يلقى إليه الخبر مؤكدًا أو أكثر تبعًا لدرجة إنكاره قوةً وضعفًا.

على هذا الأساس إذا ألقى الخبر إلى خالي الذهن منه بالصورة التي يجب أن يلقى بها المنكر له، كان في ذلك خروج على مقتضيات البلاغة من جهة وجوب مطابقة الكلام لحال السامع الذي هو أصل من أصول علم المعاني.

كذلك من أصول علم المعاني أن يخاطب كل إنسان على قدر استعداده في الفهم وحظه من اللغة والأدب، فلا يجوز أن يخاطب العامي بما ينبغي أن يخاطب به الأديب، فعكس الأمر هنا بلا داع فيه إخلال بما تتطلبه بلاغة المعنى، لانعدام الملاءمة بين الكلام ومقامه.

ولعل فيما رواه صاحب الأغاني من حديث أحمد بن خلاد عن أبيه ما يوضح بالمثال هذا الأصل القائل بأن البلاغة هي فن مخاطبة كل إنسان على قدر استعداده في الفهم وحظه من اللغة والأدب.

وقال أحمد بن خلاد: حدثني أبي قال: قلت لبشار: إنك لتجيء بالشيء الهجين [1] المتفاوت! قال: وما ذاك؟ قال: قلت: بينما تقول شعرًا يثير النقع، وتخلع به القلوب، مثل ذلك:

إذا ما غضبنا غضبة مضرية هتكنا حجاب الشمس أو تمطر الدما
إذا ما أعرنا سيدًا من قبيلة ذرى منبر صلى علينا وسلما

تقول:

ربابة ربة البيت تصب الخل في الزيت
لها عشر دجاجات وديك حسن الصوت!

فقال بشار: لكلٍّ وجه وموضع. فالقول الأول جِدٌّ، وهذا قلته في ربابة جاريتي، وأنا

(١) الهجن من القول: ما يلزمك منه العيب.

لا آكل البيض من السوق، وربابة لها عشر دجاجات وديك، فهي تجمع لي البيض، فهذا عندها من قولي أحسن من «**قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل**» عندك [١].

وتتمثل مطابقة الكلام لمقتضى الحال أيضًا فيه القائل من إيجاز وإطناب، حيث لكل من الإيجاز والإطناب مقاماته التي تقتضيها حال السامع ومواطن القول.

فالذكي الذي تكفيه اللمحة أو الإشارة يحسن له الإيجاز، والغبي أو المكابر يجمل عند خطابه الإطناب في القول.

فالبلاغة تقتضي استخدام أسلوب الإيجاز مع الذكي اعتمادًا على سرعة فهمه وقدرته على استيعاب ما تحمله الألفاظ القليلة من المعاني الكثيرة، وكذلك الشأن بالنسبة لأسلوب الإطناب، فبلاغته تستلزم الإسهاب بالشرح والإيضاح، إما طلبًا لتمكين المخاطب من الفهم إن كان غبيًا، وإما لتنزيله منزلة قصار العقول إن كان قد تجاوز الحد في المكابرة والعناد.

وتأييدًا لما ذكرنا عن الإيجاز والإطناب نورد هنا كلمتين توضح كل منهما رأي صاحبها في ذلك:

رُوِيَ عن جعفر بن يحيى أنه قال مع إعجابه بالإيجاز: «**متى كان الإيجاز أبلغ كان الإكثار عَيًا، ومتى كانت الكناية في موضع الإكثار كان الإيجاز تقصيرًا**».

وأمر يحيى بن خالد بن برمك اثنين أن يكتبا كتابًا في معنى واحد، فأطال أحدهما واختصر الآخر، فقال للمختصر - وقد نظر في كتابه -: وما أرى موضوع زيادة، وقال للمطيل: ما أرى موضع نقصان [٢].

أما الأمر الثاني الذي يبحث فيه علم المعاني فهو دراسة ما يستفاد من الكلام ضمنًا بمعونة القرائن.

فالكلام يفيد في أصل وضعه معنى نطق عليه المعنى الحقيقي أم الأصلي، ولكنه قد يخرج أحيانًا عن المعنى الذي وضع له أصلاً ليؤدي إلينا معنى جديدًا يفهم من السياق وترشد إليه الحال التي قيل فيها.

فالغرض مثلاً من إلقاء الخبر إلى المخاطب في أصل الوضع هو، إمَّا إفادته الحكم

---

(١) كتاب الأغاني: ج ٣ ص ٦٠.
(٢) كتاب الصناعتين ١٩٠.

الذي تضمنه الخبر، وإمَّا إفادته أن المتكلم عالم بالحكم. كقولك: **«كان عمر بن عبد العزيز لا يأخذ من بيت المال شيئًا»** وكقولك: **«لقد كنت في مطار بيروت أمس»**.

ففي المثال الأول تريد إفادة السامع بما لم يكن يعرفه عن عمر بن عبد العزيز من العفة والزهد في مال المسلمين، وفي المثال الثاني لا تريد إفادة السامع مضمون الكلام لأن ذلك معلوم له قبل أن تعلمه أنت، فالسامع في هذه الحال لم يستفد علمًا بالخبر نفسه، وإنما استفاد أنك عالم به.

ذلك هو الغرض من إلقاء الخبر في أصل الوضع، إما إفادة المخاطب بالحكم، وإما إفادته أن المتكلم عالم به. ولكن الخبر قد يخرج عن هذين المعنيين ليؤدي إلينا معنى جديدًا يفهم من السياق:

تأمل مثلاً قول أبي فراس الحمداني:

ومكارمي عدد النجوم ومنزلي مأوى الكرام ومنزل الأضياف

وكذلك قول أبي العتاهية في رثاء ولده عليّ:

بكيتك يا عليُّ بدمع عيني فما أغنى البكاء عليك شيا
وكانت في حياتك لي عظات وأنت اليوم أوعظ منك حيا

كلا الشاعرين هنا لا يقصد أيًا من المعنيين اللذين يدل عليهما الخبر بأصل وضعه، وإنما يقصد إلى معنى آخر يستشفه اللبيب ويلمحه من سياق الكلام، هو في بيت أبي فراس الفخر بمكارمه الكثيرة وكرمه، وهو في بيتي أبي العتاهية إظهار التحسر والأسى على فقد ولده وفلْذة كَبِده.

وكذلك الشأن بالنسبة لأساليب الأمر والنهي والاستفهام والتمني والنداء، فقد يخرج كل منها عن معناه الأصلي لغرض بلاغي بديع، أراده المتكلم من الخروج عما يقتضيه ظاهر الكلام، كالخروج بالأمر عن أصل وضعه مثلاً لإفادة التعجيز، وبالنهي لإفادة الدعاء، وبالاستفهام لإفادة التعجب.

وليس من غرضنا هنا التعرض بالشرح لكل أساليب المعاني وتوضيح المعنى أو المعاني التي تستفاد من كل منها ضمنًا بمعونة القرائن، وإنما أوردنا منها على سبيل المقال لا الحصر.

ولعل فيما أوردناه كفاية لبيان ما لعلم المعاني من أثر في بلاغة الكلام، وإقناعًا لكل

راغب بقيمة دراسة أساليب علم المعاني المختلفة والإفادة منها في الارتفاع بأسلوب إنشائه من ناحية، وفي الحكم على جيد الكلام ورديئه من ناحية أخرى.

والآن نشرع في دراسة مباحث علم المعاني دراسة تفصيلية، ونبدأ أول ما نبدأ بالكلام بين الخبر والإنشاء.

* * *

المبحث الأول
الكلام بين الخبر والإنشاء

الخبر:

لعل الكلام حول مفهوم الخبر والإنشاء قد نشأ مع نشأة الجدل في عصر المأمون حول فتنة القول بخلق القرآن.

فالمعتزلة الذين أباحوا حرية التفكير كانوا ممن قالوا إن القرآن وإن كان وحيًا إلا أنه مخلوق، بدلاً من العقيدة التي كانت لا تُنازَع وهي أن القرآن أزلي غير مخلوق.

وقد بنى المعتزلة قولهم بخلق القرآن على أساس أن ما تضمنه لا يخرج عن واحد من ثلاثة: أمر ونهي وخبر، وذلك ينفي عنه صفة القدم.

ومن هنا جاء تحديد المعتزلة لمفهوم الخبر من حيث صدقه وكذبه، ومن رجال الاعتزال الذين أبدوا رأيهم في ذلك إبراهيم بن يسار النَّظَّام البصري وتلميذه الجاحظ.

فصدقُ الخبرِ أو كذبه عن «**النظام**» هو في مطابقته لاعتقاد المخبر أو عدم مطابقته. فالخبر عنده يكون صدقًا بشرط مطابقته لاعتقاد المخبر حتى ولو كان ذلك الاعتقاد خطأ في الواقع، وكذلك يكون الخبر عنده كاذبًا بشرط عدم مطابقته لاعتقاد المخبر، حتى ولو كان ذلك الاعتقاد صوابًا في الواقع.

وتبعًا لرأي «**النَّظام**» هذا يكون قول القائل: البحر ماؤه عذب - معتقدًا ذلك - صدق ويكون قوله: البحر ماؤه ملح - غير معتقد ذلك - كذب.

وهذا الرأي قد بُني على أساس أن من اعتقد أمرًا فأخبر به، ثم تبين له أنه مخالف أو غير مطابق للواقع لا يعد كذبًا، وإنما يعد مخطئًا، وقد رُوِي عن عائشة أنها قالت فيمن شأنه كذلك: «**ما كذب ولكن وهم**» أي أخطأ.

ثم جاء «**الجاحظ**» بعد أستاذه «**النظام**» ولم يقف بالخبر عند حد الصدق والكذب. فهو ينكر انحصار الخبر في الصدق والكذب، ويزعم أن الخبر ثلاثة أقسام: صادق، وكاذب، وغير صادق ولا كاذب.

فالخبر الصادق، في رأي الجاحظ - هو المطابق للواقع مع الاعتقاد بأنه مطابق. والخبر الكاذب عنده هو الذي لا يطابق الواقع، مع الاعتقاد بأنه غير مطابق.

أما الخبر الذي ليس بصادق ولا كاذب فليس نوعًا واحدًا، وإنما هو أربعة أنواع، وهذه هي:

١- الخبر المطابق للواقع مع الاعتقاد بأنه غير مطابق.

٢- الخبر المطابق للواقع بدون اعتقاد أصلاً.

٣- الخبر غير المطابق للواقع مع الاعتقاد بأنه مطابق.

٤- الخبر غير المطابق للواقع بدون اعتقاد أصلاً.

ومن العلماء الأوائل الذين عرضوا لموضوع الخبر أيضًا ابن قتيبة الدينوري في كتابه **«أدب الفكرة»**، وذلك إذ يقول: «**والكلام أربعة: أمر، وخبر، واستخبار، ورغبة، ثلاثة لا يدخلها الصدق والكذب، وهي الأمر والاستخبار والرغبة، وواحد يدخله الصدق والكذب وهو الخبر**» [١].

ومن أولئك العلماء قدامة بن جعفر. ففي كتابه نقد النثر يعرف الخبر بقوله: «**والخبر كل قول أفدت به مستمعه ما لم يكن عنده، كقولك: قام زيد، فقد أفدته العلم بقيامه. ومنه ما يأتي بعد سؤال فيسمى «جوابًا»** كقولك في جواب من سألك: ما رأيك في كذا؟ فتقول: رأيي كذا: وهذا يجوز أن يكون ابتداء منك فيكون خبرًا، فإذا أتى بعد سؤال كان جوابًا كما قلنا» [٢].

وإتمامًا لمفهوم الخبر عند قدامة يقول: «**وليس في صنوف القول وفنون ما يقع فيه الصدق والكذب غيرُ الخبر والجواب إلا أن الصدق والكذب يستعملان في الخبر ويستعمل مكانهما في الجواب «الخطأ والصواب»**، والمعنى واحد، وإن فرق اللفظ بينهما، وكذلك يستعمل في الاعتقاد موضع الصدق والكذب **«الحق والباطل»** والمعنى قريب من قريب» [٣].

ويمكن تلخيص مفهوم الخبر عند قدامة بن جعفر على الوجه التالي:

١- الخبر بصفة عامة أو أيًا كان نوعه هو كل قول يستفيد منه المخبر به علمًا بشيء لم يكن معلومًا له عند إلقاء القول عليه.

---

(١) انظر أدب الكاتب على هامش كتاب المثل السائر ص ٤ .

(٢) كتاب نقد النثر ص ٤٤ . (٣) نفس المرجع ص ٤٥ .

٢- والخبر بصفة خاصة هو ما يبتدئ الخبر به، أو ما يلقيه على مستمعه ابتداء، بقصد إعلامه بشيء يجهله أو لا يعرفه. وهذا النوع من الخبر عنده هو ما يحتمل الصدق والكذب. فإذا حصل الاعتقاد في صدق هذا الخبر فهو «**الحق**» وإذا حصل الاعتقاد في كذبه فهو «**الباطل**».

٣- والخبر الجوابي أو الجواب الذي يعده قدامةُ قسيمَ الخبر هو ما يأتي بعد سؤال، أو ما يأتي جوابًا على سؤال. وهذا النوع من الخبر يحتمل الصدق والكذب، فإذا حصل الاعتقاد في صدقه فهو «**الصواب**» وإذا حصل الاعتقاد في كذبه فهو «**الخطأ**».

وما من شك في أن قدامة قد تأثر في مفهومه للخبر بمفهومه عند النظام والجاحظ، وإن كان هو قد طوّر هذا المفهوم وزاد عليه.

ومفهوم الكذب والصدق عند قدامة قد عبر عنه بقوله: «**والكذب إثبات شيء لشيء لا يستحقه، أو نفي شيء عن شيء يستحقه، والصدق ضد ذلك، وهو إثبات شيء لشيء يستحقه، أو نفي شيء عن شيء لا يستحقه**» (١).

وممن عالج موضوع الخبر كذلك ابن فارس في كتابه «**الصحابي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها**».

وابن فارس هذا هو الحسين بن فارس بن زكريا بن محمد بن حبيب المشهور بابن فارس، المتوفى سنة ٣٩٥ للهجرة.

وهو من أكثر علماء القرن الرابع الهجري تأليفًا وتصنيفًا. فقد ألف، وصنف أربعة وأربعين كتابًا في الفقه والتفسير والسيرة والأدب واللغة والنحو وفقه اللغة.

ومع غزارة إنتاجه العلمي وتنوعه، فإنه كما يبدو من بعض أشعاره، كان يحيا حياة شظف وعزلة، كقوله:

وقالوا: كيف حالك؟ قلت خير ... تقضَّى حاجة وتفوت حاج
إذا ازدحمت هموم الصدر قلنا: ... عسى يومًا يكون لها انفراج
نديمي هرّتي وأنيس نفسي ... دفاتر لي ومعشوقي السِّراج

وكتابه «**الصاحبي**» هو من آخر ما ألف فقد كتبه قبل وفاته بثلاثة عشر عامًا، وفيه عقد

---

(١) كتاب نقد النثر ص ٤٧ .

ابن فارس بابًا سماه «**باب معاني الكلام**» وذكر فيه أن معاني الكلام «**هي عند أهل العلم عشرة: خبر، واستخبار، وأمر، ونهي، ودعاء، وطلب، وعرض، وتحضيض، وتمنّ، تعجب**».

وما يعنينا هنا من هذه المعاني العشرة هو «**الخبر**» فقد عقد له بابًا خاصًّا سماه «**باب الخبر**» وفيه يقول: «**أما أهل اللغة فلا يقولون في الخبر أكثر من أنه إعلام، تقول: أخبرته أخبره، والخبر العلم**.

وأهل النظر يقولون: الخبر ما جاز تصديقه أو تكذيبه، وهو إفادة المخاطب أمرًا في ماض من زمان أو مستقبل أو دائم. نحو: قام زيد وقائم زيد. ثم يكون واجبًا وجائزًا وممتنعًا، فالواجب قولنا: النار محرقة، والجائز قولنا: لقي زيد عمرًا، والممتنع قولنا: حملت الجبل» [١].

وأهل النظر الذين يحكي قولهم ابن فارس هنا منهم على التحديد قدامة بن جعفر، لأن القول السابق وارد في كتابه «**نقد النثر**» وكل ما هنالك أن ابن فارس زاده توضيحًا بالأمثلة.

وقد ذكر ابن فارس في «**باب الخبر**» المعاني الكثيرة التي يحتملها لفظ الخبر، وهذه سنعرض لها فيما بعد عند كلامنا عن الأغراض التي يخرج إليها الخبر.

ومهما اختلفت آراء العلماء في مفهوم الخبر فإن هناك قدرًا مشتركًا بينهم يمكننا أن نستخلص منه تعريفًا له وهو: الخبر ما يصح أن يقال لقائله إنه صادق فيه أو كاذب. فإن كان الكلام مطابقًا للواقع كان قائله صادقًا، وإن كان غير مطابق له كان قائله كاذبًا.

البلاغيون والخبر:

ويقول البلاغيون: إن احتمال الخبر للصدق والكذب إنما يكون بالنظر إلى مفهوم الكلام الخبريّ ذاته، دون النظر إلى المخبر أو الواقع؛ إذ لو نظرنا عند الحكم على الخبر بالصدق أو الكذب إلى المخبر أو الواقع، لوجدنا أن من الأخبار ما هو مقطوع بصدقه لا يحتمل كذبًا، وما هو مقطوع بكذبه لا يحتمل صدقًا.

فمن الأخبار المقطوع بصحتها ولا تحتمل الكذب ألبتة أخبار الله تعالى، أي كل ما

---

(١) كتاب الصاحبي لابن فارس ص ١٧٩ .

يخبرنا الله به، وأخبار رسله، والبدهيات المألوفة من مثل: السماء فوقنا والأرض تحتنا، وماء البحر ملح وماء النهر عذب.

ومن أخبار المقطوع بكذبها ولا تحتمل الصدق والأخبار المناقضة للبدهيات، نحو: الجزء أكبر من الكل، والأسبوع خمسة أيام، وكذلك التي تتضمن حقائق معكوسة، نحو: الأمانة رذيلة والخيانة فضيلة.

ولكن هذه الأخبار المقطوع بصحتها أو المقطوع بكذبها إذا نظرنا إليها ذاتها دون النظر إلى قائلها أو إلى الواقع كانت محتملة للصدق والكذب، شأنها في ذلك شأن سائر الأخبار.

ركنا الجملة:

وكل جملة من جمل الخبر لها ركنان: محكوم عليه، وهو المسند إليه، ومحكوم به، وهو المسند، وما زاد على ذلك في الجملة غير المضاف إليه وصلة الموصول فهو قيد.

فإذا قلنا: «**سافر الصديق**» و «**الناجح مسرور**» فإن الذي حكم عليه بالسفر أو أسند إليه السفر في الجملة الأولى هو «**الصديق**» والذي حكم به للصديق أو أسند له هو «**السفر**»، وعلى هذا يكون «**الصديق**» هو المحكوم عليه أو المسند إليه، ويكون «**سافر**» وهو المحكوم به أو المسند.

وركنا الجملة الثانية هما «**الناجح**» و «**مسرور**»، والذي حكم عليه بالسرور أو أسند إليه السرور هنا هو «**الناجح**»، والذي حكم به للناجح أو أسند له هو «**السرور**»، وعلى هذا يكون «**الناجح**» هو المحكوم عليه أو المسند إليه، ويكون «**مسرور**» هو المحكوم به أو المسند والمسند إليه عادة هو الفاعل، أو نائب الفاعل، أو المبتدأ الذي له خبر، أو ما أصله المبتدأ كاسم كان وأخواتها، والمسند هو الفعل التام، أو المبتدأ المكتفي بمرفوعه، أو خبر المبتدأ، أو أصله خبر المبتدأ كخبر كان وأخواتها، أو المصدر النائب عن فعل الأمر.

ولعلنا لاحظنا من الجملتين السابقتين أن الخبر إما أن يكون جملة اسمية أو فعلية، والجملة الاسمية تفيد بأصل وضعها ثبوت شيء لشيء ليس غير؛ فجملة «**الناجح مسرور**» لا يفهم منها سوى ثبوت شيء لشيء للناجح من غير نظر إلى حدوث أو استمرار.

ولكن الجملة الاسمية قد يكتنفها من القرائن والدلالات ما يخرجها عن أصل وضعها

فتفيد الدوام والاستمرار، كأن يكون الكلام في معرض المدح أو الذم، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ۝١٣ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ﴾ [الانفطار :١٣-١٤] ، فالجملة الأولى سيقت في معرض المدح، والثانية سيقت في معرض الذم، والمدح والذم كلاهما قرينة، ولهذا فكلتا الجملتين قد خرجت عن أصل وضعها وهو الثبوت، وأفادت الدوام والاستمرار، أي أن الأبرار في نعيم دائم مستمر، والفجار كذلك في جحيم دائم مستمر.

والجملة الاسمية لا تفيد الثبوت بأصل وضعها ولا الدوام والاستمرار بالقرائن إلا إذا كان خبرها مفردًا أو جملة اسمية، أما إذا كان خبرها جملة فعلية فإنها تفيد التجدد. فإذا قلت: «**الدولة تكرم العاملين من أبنائها**»، كان معنى هذا أن تكريم الدولة للعاملين من أبنائها أمر متجدد غير منقطع.

أما الجملة الفعلية فموضوعة أصلاً لإفادة الحدوث في زمن معين، فإذا قلت: «**عاد الغريب إلى وطنه**» أو «**يعود الغريب إلى وطنه**» أو «**سيعود الغريب إلى وطنه**» لم يستفد السامع من الجملة الأولى إلا حدوث عودة الغريب إلى وطنه في الزمن الماضي، ولم يستفد من الجملة الثانية إلا احتمال عودة الغريب إلى وطنه في الزمن الحاضر أو المستقبل، كما لم يستفد من الجملة الثالثة إلا عودة الغريب إلى وطنه في الزمن المستقبل.

وقد تفيد الجملة الفعلية الاستمرار التجددي بالقرائن، كما في قول المتنبي مادحًا سيف الدولة:

على قدر أهل العزم تأتي العزائم — وتأتي على قدر الكرام المكارم
وتعظم في عين الصغير صغارها — وتصغر في عين العظيم العظائم

فالمدح هنا قرينة دالة على أن إتيان العزائم على قدر أهل العزم، وإتيان المكارم على قدر الكرم، وعظم صغار المكارم في عين الصغير، وصغر العظائم في عين العظيم، إنما هو أمر مستمر متجدد على الدوام.

وقد ذكرنا آنفًا أن جملة الخبر لها ركنان: المسند إليه، والمسند، وأن ما زاد على ذلك في الجملة غير المضاف إليه وصلة الموصوف فهو قيد. وقيود الجملة هي: أدوات الشرط، وأدوات النفي، والمفاعيل الخمسة، والحال، والتمييز، والأفعال الناسخة

والتوابع الأربعة : النعت، والعطف، والتوكيد، والبدل.

وعلماء المعاني يقسمون الجملة إلى جملة رئيسية، وجملة غير رئيسية والأولى هي المستقلة التي لا تكون قيدًا في غيرها، والثانية ما كانت قيدًا في غيرها، وليست مستقلة بنفسها.

أغراض الخبر:

الأصل في الخبر أن يلقى لأحد غرضين :

١- إفادة المخاطب الحكم الذي تضمنته الجملة أو العبارة، ويسمى ذلك الحكم فائدة الخبر.

٢- إفادة المخاطب أن المتكلم عالم بالحكم ويسمى ذلك لازم الفائدة.

فالغرض الأول هنا وهو «**فائدة الخبر**» يقوم في الأصل على أساس أن من يُلقى إليه الخبر، أو من يُوجَّه إليه الكلام يجهل حكمه أي مضمونه، ويُراد إعلامه أو تعريفه به.

وهذا الغرض الذي يسميه البلاغيون «**فائدة الخبر**» يتمثل في جميع الأخبار التي يبغي المتكلم من ورائها تعريف من يخاطبه بشيء أو أشياء يجهلها. كذلك يتمثل في الأخبار المتعلقة بالحقائق التي تشتمل عليها الكتب في العلوم والفنون المختلفة، أو الحقائق العلمية التي تلقى على المتعلمين.

ومن ذلك مثلاً هذا الخبر التاريخي عن معاوية بن أبي سفيان : «**أسلم معاوية مع أبيه عام الفتح، واستكتبه النبيّ ﷺ، واستعمله عمر على الشام أربع سنين من خلافته، وأقرّه عثمان مدة خلافته نحو اثنتي عشرة سنة، وتغلّب على الشام محاربًا لعليّ أربع سنين، فكان أميرًا وملكًا على الشام نحو أربعين سنة. وكان حليمًا حازمًا داهية عالمًا بسياسة الملك، وكان حلمه قاهرًا لغضبه، وجوده غالبًا على منعه، يصل ولا يقطع**»[1].

فمثل هذا الخبر قد قُصد به مَن يُلقى إليه بمضمونه، أي بما اشتمل عليه من الحقائق التاريخية عن أول خلفاء الأمويين معاوية بن أبي سفيان، من حيث إسلامه، واستكتاب النبي له، ومدة ولايته وملكه على الشام، وأخلاقه، فالغرض من الخبر هنا إذن هو «**فائدة الخبر**».

---

(١) كتاب المختصر في أخبار البشر لأبي الفداء ج ٢ ص ١٠٣ .

أما الغرض الثاني من الخبر فهو ما سماه البلاغيون «**لازم الفائدة**» وهو ما يقصد المتكلم من ورائه أن يفيد مخاطبه أنه، أي المتكلم، عالم بحكم الخبر، أي مضمونه، وفي الأمثلة التالية ما يوضح ذلك:

١- إنك لتكظم الغيظ، وتحلم عند الغضب، وتعفو مع القدرة، وتصفح عن الزلة، وتستجيب لنداء المستغيث بك.

٢- وقال المتنبي مخاطبًا سيف الدولة ومثنيًا على شجاعته:

تدوس بك الخيل الوكور على الذرى وقد كثرت حول الوكور المطاعم

٣- وقال أحد الشعراء معاتبًا:

وتغتابني في كل ناد تحلة وتزعم أني لست كفئًا لمثلكا

فالمتكلم في المثال الأول لا يقصد منه أن يفيد من يخاطبه شيئًا مما تضمنه الكلام من الأحكام التي أسندها إليه من كظم الغيظ، والحلم ساعة الغضب، والعفو مع المقدرة، والاستجابة لنداء المستغيثين به، لأن ذلك يعلمه المخاطب عن نفسه قبل أن يعلمه المتكلم، وإنما يريد أن يبين له أنه - أي المتكلم - عالم بما تضمنه هذا الكلام.

والمتنبي وهو يخاطب سيف الدولة بالبيت السابق لا يقصد أن يخبره ويفيده بأنه وهو يحارب أعداءه الروم كان يتتبعهم ويطارد فلولهم بجيشه في قمم الجبال حيث وكور جوارح الطير فيقتلهم هناك ويصنع من جثثهم وليمة كبيرة متناثرة حول أوكارها.

أجل لا يقصد المتنبي أن يفيد مخاطبه علمًا بمضمون بيته، لأن سيف الدولة لا يجهله، بل هو يعلمه عن نفسه قبل أن يُعلمه المتكلم به، وإنما يريد المتنبي أن يبين لسيف الدولة أنه - المتنبي - عالم بمضمون الخبر الذي أورده في بيته.

وفي المثال الثالث لا يقصد الشاعر منه أن يفيد مخاطبه علمًا بمضمون البيت الذي أسنده إليه، من اغتيابه له في كل مكان يكون فيه، ومن الزعم بأنه ليس كفئًا له؛ لأن المخاطب يعلم أن ذلك قد حدث منه ويحدث، وإنما يبغي الشاعر وراء إلقاء هذا الخبر على من يخاطبه به بأنه يعلم مضمونه ولا يجهله.

فالمخاطب إذن في كل مثال من الأمثلة الثلاثة لم يستفد علمًا بالخبر نفسه، لأنه يعلمه مسبقًا ولا يجهله، وإنما استفاد أن المتكلم عالم به، ويسمى ذلك النوع من الخبر «**لازم الفائدة**».

ومن الأمثلة السابقة ونظائرها يمكن القول بأن الخبر «**لازم الفائدة**» يأتي في مواضع المدح والعتاب واللوم وما أشبه ذلك من كل موضع يأتي فيه إنسانٌ ما عملًا ما، ثم يأتي شخص آخر فيخبره به لا على أساس أن المخاطب يجهله، وإنما على أساس أن المتكلم عالم بالحكم، أي بمضمون الخبر الذي أسنده إليه.

أضرب الخبر:

على أن الخبر سواء أكان الغرض منه «**فائدة الخبر**» أو «**لازم الفائدة**» لا يأتي على ضرب واحد من القول، وإنما ينبغي على صاحب الخبر أن يأخذ في اعتباره حالة المخاطب عند إلقاء الخبر، وذلك بأن ينقله إليه في صورة من الكلام تلائم هذه الحالة بغير زيادة أو نقصان.

والمخاطب بالنسبة لحكم الخبر، أي مضمونه، له ثلاث حالات هي:

١- أن يكون المخاطب خالي الذهن من الحكم، وفي هذه الحال يُلقى إليه الخبر خاليًا من أدوات التوكيد، ويسمى هذا الضرب من الخبر «**ابتدائيًا**».

٢- أن يكون المخاطب مترددًا في الحكم شاكًّا فيه، وينبغي الوصول إلى اليقين في معرفته، وفي هذه الحال يحسن توكيده له ليتمكن من نفسه، ويحل فيها اليقين محل الشك. ويسمى هذا الضرب من الخبر «**طلبيًا**».

٣- أن يكون المخاطب منكرًا لحكم الخبر، وفي هذا الحال يجب أن يؤكد له الخبر بمؤكد أو أكثر، على حسب درجة إنكاره من جهة القوة والضعف، ويسمى هذا الضرب من الخبر «**إنكاريًا**».

وتبيانًا لأضرب الخبر السابقة بالنسبة لحالات المخاطب نورد فيما يلي ثلاث طوائف من الأمثلة توضح كل طائفة منها ضربًا من أضربه.

أما الطائفة الأولى، وجميعها من شعر المتنبي، فهي:

أ- سُبقنا إلى الدنيا فلو عاش أهلها ... منعنا بها من جيئة وذهوب
تملكها الآتي تملك سالب ... وفارقها الماضي فراق سليب
ب - أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبي ... وأسمعت كلماتي من به صمم
أنام ملء جفوني عن شواردها ... ويسهر الخلق جراها ويختصم

ج-وكل امرئ يولى الجميل محبب وكل مكان ينبت العز طيب
د-لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى حتى يراق على جوانبه الدّم
هـ-أتى الزمان بنوه في شبيبتهم فسرّهم وأتيناه على الكبر

فالمتنبي يلقي الخبر في كل مثال من هذه الأمثلة إلى مخاطب خالِي الذهن من حكمه؛ أي مضمونه، ومن أجل ذلك جاء بالخبر خاليًا من أدوات التوكيد. وهذا هو ضرب الخبر «الابتدائي».

والطائفة الثانية من شعر أبي العلاء المعري وهي:

أ- إن الذي بمقال الزور يضحكني مثل الذي بيقين الحق يبكيني
ب- إذا ما الأصل ألفي غير زاك فما تزكو مدى الدهر الفروع
ج- وقد يغشى الفتى لجج المنايا حذارًا من أحاديث الرفاق

فالمعري يوجّه الخبر الذي تضمنه كل بيت هنا إلى مخاطب متردد في حكم الخبر ومضمونه، ولهذا حسن توكيد الكلام له بمؤكد تمكينًا له من نفسه وحسمًا للشك في حقيقته. وهذا الضرب من الخبر «طلبيٌ» وأداة التوكيد في البيت الأول «إن» المشددة النون وفي البيت الثاني «ما الزائدة» بعد كلمة «إذا» وفي البيت الثالث «قد».

والطائفة الثالثة من شعر أبي العلاء المعري أيضًا، وهي:

أ- ألا إن أخلاق الفتى كزمانه فمنهن بيض في العيون وسود
ب- لعمرك ما في الأرض كهل مجرب ولا ناشئ إلا لاثم مراهق [(١)]
ج- لقد نفق الرديء، وربّ مرٍّ من الأقوات يجعل في الصحاف [(٢)]

فالمعري في هذه المرة يتجه بالخبر في كل مثال من الأمثلة هنا إلى شخص ينكر حكم الخبر ويعتقد ما يخالفه، ولذلك كان من الواجب تأكيد الخبر له على حسب إنكاره قوة وضعفًا، بمعنى أن يزداد له في التأكيد كلما اشتد إنكاره.

وقد أكد له الخبر في البيت الأول بمؤكدين هما: حرف التنبيه «ألا» و «إنّ» المشددة النون، وفي البيت الثاني بمؤكدين هما: لام الابتداء، والقسم في «لعمرك» إذ معناها «لعمرك قسمي»، وفي البيت الثالث أكد له الخبر بمؤكدين أيضًا هما: لام الابتداء، وقد

(١) مراهق: مرتكب.
(٢) نفق الرديء: راج وكثر طلابه. الصحاف: جمع صحفة، والصحفة: إناء أو وعاء كالقصعة.

في «لقد»، وهذا الضرب من الخبر «إنكاري».

وتجدر الإشارة هنا إلى أن الحكم على الخبر بأنه ابتدائي، أو طلبي، أو إنكاري، إنما هو على حسب ما يخطر في نفس القائل من أن سامعه خالي الذهن أو متردد أو منكر.

مؤكدات الخبر:

عرفنا من دراستنا لأضرب الخبر أن المخاطب الذي يُلقى إليه الخبر إذا كان مترددًا في حكمه حسن توكيده له ليتمكن مضمون الخبر من نفسه، وإذا كان منكرًا لحكم الخبر وجب توكيده له على حسب إنكاره قوة وضعفًا.

والأدوات التي يؤكد بها الخبر كثيرة منها: إنّ، ولام الابتداء، وأمَّا الشرطية، والسين، وقد، وضمير الفصل، والقسم، ونونا التوكيد، والحروف الزائدة، وأحرف التنبيه، وفيما يلي تفصيل وتوضيح لهذه الأدوات:

١- «إنّ» المكسورة الهمزة المشددة النون، وهذه هي التي تنصب الاسم وترفع الخبر، ووظيفتها أو فائدتها التأكيد لمضمون الجملة أو الخبر، فإن قول القائل: «**إن الحياة جهاد**» ناب مناب تكرير الجملة مرتين، إلا أن قولك: «**إن الحياة جهاد**» جزء من قولك: «**الحياة جهاد، والحياة جهاد**» مع حصول الغرض من التأكيد، فإن أدخلت اللام وقلت: «**إن الحياة لجهاد**» ازداد معنى التأكيد وكأنه بمنزلة تكرار الجملة ثلاث مرات. وهذا الإيجاز أو الاقتصاد في ألفاظ الجملة مع حصول الغرض من التوكيد هو الذي يعطي مثل هذه الجملة قيمتها البلاغية، على أساس أن البلاغة هي الإيجاز.

ومن أمثلتها من القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة:١٧٣] و ﴿إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ [الإسراء:٢٧] و ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ٱزْدَادُواْ كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ﴾ [النساء:١٣٧].

ومن أحاديث الرسول: «**إن المنبتّ لا أرضًا قطع ولا ظهرًا أبقى**» وقوله: «**إنما الشعر كلام مؤلف فما وافق الحق فهو حسن، وما لم يوافق الحق منه، فلا خير فيه**».

ومن الشعر:

إن التي زعمت فؤادك مَلَّها ... خُلقت هواك كما خُلقت هوًى لها

إني لآمل منك خيرًا عاجلًا ... والنفس مولعة بحب العاجل

وإن امرأً أمسى وأصبح سالمًا ... من الناس إلا ما جنى لسعيد

٢- «**لام الابتداء**»: وفائدتها توكيد مضمون الحكم، وتدخل على المبتدأ، نحو: لأنت خير من عرفت، كما تدخل على خبر «إن» نحو قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ [إبراهيم:٣٩]، وعلى المضارع الواقع خبرًا لأنّ لشبهه بالاسم نحو قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾ [النحل:١٢٤]، وعلى شبه الجملة نحو: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم:٤].

٣- «**أما الشرطية**»، المفتوحة الهمزة المشددة الميم: وهي حرف شرط وتفصيل وتوكيد، نحو قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا﴾ [البقرة:٢٦]، ونحو قول الشاعر:

ولم أر كالمعروف أما مذاقه فحلو وأما وجهه فجميل

وفائدة «أما» في الكلام أنها تعطيه فضل توكيد وتقوية للحكم، تقول مثلاً «**زيد ذاهب**» فإذا قصدت توكيد ذلك وأنه لا محالة ذاهب، وأنه بصدد الذهاب وعازم عليه قلت: «**أما زيد فذاهب**».

٤- «**السين**» وهي حرف يختص بالمضارع ويخلصه للاستقبال، والسين إذا دخلت على فعل محبوب أو مكروه أفادت أنه واقع لا محالة، ووجه ذلك أنها تفيد الوعد أو الوعيد بحصول الفعل، فدخولها على ما يفيد الوعد أو الوعيد مقتض لتوكيده وتثبيت معناه.

فهي في مثل قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ﴾ [التوبة:٧١] مفيدة وجود الرحمة لا محالة، ولذلك فهي تؤكد هنا حصول فعل الوعد. كذلك هي في مثل قوله تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝ مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ۝ سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾ [المسد:١-٣] تؤكد حصول فعل الوعيد الذي دخلت عليه، وتثبت معناه بأنه كائن لا محالة وإن تأخر إلى حين.

٥- «**قد**»: التي للتحقيق، نحو قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ [المؤمنون:١-٢]، فهي في مثل هذه الجملة تفيد توكيد مضمونها، أي أن فلاح المؤمنين الخاشعين في صلاتهم حق ولا محالة حاصل.

٦- «**ضمير الفصل**»: وهو ضمير رفع منفصل، ويؤتى به للفصل بين الخبر والصفة، نحو «**محمد هو النبي**» فلو لم نأت بالضمير «هو» وقلنا «**محمد النبي**» لاحتمل أن يكون

«**النبي**» خبرًا عن محمد وأن يكون صفة له، فلما أتينا بضمير الفصل «**هو**» تعين أن يكون «**النبي**» خبرًا عن المبتدأ وليس صفة له، فضمير الفصل على هذا الأساس يزيل الاحتمال والإبهام من الجملة التي يدخل عليها، وبالتالي يفيد ضربًا من التأكد ولهذا عُدَّ من أدوات توكيد الخبر.

٧- «**القسم**» وأحرفه «**الباء، والواو، والتاء**»، «**والباء**» هي الأصل في أحرف القسم لدخولها على كل مقسم به، سواء أكان اسمًا ظاهرًا أو ضميرًا، نحو: أقسم بالله، وأقسم بك.

و «**الواو**» تختص بالدخول على الاسم الظاهر دون الضمير، نحو: «**أقسم والله**»، أما «**التاء**» فتختص بالدخول على اسم الله تعالى فقط كقوله تعالى: ﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم﴾ [الأنبياء:٥٧].

والحروف التي تدخل على المقسم عليه، أي جواب القسم، أربعة «**اللام، وإنّ، وما ولا**»، فإذا كان المقسم عليه والذي يسمى جواب القسم مثبتًا فإن الحروف التي تدخل عليه هي «**اللام، وإن**» نحو: «**والله لموت شريف خير من حياة ذليلة**» ونحو قوله تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ ۝ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾ [العصر:١-٢].

وإذا كان المقسم عليه أو جواب القسم منفيًا فإن الحروف التي تدخل عليه هي «**ما، ولا**» نحو: والله ما العمل اليدويّ مهانة، ونحو: والله ما قصرت في القيام بواجبي.

فالقسم على أي صورة من هذه الصور فيه ضرب من التأكيد، لأن فيه إشعارًا من جانب المقسم بأن ما يقسم عليه هو أمر مؤكد عنده لا شك فيه، وإلا لما أقسم قاصدًا متعمدًا، ومن أجل ذلك عدّ البلاغيون «**القَسَم**» من مؤكدات الخبر.

٨- «**نونا التوكيد**» وهما نون التوكيد الثقيلة، أي المشددة، ونون التوكيد الخفيفة، أي غير المشددة، وهما يدخلان على المضارع بشروط وعلى الأمر جوازًا، وقد اجتمعا في قوله تعالى حكاية على لسان امرأة عزيز مصر في قصة يوسف: ﴿وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ﴾ [يوسف:٣٢].

٩- «**الحروف الزائدة**»: وهي «**إن**» المكسورة الهمزة الساكنة النون، و «**أن**» المفتوحة الهمزة الساكنة النون، و «**ما**»، و «**لا**»، و «**من والباء**» الجارّتان، وليس معنى زيادة هذه الحروف أنها قد تدخل لغير معنى ألبتة، بل زيادتها لضرب من التأكيد.

فمثال «إن»: «ما أن قبلت ضيمًا» والأصل «ما قبلت ضيمًا» فدخول «إن» قد أكد معنى حرف النفي الذي قبله.

أما «أن» فتزاد توكيدًا للكلام، وذلك بعد «لما» بتشديد الميم، نحو قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا﴾ [يوسف:٩٦] والمراد فلما جاء البشير.

و «ما» تزاد في الكلام لمجرد التأكيد، وهذا كثير في القرآن الكريم والشعر وسائر الكلام، ومثاله من القرآن قوله تعالى: ﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِى ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ [الأنفال:٥٧][(١)]، وأصل تركيب «فإما تثقفنَّهم» «فإن ما تثقفنَّهم» «فإن» حرف شرط يدل على ارتباط جملتين بعضهما ببعض، و «ما» حرف زائد للدلالة على تأكيد هذا الارتباط في كل حال من الأحوال.

ومثاله من الشعر قول البحتري:

وإذا ما جفيت كنت حريًا   أنْ أرى غير مصبح حيث أمسى

ومثاله من شعر البارودي في وصف بعض مظاهر شيخوخته من ضعف بصره وثقل سمعه:

لا أرى الشيء حين يسنح إلا   كخيال كأنني في ضباب
وإذا ما دُعيت جِرت كأني   أسمع الصوت من وراء حجاب

فـ «ما» قد زيدت بعد «إذا» في المثالين السابقين لتأكيد معنى هذا الظرف.

ومثاله من سائر الكلام «غضبت من غير ما جرم» أي من غير جرم، و «جئت لأمر ما» فما زائدة للتأكيد، والمعنى على النفي «ما جئت إلا لأمر».

و «لا» تزاد مؤكدة ملغاة نحو قوله تعالى: ﴿لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَـٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ [الحديد:٢٩]، فلا زائدة، والمعنى «ليعلم أهل الكتاب...»، ونحو قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾ [الواقعة:٧٥] فلا زائدة، والمعنى فأقسم بمواقع النجوم.

و «من» قد تزاد توكيدًا لعموم ما بعدها في نحو «ما جاءنا من أحد» فإن أحدًا صيغة

---

(١) هذه الآية نزلت في يهود المدينة الذين تكرر منهم نقض عهودهم من النبي، والمعنى فإما تظفرن بهم فنكل بهم تنكيلاً شديدًا يكون سببًا في تشريد وتشتيت من يقفون خلفهم من كفار مكة.

عموم، بمعنى ما جاءني أي أحد، ولا تكون «من» زائدة للعموم إلا إذا تقدمها نفي أو نهي أو استفهام بـ «هل»؛ فالنفي نحو قوله تعالى: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾ [الأنعام:٥٩] وقوله: ﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ﴾ [الملك:٣] ، والنهي نحو «**لا تمهل من غذاء عقلك**» والاستفهام نحو قوله تعالى: ﴿هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾[1] [الملك:٣] ؟ ونحو هل من شاعر بينكم؟ و «من» هذه التي تزاد توكيدًا لعموم ما بعدها نفيًا كان أو نهيًا أو استفهامًا يكون الاسم الواقع بعدها إما فاعلاً أو مفعولاً أو مبتدأ كما في الأمثلة السابقة.

«**الباء**» ومن استعمالاتها أن تزاد لتوكيد ما بعدها، وقد تزاد كثيرًا في الخبر بعد «**ليس وما**» النافيتين، وعندئذ تكون زيادتها لتوكيد نفي ما بعدها، وذلك نحو قوله تعالى: ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة:٧٤] ، وقوله تعالى أيضًا: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ ۝٢١ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾ [الغاشية:٢١-٢٢] ، وقول معن بن أوس:

ولست بماش ما حييتُ لمنكر ... من الأمر لا يمشي لمثله مثلي

فزيادة الباء هنا هو لتأكيد معنى النفي؛ أي تأكيد نفي ما بعدها.

١٠- «**حروف التنبيه**»: ومما يزاد أيضًا حروف التنبيه، ومنها «**ألا وأما**» بفتح الهمزة والتخفيف، و «**ألا**» قد تزاد للتنبيه، وعندئذ تدل على تحقق ما بعدها، ومن هنا تأتي دلالتها على معنى التأكيد، وذلك نحو قوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس:٦٢] .

و «**أما**» حرف استفتاح وهي بمنزلة «**ألا**» في دلالتها على تحقيق ما بعدها تأكيدًا، ويكثر مجيئها قبل القسم، لتنبيه المخاطب على استماع القسم وتحقيق المقسم عليه، نحو قول أبي صخر الهذلي:

أما والذي أبكى وأضحك والذي ... أمات وأحيا والذي أمره الأمر
لقد تركتني أحسد الوحش أن أرى ... اليقين منها لا يروعهما النفر[2]

خروج الخبر عن مقتضى الظاهر:

من دراستنا السابقة لأضرب الخبر أدركنا أن المخاطب على حسب تخيل المتكلم أو القائل إن كان خالي الذهن ألقي إليه الخبرُ غير مؤكد، وإن كان مترددًا شاكًا في مضمونه

(١) الفطور: الخلل والتصدع .
(٢) لا يروعها النفر: لا يفزعها التفرق أو الفراق .

طالبًا معرفته حَسن توكيدهُ له، وإن كان منكرًا وجب توكيده له بمؤكد أو أكثر على حسب درجة إنكاره قوةً وضعفًا.

وإلقاء الكلام أو الخبر بهذه الطريقة المتدرجة على حسب جهل المخاطب بمضمون الخبر أو شكه فيه أو إنكاره له هو ما يقتضيه الظاهر، ولكن إيراد الكلام أو الخبر لا يكون دائمًا وأبدًا جاريًا على مقتضى الظاهر، فقد تَجِدُّ اعتبارات تدعو المتكلم إلى أن يورد الكلام أو الخبر على صورة تخالف الظاهر، أو على صورة تخرج به عن مقتضى الظاهر كما يقول البلاغيون.

ومن الاعتبارات التي يلحظها المتكلم وتدعوه إلى الخروج بالكلام عن مقتضى الظاهر ما يلي:

١- أن يُنزَّل خالي الذهن منزلة المتردد الشاك إذا تقدم في الكلام ما يشير إلى حكم الخبر ومضمونه، ومن هذا الضرب من الكلام قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾.

فالمتأمل في هذه الآية الكريمة يجد أن المخاطب بها خالي الذهن من الحكم أو من مضمونه ومن قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ [يوسف:٥٣]، ولكن هذا الحكم لما كان مسبوقًا بجملة ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ﴾ وهي في مضمونها تشير إلى أن النفس محكوم عليها بشيء غير محبوب أو مرغوب فيه، أصبح المخاطب بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ [يوسف:٥٣] متطلعًا إلى نوع هذا الحكم، الذي يجهله ولا يدري حقيقته، ومن أجل ذلك نُزّل هذا المخاطب منزلة المتردد الشاكّ، وأُلقِيَ إليه الخبر مؤكدًا استحسانًا.

ومن أمثلة هذا النوع من التنزيل قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ﴾ [الحج:١]، وقوله تعالى: ﴿وَصَلِّ عَلَيۡهِمۡۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٞ لَّهُمۡۗ﴾ [التوبة:١٠٣]، وقوله تعالى أيضًا: ﴿وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ﴾ [هود:٣٧].

ومن أمثلته في الشعر قول عنترة:

لله درّ عبس لقد نسلوا ... من الأكارم ما قد تنسل العرب

وقول أبي الطيب المتنبي:

ترفق أيها المولى عليهم ... فإن الرفق بالجاني عتاب

٢- أن يجعل غير المنكر كالمنكر لظهور أمارات الإنكار عليه. ومثال ذلك قوله

تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ﴾ [المؤمنون:١٥]؛ فالمخاطبون بهذه الآية الكريمة لا ينكرون حقيقة الموت بالنسبة للإنسان، وأنه مهما طال أجله فإن مصيره إلى الموت والفناء، وعلى ما يقتضيه الظاهر كان يجب أن يلقى الكلام إليها خاليًا من التأكيد، ولكننا مع ذلك نرى أن الكلام قد خرج عن مقتضى الظاهر وألقى إليه مؤكدًا. فما السبب في ذلك؟.

السبب ظهور أمارات الإنكار عليهم، فإن نسيانهم للموت وتكالبهم على مطالب العيش كأنهم مخلدون أبدًا، وعدم بذلهم في الحياة الدنيا ما ينفعهم في الآخرة، وكل هذه بوادر منهم تدل على إنكارهم لحقيقة الموت، ومن أجل ذلك نُزّلوا منزلة المنكرين، وأُلقِيَ الخبر إليهم مؤكدًا بمؤكدين هما «إن» و «لام الابتداء».

ومثال ذلك أيضًا قولك لمن يعقّ والديه ولا يطيعهما: «**إن برّ الوالدين لواجب**»، فالمخاطب بهذا الكلام لا ينكر أن برّ الوالدين واجب ولا يداخله شك في ذلك، وكان مقتضى الظاهر أن يلقى إليه الخبر غير مؤكد، ولكن عقوقه لوالديه، وغلظته في معاملتهما، وعدم إطاعتهما، كل ذلك اعتبر من علامات الإنكار، ولذلك نُزّل منزلة الجاحد المنكر وألقى الخبر إليه مؤكدًا بمؤكدين وجوبًا، وخروجًا عن مقتضى الظاهر.

ومثاله أيضًا من الشعر قول حَجَل بن نضلة القيسيّ:

جاء شقيق عارضًا رمحه ... أن بني عمك فيهم رماح

فشقيق هذا الرجل لا ينكر رماح بني عمه، ولكنه مع ذلك يأتي إليهم عارضًا شاهرًا رمحه مدلاً بنفسه وشجاعته عليهم، كأنه يعتقد أنهم عُزل من السلاح. فمجيئه على هذه الحال علامةٌ على إنكاره وجود السلاح مع بني عمه، ولذلك أنزل منزلة المنكر، وبالتالي أُلقِيَ الخبر إليه مؤكدًا وقيل له: إن بني عمك فيهم رماح.

٣- أن يُجعلَ المنكر كغير المنكر، وإن كان لديه شواهد وأدلّة لو تأملها لعدل عن إنكاره.

ومثال ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ [البقرة:١٦٣] ففي هذه الآية الكريمة نرى الله جلّ شأنه يوجه الخطاب إلى المنكرين لوحدانيته، وكان مقتضى الظاهر يوجب إلقاء الخبر على المنكرين مؤكدًا، ولكننا نرى الخبر في الآية قد خرج عن مقتضى الظاهر، فأُلقِيَ إلى المنكرين مجردًا من التوكيد، كما يُلقى إلى غير

المنكرين، فما السبب في ذلك؟.

السبب أن بين أيدي المنكرين لوحدانية الله من الأدلة الساطعة والشواهد المقنعة ما لو تدبَّروه وعقلوه لزال إنكارهم ولحل محله اليقين والاقتناع بوحدانية الله، ولذلك لم يكترث الله بإنكارهم عند توجيه الخطاب إليهم، وأنزل هؤلاء المنكرين منزلة غير المنكرين لوجود الدلائل التي لو تأملها المنكر لأقلع عن إنكاره.

وأمثلة هذا النوع كثيرة، كأن تقول لمن يجحد فضل العلم: «**العلم نافع**»، ولمن ينكر ضرر الجهل: «**الجهل ضار**» ولمن ينكر ما يسببه الفراغ من الفساد والإفساد: «**الفراغ مفسدة**»، وهكذا...

وبعد فلعلنا نرى في الأمثلة الكثيرة التي أوردناها عن أضرب الخبر، وعن خروج الكلام عن مقتضى الظاهر ما يوضح لنا القيمة البلاغية لأساليب الخبر المختلفة، تلك القيمة التي تستمد عناصرها دائمًا من «**مطابقة الكلام لحال المخاطبين**».

أغراض الخبر البلاغية:

عرفنا مما سبق أن الأصل في الخبر أن يلقى لغرضين هما: فائدة الخبر، ولازم الفائدة، كما عرفنا أن المتكلم في كل منهما يهدف من وراء الخبر إلى إعلام المخاطب شيئًا لا يعرفه، سواء أكان هذا الشيء هو مضمون الخبر أو علم المتكلم بمضمونه.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن الخبر ليس مقصورًا على هذين الغرضين الأصليين فالواقع أنه بالإضافة إليهما قد يلقى الخبر لأغراض أخرى بلاغية تُفهم من السياق وقرائن الأحوال، ومن هذه الأغراض التي يخرج الخبر عن غرضيه الأصليين إليها:

١- إظهار الضعف: وذلك نحو قوله تعالى حكاية عن زكريا عليه السلام: ﴿رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا﴾ [مريم:٤] وقول الشاعر:

إن الثمانين، وبلغتها قد أحوجت سمعي إلى ترجمان

وقول المتنبي في وصف مرضه:

عليل الجسم ممتنع القيام شديد السكر من غير المدام (١)

وقول شاعر مريض يقارن بين حال وحال آخر معافًى من المرض:

---

(١) أي أنه سكران من غير خمر، وإنما من الضعف والهموم.

الخطى عندك، إذ تَقصِرها، وَثبٌ وقَفزُ
والخطى عنديَ إذ أوسِعُها، ضعف وعجز

٢- الاسترحام والاستعطاف: نحو قول إبراهيم بن المهدي مخاطبًا المأمون:

أتيتُ جرمًا شنيعًا وأنت للعفو أهل
فإن عفوت فَمَنٌّ وإن قتلت فعدل

وقول المتنبي وهو في محبسه مستعطفًا السلطان:

دعوتك عند انقطاع الرجاء والموت مني كحبل الوريد
دعوتك لما براني البلاء وأوهن رِجليَّ ثِقلُ الحديد

وقول شاعر آخر:

فما ليَ حيلة إلا رجائي لعفوك إن عفوت وحُسنُ ظَنيّ
يظن الناس بي خيرًا وإني لشر الناس إن لم تعف عنّي

٣- إظهار التحسر على شيء محبوب: نحو قول المتنبي في رثاء جدته:

أتاها كتابي بعد يأس وترحة فماتت سرورًا بي فمت بها غمًّا
حرام على قلبي السرور فإنني أعدّ الذي ماتت به بعدها سُمًّا

وقوله في رثاء أبي شجاع فاتك:

الحزن يقلق والتجمّل يردع والقلب بينهما عصيّ طيّعُ
يتنازعان دموع عين مسهد هذا يجيء بها وهذا يرجع!

وقول آخر يرثي عزيزًا عليه:

وأيقظت أجفانًا وكان لها الكرى ونامت عيون لم تكن قبل تهجع

وقول أبي فراس الحمداني عندما سمع أمه وهو في الأسر:

عليلةٌ بالشام منفردة بات بأيدي العِدا مُعللُها
تُمسك أحشاءها على حُرَق تطفئها والهموم تشعلها
تسأل عنا الركبان جاهدة بأدمع ما تكاد تُمهلها!

٤- المدح: نحو قول زهير بن أبي سلمى:

وأبيض فَياض يداه غمامة على مُعتفيه ما تغبّ فواضله[1]

(١) على معتفيه: على طالبي معروفه وفضله وكرمه. ما تغب فواضله: ما ينقطع إحسانه وأياديه الجميلة.

تـراه إذا مـا جـئـتـه مـتـهـلّـلاً كأنك تعطيه الذي أنت سائله

وقول المتنبي مادحًا سيف الدولة:

أرى كل ذي مُلك إليك مصيره كـأنـك بـحـر والـمـلـوك جداول
إذا أمطرت منهم ومنك سحائب فـوابـلـهـم طـلّ وطـلـك وابـل [1]

٥- الفخر: نحو قول الفرزدق:

ترى الناس ما سرنا يسيرون خلفنا وإن نحن أومأنا إلى الناس وقّفوا

وقول جرير:

إذا غضبت عليك بنو تميم رأيت الـنـاس كـلـهـم غـضـابـا

ولآخر في الفخر بكثرة العدد:

ما تطلع الشمس إلاّ عند أوّلِنا ولا تُـغـيَّـب إلاّ عـنـد آخـرنـا

وللشريف الرضى:

لغير العلي منّي القلى والتجنب ولولا العلي ما كنت في العيش أرغب
وقور: فلا الألحان تأسر عزمي ولا تمكر الصهباء بي حين أشرب
ولا أعرف الفحشاء إلاّ بوصفها ولا أنطق العوراء والقلب مغضب

٦- الحث على السعي والجد: كقول شوقي:

ومـا نـيـل الـمـطـالـب بـالـتـمـنـي ولـكـن تـؤخـذ الـدنـيـا غـلابـا
ومـا استعصى على قوم منال إذا الأقـدام كـان لـهـم ركـابـا

وقوله:

أعدت الراحة الكبرى لمن تعبا وفاز بالحق من لم يأله طلبا

وقول ابن نباتة السعدي:

يفوت ضجيع التَّرهات طلابَه ويدنو إلى الحاجات مَن بات ساعيًا

فإذا نظرنا إلى مثال من الأمثلة السابقة وجدنا أن المتكلم لا يقصد منه فائدة الخبر ولا لازم الفائدة، وإنما خرج به عن هذين الغرضين إلى غرض آخر بلاغي يفهم من سياق الكلام وقرائن الأحوال، كغرض المدح أو الفخر، أو الاسترحام، أو إِظهار التحسر، أو إظهار الضعف، أو الحث على السعيّ والجد.

(١) الوابل: المطر الغزير. الطل: المطر الضعيف.

وقد ذكرنا من قبل أن أحمد بن فارس في كتابه «**الصاحبي في فقه اللغة**» عقد بابًا خاصًا لمعاني الكلام العشرة عند أهل العلم وعدّ منها «**الخبر**» الذي سبق أن أوردنا تعريفه له مع تعاريف بعض العلماء الآخرين.

ولعل من المفيد ونحن بصدد الكلام عن أغراض الخبر الأصلية وأغراضه الأخرى التي تفهم من سياق الكلام أن نستكمل البحث هنا بذكر المعاني التي يحتملها الخبر كما جاءت في كتاب «**الصاحبي**».

قال أحمد بن فارس: «**والمعاني التي يحتملها لفظ الخبر كثيرة فمنها «التعجب»** نحو: ما أحسنَ زيدًا، و «**التمني**» نحو: وددتك عندنا، و «**الإنكار**» نحو: ما له عليّ حق، و «**النفي**» نحو: لا بأس عليك، و «**الأمر**» نحو قوله جلّ ثناؤه: ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ﴾ [البقرة:٢٢٨][1]، و «**النهي**» نحو قوله تعالى ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾ [الواقعة:٧٩]، و«**التعظيم**» نحو: سبحان الله، و «**الدعاء**»، نحو: عفا الله عنه، و «**الوعد**» نحو قوله جلّ وعزّ: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ﴾ [فصلت:٥٣]، و «**الوعيد**» نحو قوله تعالى: ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ [الشعراء:٢٢٧].

وربما كان اللفظ خبرًا والمعنى شرطًا وجزاء نحو قوله تعالى: ﴿إِنَّا كَاشِفُوا۟ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا ۚ إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ﴾ [الدخان:١٥] فظاهره خبر، والمعنى إنا إن نكشف عنكم العذاب تعودوا. ومثله: ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ﴾ [البقرة:٢٢٩]، والمعنى من طلق امرأته مرتين فليمسكها بعدهما بمعروف أو يسرّحها بإحسان.

والذي ذكرناه في قوله جل ثناؤه: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾ [الدخان:٤٩] هو تبكيت، وقد جاء في الشعر مثله، وقال شاعر يهجو جريرًا:

أبلغ جريرًا وأبلغ من يبلُغه ... أني الأغرُّ وأني زهرة اليمن

فقال جرير مبكتًا له:

ألم تكن في وسوم قد وسمت بها ... من حان موعظة يا زهرة اليمن؟

ويكون اللفظ خبرًا والمعنى دعاءً وطلبًا، نحو: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة:٥]، ومعناه فأعنا على عبادتك، ويقول القائل: أستغفر الله، والمعنى «**اللّهم**

---

(١) يتربصن: ينتظرن، قروء: جمع تكسير مفرده قرء بضم القاف أو فتحها، ويطلق على الطهر الحاصل بين الحيضتين للمرأة.

اغفر». قال الله جل ثناؤه: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ [يوسف:٩٢] ويقول الشاعر:

أستغفر الله ذنبًا لست مُحصيَه   رب العباد إليه الوِجه والعملُ (١)

مما تقدم نرى أن ابن فارس قد أورد من المعاني التي يحتملها لفظ الخبر أحد عشر معنى وأن إيراده لهذه المعاني إما على سبيل المثال أو على أنها أهم معاني الخبر التي يكثر تداولها في الكلام. نقول ذلك لأن المعاني التي يحتملها لفظ الخبر ويدل عليها لا حصر لها، وأنها أكثر من أن تستقصى.

* * *

(١) كتاب الصاحبي لابن فارس ص ١٧٩ .

الإنشاء

مقدمة

في البحث السابق عرضنا للخبر فاستوفينا القول عنه من حيث مفهومه، وأضربه، وأغراضه الأصلية، ومؤكداته، وأغراضه الأخرى التي يحتملها لفظه، والآن ننتقل إلى قسيم الخبر، أو إلى القسم الثاني من الكلام، وهو «الإنشاء» فنفصل القول فيه.

وإذا كان الإنشاء قسيم الخبر، وكان الخبر هو ما يحتمل الصدق والكذب، فإن الإنشاء إذن هو الكلام الذي لا يحتمل الصدق والكذب لذاته، وذلك لأنه ليس لمدلول لفظه قبل النطق به وجود خارجي يطابقه أو لا يطابقه.

فالمعري مثلاً عندما يقول:

لا تظلموا الموتى وإن طال المدى ... إني أخاف عليكمُ أن تلتقوا

قد استعمل أحد أساليب الإنشاء وهو أسلوب النهي في قوله: «**لا تظلموا الموتى**»، ونحن لا يمكننا هنا أن نقول إن المعري صادق أو كاذب في نهيه عن ظلم الموتى، وذلك لأنه لا يعلمنا بحصول شيء أو عدم حصوله، وليس لمدلول لفظه قبل النطق به وجود خارجي يمكن أن يقارن به، فإن طابقه قيل: إنه صادق، أو خالفه قيل: إنه كاذب.

ومثل هذا القول ينطبق على سائر أساليب الإنشاء من أمر واستفهام وتمن ونداء، فليس لمدلول أي لفظ منها قبل النطق به وجود خارجي يُعرض عليه مدلوله ويُقارن به، فإن طابقه قيل: إنه صادق، أو خالفه قيل: إنه كاذب.

وعدم احتمال الأسلوب الإنشائي للصدق والكذب إنما هو بالنظر إلى ذات الأسلوب بغض النظر عما يستلزمه، وإلا فإن كل أسلوب إنشائي يستلزم خبرًا يحتمل الصدق والكذب.

فقول القائل «**اجتهد**» يستلزم خبرًا هو: «**أنا طالب منك الاجتهاد**»، وقوله: «**لا تكسل**» يستلزم خبرًا هو: «**أنا طالب منك عدم الكسل**» وهكذا.

فالخبر الذي يستلزمه الأسلوب الإنشائي ليس مقصودًا ولا منظورًا إليه، وإنما المقصود والمنظور إليه هو ذات الأسلوب الإنشائي، وبذلك يكون عدمُ احتمال الإنشاء الصدق والكذب إنما هو بالنظر إلى ذات الإنشاء.

أقسام الإنشاء:

والإنشاء قسمان: طلبي وغير طلبي.

أ - فالإنشاء الطلبي: هو ما يستدعي مطلوبًا غير حاصل وقت الطلب وهو خمسة أنواع على الوجه التالي:

١- الأمر: نحو قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ﴾ [آل عمران: ٢٠٠].

٢- النهي: نحو قوله تعالى: ﴿وَلَا تُصَعِّرۡ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ﴾ [لقمان: ١٨].

٣- الاستفهام: نحو قوله تعالى: ﴿هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ﴾ [الرحمن: ٦٠].

٤- التمني: نحو قوله تعالى: ﴿يَٰلَيۡتَ لَنَا مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ قَٰرُونُ﴾ [القصص: ٧٩].

٥- النداء: نحو قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ يَثۡرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمۡ فَٱرۡجِعُواْۚ﴾ [الأحزاب: ١٣].

هذه هي أساليب الإنشاء الطلبي الخمسة، وكل واحد منها لا يحتمل صدقًا ولا كذبًا، وإنما يطلب به حصول شيء لم يكن حاصلاً وقت الطلب ولذلك يسمى الإنشاء فيها طلبيًّا.

ب- أما الإنشاء غير الطلبي: فهو ما لا يستدعي مطلوبًا، وله أساليب وصيغ كثيرة منها:

١- صيغ المدح والذم من مثل: نعم وبئس، وحبذا ولا حبذا، وفيما يلي أمثلة لهذه الصيغ:

قال زهير:

نعم امرءً هرِمٍ لم تعر نائبة   إلا وكان لمرتاع لها وزرا

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِۚ﴾ [الحجرات: ١١].

وقال جرير:

يا حبذا جبل الريَّان من جبل   وحبذا ساكنُ الريَّان مَن كانا

وحبذا نفحات من يمانية   تأتيك من قِبلَ الريَّان أحيانًا

وقال شاعر:

ألا حبذا عاذري في الهوى ولا حبذا العاذل الجاهل

٢- التعجب: وهو تفضيل شخص من الأشخاص أو غيره على أضرابه في وصف من الأوصاف، والتعجب يأتي قياسيًّا بصيغتين: «**ما أفعله**» و «**أفعل به**».

فمن الصيغة الأولى قول شقران الهزيمي:

أولئك قوم بارك الله فيهم على كل حال، ما أعف وأكرما!

ومن الصيغة الثانية: قوله تعالى: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾ [مريم:٣٨].

٣- القسم: ويكون بأحرف ثلاثة تجر ما بعدها وهي «**الباء**» و «**الواو**» و «**التاء**»، كما يكون بالفعل «**أقسم**» أو ما في معناه من مثل «**أحلف**».

«**فالباء**» هي الأصل في أحرف القسم الثلاثة، وهي تدخل على كل مقسم به سواء أكان اسمًا ظاهرًا أو ضميرًا، نحو «**أقسم بالله**» و «**أقسم بك**».

و «**الواو**» فرع عن الباء، وتدخل على الاسم الظاهر فقط، نحو قوله تعالى: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ۝١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ۝٣ إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ ۝٤﴾ [الليل:١-٤].

«**والتاء**» فرع من الواو، بمعنى أنها لا تدخل على كل الأسماء الظاهرة، وإنما تدخل على اسم الله تعالى فقط، نحو قوله تعالى: ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصۡنَٰمَكُم﴾ [الأنبياء:٥٧].

ومن صيغ القسم التي ترد كثيرًا في الأساليب العربية «**لَعَمْر**» مضافة إلى اسم ظاهر أو ضمير مثل «**لعمر الله**» و«**لعمرك**» والتقدير:

لعمر الله، ولعمرك قسمي أو يميني أو ما أحلف به، وذلك نحو قول معن بن أوس:

لعمرك ما أدري وإني لأوجل على أينا تعدو المنية أول

وقول ابن الرومي:

لعمرك ما الدنيا بدار إقامة إذا زال عن نفس البصير غطاؤها
وكيف بقاء العيش فيها وإنما يُنال بأسباب الفناء بقاؤها؟

٤- الرجاء: ويكون بحرف واحد هو «**لعل**»، وبثلاثة أفعال هي: عسى، وحرى واخلولق.

و«**لعل**» التي تعد من صيغ الإنشاء غير الطلبي هي التي تفيد الرجاء، نحو قول ذي الرمَّة:

لعل انحدار الدمع يعقب راحة   من الوجد أو يشفي شجيّ البلابل [(١)]

أما «لعل» التي تكون بمعنى «كي» نحو قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة:٢١] و ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الأنعام:١٥٢] و ﴿لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ﴾ [طه:٤٤] أي كي تتقوا، وكي تتذكروا، وكي يتذكر، وكذلك «لعل» التي بمعنى «ظن» نحو قول امرئ القيس:

وبدلت قرحًا داميًا بعد صحة   لعل منايانا تحولنَّ أبؤسا

فإن «لعل» في هاتين الحالتين لا تفيد الرجاء، وبالتالي لا تعد من صيغ الإنشاء غير الطلبي.

ومن أمثلة أفعال الرجاء قوله تعالى: ﴿فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ﴾ وقول الشاعر:

عسى فرج يأتي به الله إنه   له كل يوم في خليقته أمر

وقول الأعشي:

أن يقل هنّ من بني عبد شمس   فحرَى أن يكون ذاك، وكانا

ونحو «اخلولقت السماء أن تمطر» بمعنى «عسى».

٥- صيغ العقود: من نحو قولك: بعت، واشتريت، ووهبت، وقولك لمن أوجب لك الزواج: «قبلت هذا الزواج».

والفرق بين الإنشاء الطلبي وغير الطلبي، أن الإنشاء الطلبي هو ما يتأخر وجود معناه عن وجود لفظه، فإذا أمرت امرأة ولدها قائلة: «اغسل يدك وفمك قبل الأكل وبعده» فإن لفظ الأمر «اغسل» قد سبق إلى الوجود قبل وجود معناه، أي قبل قيام المأمور بتنفيذ ما أمر به وهو «غسل اليدين والفم»، ومن هنا قيل: إن الإنشاء الطلبي هو ما يتأخر معناه عن وجود لفظه، أو هو ما يسبق وجود لفظه على وجود معناه.

أما الإنشاء غير الطلبي فهو ما يقترن فيه الوجودان، بمعنى أن يتحقق وجود معناه في الوقت الذي يتحقق فيه وجود لفظه، أي في الوقت الذي يتم التلفيظ به فإذا قال شخص لآخر زوجتك ابنتي، فقال الآخر: «قبلت هذا الزواج» فإن معنى الزواج أو وجوده يتحقق في وقت التلفظ بكلمة القبول.

(١) الشجي: الحزين، والبلابل: جمع بلبال وهو الهم ووساوس الصدر، والمراد بشجي البلابل: المحزون الذي امتلأ صدره حزنًا وهمًّا.

والإنشاء غير الطلبي ليس من مباحث علم المعاني، وذلك لقلة الأغراض البلاغية التي تتعلق به من ناحية، ولأن أكثر أنواعه في الأصل أخبار نقلت إلى معنى الإنشاء من ناحية أخرى.

أما الإنشاء الذي هو موضع اهتمام البلاغيين، لاختصاصه بكثير من الدلالات البلاغية فهو «**الإنشاء الطلبيُّ**» والذي ننتقل الآن لدراسته بشيء من التفصيل.

* * *

الإنشاء الطلبي

عرفنا مما سبق أن الإنشاء قسيم الخبر، وإذا كان الخبر هو كل كلام يحتمل الصدق والكذب، فإن الإنشاء على عكسه هو ما لا يحتمله الصدق والكذب من الكلام.

وعلى حد تعريف البلاغيين: هو ما يستدعي مطلوبًا غير حاصل في وقت الطلب، أو هو كما يقولون بعبارة أخرى: ما يتأخر وجود معناه عن وجود لفظه.

وأهم أنواع الإنشاء الطلبي، كما ذكرنا آنفًا خمسة: «**الأمرُ، والنهي، والاستفهام، والتمني، والنداء**». نقول ذلك لأن من أنواع الإنشاء الطلبي أيضًا: «**العرض والتخصيص**» [١]، ولكن الأنواع الخمسة الأولى أكثر استعمالاً لشتى الدلالات واللطائف البلاغية ولذلك نقصر الحديث عليها.

أولًا - الأمر: وهو طلب الفعل على وجه الاستعلاء والإلزام. ويقصد بالاستعلاء أن ينظر الآمر لنفسه على أنه أعلى منزلة ممن يخاطبه أو يوجه الأمر إليه، سواء أكان أعلى منزلة منه في الواقع أم لا.

وللأمر أربع صيغ تنوب كل منها مناب الأخرى في طلب أي فعل من الأفعال على وجه الاستعلاء والإلزام. وهذه هي:

أ - فعل الأمر: نحو قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [البقرة:٤٣]، وقوله: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة:١٠٣].

---

(١) «**العرض**» بفتح العين وسكون الراء، وأداته «**ألا**» بتخفيف اللام، و «**التخصيص**» أداته «**هلا**» بتشديد اللام، ويجمعهما التنبيه على الفعل، إلا أن في التخصيص زيادة توكيد وحث، وبين العرض والتخصيص اجتماع وافتراق: فهما يجتمعان في أن كل واحد منهما طلب، على معنى أن المتكلم طالب من المخاطب أن يحدث الفعل الذي بعد أداة العرض والتخصيص، وهما يختلفان في أن العرض طلب مع لين ورفق، والتخصيص مع حث وإزعاج، ولكل منهما مواضع تليق به، فمثال العرض قول الشاعر:

يا ابن الكرام ألا تدنو فتبصر ما ... قد حدثوك، فما راء كمن سمعا؟

ويأتي التخصيص في مثل قول عبيد بن الأبرص الأسدي ردًا على امرئ القيس عندما هدد وأنذر قبيلة عبيد لقتلها حجرًا - والده - قال عبيد بن الأبرص:

يا ذا المخوفنا بقتـ ... ـل أبيه إذلالاً وحينا
هلا على حجر بن أم ... قطام تبكي لا علينا؟
هلا سألت جموع كنـ ... ـده يوم ولوا: أين أينا؟

ونحو قول الشاعر:

ذريني إن البخل لا يخلد الفتى ولا يهلك المعروف من هو فاعله

وقول شاعر آخر يطلب من شباب العروبة أن يعملوا لمجد قومهم:

وانشر لقومك ما انطوى من مجدهم وأعد فخار جدودك القدماء

هم ورثوك المجد أبيض زاهرًا فاحمله مثل الشمس للأبناء

ب- المضارع المقرون بلام الأمر: نحو قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ ۚ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌۢ بِٱلْعَدْلِ ۚ﴾ [البقرة:٢٨٢]، وقوله: ﴿فَلْيَعْبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ﴾ [قريش:٣-٤].

ونحو قول أبي الطيب المتنبي في مدح سيف الدولة:

كذا فليَسْرِ من طلب الأعادي ومثلُ سُراك فليكن الطلاب (١)

وقول أبي تمام راثيًا بني حميد الطوسي:

كذا فليجل الخطب وليفدح فليس لعين لم يفض ماؤها عذر

ج- اسم فعل الأمر: ومنه «عليكم» اسم فعل أمر بمعنى «الزموا» نحو قوله تعالى: ﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ ۚ﴾ [المائدة:١٠٥]، ونحو قول الأخطل التغلبي:

فعليك بالحجاج لا تعدل به أحدًا إذا نزلت عليك أمور

ومنه «بَلهَ» بمعنى «دَعْ» كقول الشاعر في صفة السيوف:

تذر الجماجم ضاحيا هاماتها بلْهَ الأكفَّ كأنها لم تُخلق

ومنه «رويده» بمعنى: أمهله، كقول الشاعر:

رويد الذي محضته الود صافيًا إذا ما فاتك حتى يظل أخًا لكا

د- الصدر النائب عن فعل الأمر: نحو قوله تعالى: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [البقرة:٨٣] بمعنى وأحسنوا إلى الوالدين إحسانًا، ونحو قوله تعالى أيضًا: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ﴾ [محمد:٤] (٢)، ونحو: أيها القوم استجابة لصوت الواجب، وتلبية لنداء

---

(١) السرى: السير ليلاً.

(٢) أصله: فاضربوا الرقاب، فحذف فعل الأمر وقدم المصدر فناب عنه مضافًا إلى المفعول، وضرب الرقاب عبارة عن القتل، وذلك أن قتل الإنسان أكثر ما يكون بضرب رقبته.

الضمير، وإقدامًا في مواقف الشجاعة، ودفاعًا عن الوطن بكل ما أوتيتم من قوة ونحو قول قطري بن الفجاءة:

فصبرا في مجال الموت صبرا فما نيل الخلود بمستطاع

خروج الأمر عن معناه الأصلي:

ولكن الأمر قد يخرج عن معناه الحقيقي، وهو طلب الفعل من الأعلى للأدنى على وجه الوجوب والإلزام، للدلالة على معان أخرى يحتملها لفظ الأمر وتستفاد من السياق وقرائن الأحوال. ومن هذه المعاني:

١- الدعاء: وهو الطلب على سبيل الاستغاثة والعون والتضرع والعفو والرحمة وما أشبه ذلك، ويسميه ابن فارس «المسألة»، وهو يكون بكل صيغة للأمر يخاطب بها الأدنى من هو أعلى منه منزلة وشأنًا، نحو قوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ﴾ [آل عمران:١٩٣].

ونحو قول المتنبي مخاطبًا سيف الدولة:

أخا الجود أعط الناس ما أنت مالك ولا تعطين الناس ما أنا قائل

وقوله:

أجزني إذا أنشدت شعرًا فإنما بشعري إياك المادحون مرددًا
ودع كل صوت غير صوتي فإنما أنا الطائر المحكي والآخر الصدى

٢- الالتماس: وهو طلب الفعل الصادر عن الأنداد والنظراء المتساوين قدرًا ومنزلة، نحو قول الشاعر محمود سامي البارودي:

يا نديميّ من «سرنديب» كفّا عن ملامي وخلياني لما بي
يا خليليّ خلياني وما بي أو أعيدا إليّ عهد الشباب

ونحو قول شاعر يوجه الخطاب إلى صاحبته:

يا مزاجا من ورقة الزهر والفجـ ـر ومن روعة الضحى والمساء
بُلْبُليُّ التغريد صوتك يسري في خيالي منوّرًا كالرجاء
شجعيني على الجهاد تَرَيْني أنطق الصخر أرتقي للسماء
علميني معنى الطلاقة والخلد مقيمًا يا ربّة الإيحاء

طهريني بفيض قدسك ما اسطعـ ... ـت، وألقى عليّ ثوب الرضاء
وارفعيني إلى سمائك أنشد ... لك شعرًا يموج موج الضياء
وأفيضي عليَّ بالوَحْيِ أبدِعْ ... كلَّ لَحْنٍ مُعبّرٍ عن وفائي

فالأمر في كل هذه الأبيات قد خرج عن معناه الحقيقي إلى الالتماس لأن الشاعر وصاحبته رفيقان يستويان قدرًا ومنزلة.

٣- التمني: وهو طلب الأمر المحبوب الذي يُرجَى وقوعه إما لكونه مستحيلاً، وإما لكونه ممكنًا غير مطموع في نيله، نحو قول عنترة العبسيّ:

يا دار عَبلة بالجِواء تكلَّمي ... وعِمي صباحًا دار عبلة واسلمي (١)

قول امرئ القيس:

ألا أيها الليل الطويل ألا انجلِ ... بصبح، وما الإصباح منك بأمثل

وقول أبي العلاء المعري:

فيا موت زر أن الحياة ذميمة ... ويا نفس جِدّي أن دهركِ هازل

٤- النصح والإرشاد: وهو الطلب الذي لا تكليف ولا إلزام فيه، وإنما هو طلب يحمل بين طيَّاته معنى النصيحة والموعظة والإرشاد، نحو قول أحد الحكماء لابنه: «يا بنيَّ استعذ بالله من شرار الناس، وكن من خيارهم على حذر»، ومنه قول الشاعر محمود سامي البارودي:

فانهض إلى صهوات المجد معتليا ... فالباز لم يأوِ إلاَّ عاليَ القلل (٢)
وكنْ على حذر تسلمْ فرُبّ فتي ... ألقى به الأمن بين اليأس والوجَل
ودَعْ من الأمر أدناه لأبعده ... في لجة البحر ما يغني عن الوشل (٣)
واخش النميمة واعلم أن صاحبها ... يُصليك من حرّها نارًا بلا شُعَلِ

ومن الأمر الذي خرج للنصح والإرشاد أيضًا الأبيات التالية:

أحسن إلى الناس تستعيد قلوبهم ... فطالما استعبد الإنسان إحسانُ
شاور سواك إذا نابتك نائبة ... يومًا، وإن كنت من أهل المشوراتِ
واخفض جناحك إن مُنحت إمارة ... وارغب بنفسك عن ردَى اللذات

(١) عبلة: صاحبة الشاعر. والجواء: واد في ديار بني عبس، وعمى صباحًا: انعمي.
(٢) الباز والبازي: الصقر وهو من أشد الحيوانات زهوًا، والقلل: جمع قلة، وهي قمة الجبل.
(٣) الوشل بتحريك الواو والشين: الماء القليل يتحلب من جبل أو صخرة قليلاً من غير اتصال.

فاربأ بنفسك أن يَضمك ضائم   وافعل كفعل الفتية القُدرَاءِ

٥- التخيير: وهو أن يطلب من المخاطب أن يختار بين أمرين أو أكثر، مع امتناع الجمع بين الأمرين أو الأمور التي يطلب إليه أن يختار بينها، نحو: «تزوج بثينة أو أختها»؛ فالمخاطب هنا مخيّر بين زواج بثينة أو أختها، ولكن ليس له أن يجمع بينهما.

ومن هذا الأمر الذي يستفاد منه التخيير قول بشار بن برد:

فعِش واحدًا أو صلْ أخاك فإنه   مقارف ذنب مرة ومجانبه [(١)]

وقول مهيار الديلميّ:

وعِش إمَّا قرينَ أخ وفيّ   أمين الغيب أو عَيْش الوِحادِ

٦- الإباحة: وتكون الإباحة حيث يتوهم المخاطب أن الفعل محظور عليه، فيكون الأمر إذْنًا له بالفعل، ولا حرج عليه في الترك، وذلك نحو قوله تعالى في شأن الصائمين: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ﴾ [البقرة:١٨٧].

ومن الأمر الذي خرج المعنى فيه إلى الإباحة قول أبي فراس معاتبًا سيف الدولة من قصيدة بعث بها إليه وهو أسير في بلاد الروم:

فدت نفسي الأمير: كأنْ حَظي   وقربي عنده ما دام قربُ
فلما حالت الأعداء دوني   وأصبح بيننا بحر و «درب»
ظللت تبدل الأقوال بعدي   ويبلغني اغتيابك ما يغب [(٢)]
فقل ما شئت فيّ فلي لسان   مليء بالثناء عليك رطب
وعاملني بإنصاف وظلم   تجدني في الجميع كما تحب

٧- التعجيز: وهو مطالبة المخاطب بعمل لا يقوى عليه، إظهارًا لعجزه وعدم قدرته، وذلك من قبيل التحدي، نحو قوله تعالى: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ﴾ [الرحمن:٣٣]، ونحو قوله تعالى في شأن من يرتابون في نزول القرآن على الرسول: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [البقرة:٢٣].

---

(١) مقارف الذنب: مرتكبه.

(٢) ما يغب: ما ينقطع، بمعنى اغتيابك لا يتأخر عني يومًا بل يصل إلى كل يوم.

فليس المراد طلب إتيانهم بسورة من مثل القرآن الكريم لأنه محال عليهم أن يأتوا بسورة من نوعه، وإنما المراد هو تحديهم وإظهار عجزهم.

ومن الأمر الذي خرج إلى التعجيز قول الطغرائي:

حب السلامة يَثني همَّ صاحبه عن المعالي ويُغري المرء بالكسل
فإذا جنحت إليه فاتخذ نفقًا في الأرض، أو سلمًا في الجو فاعتزل

وقول آخر:

أروني بخيلاً طال عمرًا ببخله وهاتوا كريمًا مات من كثرة البذل

٨- التهديد: ويكون باستعمال صيغة الأمر من جانب المتكلم في مقام عدم الرضا منه بقيام المخاطب بفعل ما أُمِر به تخويفًا وتحذيرًا له. ويسميه ابن فارس «**الوعيد**»، نحو قوله تعالى: ﴿ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡ إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [فصلت:٤٠]، فالأمر هنا موجه لمن يلحدون في آيات الله، كقوله أيضًا ﴿فَتَمَتَّعُواْ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ﴾ [النحل:٥٥]، وقوله: ﴿قُلۡ تَمَتَّعُواْ فَإِنَّ مَصِيرَكُمۡ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ [إبراهيم:٣٠].

ومن أمثلته شعرًا:

إذا لم تخش عاقبة الليالي ولم تستح فاصنع ما تشاء

٩- التسوية: وتكون في مقام يُتوهم فيه أن أحد الشيئين أرجح من الآخر، نحو قوله تعالى: ﴿أَنفِقُواْ طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمۡ﴾ [التوبة:٥٣] فقد يُظن أو يُتوهم أن الإنفاق طوعًا من جانب المأمورين هنا أرجح في القبول من الإنفاق كرهًا، ولذلك سُوي بينهما في عدم القبول، ونحو قوله تعالى أيضًا: ﴿فَٱصۡبِرُوٓاْ أَوۡ لَا تَصۡبِرُواْ﴾ [الطور:١٦]، فليس المراد في الآيتين الأمر بالإنفاق أو الصبر، وإنما المراد هو التسوية بين الأمرين.

ومثله من الشعر قول المتنبي:

عش عزيزًا أو مت وأنت كريم بين طعن القنا وخفق البنود

فالمعيشة العزيزة والموت الكريم كلاهما سواء، ولا أحد من الأمرين يرجح الآخر.

١٠- الإهانة والتحقير: ويكون بتوجيه الأمر إلى المخاطب بقصد استصغاره والإقلال من شأنه والإزراء به وتبكيته، نحو قوله تعالى: ﴿ذُقۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡكَرِيمُ﴾ [الدخان:٤٩]، وقوله تعالى على لسان موسى مخاطبًا السحرة: ﴿أَلۡقُواْ مَآ أَنتُم مُّلۡقُونَ﴾ [يونس:٨٠].

ومثله من الشعر قول جرير في هجاء الفرزدق :

خذوا كُحْلاً ومِجمرةً وعطرًا فلستم يا فرزدق بالرجال
وشموا ريح عيبتكم فلستم بأصحاب العناق ولا النزال (١)

تلك أهم المعاني التي يتحملها لفظ الأمر ويخرج عن معناه الأصلي للدلالة عليها، ولكن ابن فارس قد ذكر في كتابه الصاحبي بعض معان أخرى يتحملها لفظ الأمر وإن كانت قليلة الاستعمال، وفيما يلي إشارة إليها :

١- التكوين : ويسميها بعض البلاغيين «التسخير»، وذلك حيث يكون المأمور مسخرًا منقادًا لما أمر به نحو قوله تعالى : ﴿كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ [البقرة :٦٥] ، أي صاغرين مطرودين، فما أُمِروا به -وهو أن يكونوا قردة- لم يكن في مقدورهم أن يفعلوه ولكنهم وجدوا قدرة الله قد تسلطت عليهم فحولتهم من أناسيّ إلى قردة دون أن يكون لهم يد فيما حلّ بهم؛ ذلك هو معنى التكوين والتسخير.

٢- التلهيف أو التحسير : كقول القائل : «مُت بغيظك، ومُت بدائك»، ونحو قوله تعالى : ﴿قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ﴾ [آل عمران :١١٩] ، وكما قال جرير :

موتوا من الغيظ غمًّا في جزيرتكم لن تقطعوا بطن واد دونه مضرُ

٣- التعجب : نحو قوله جل ثناؤه : ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ﴾ [مريم :٣٨] .

وقول الشاعر :

أحِسن بها خلّةً لو أنها صدقت موعودَها، ولو أن النصح مقبول

٤- الندب : بأن تكون صيغة الفعل أمرًا ومعناه الندب، بمعنى أن المخاطب في حل من فعله أو عدم فعله، نحو قوله تعالى : ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ [الجمعة :١٠] .

وقول شاعر :

فقلت لراعيها انتشر وتبقَّل (٢)

٥- التسليم : حيث يكون اللفظ أمرًا والمعنى تسليمًا وتفويضًا بأن يصنع ما يشاء،

---

(١) العيبة بفتح العين : وعاء من أدم يكون فيه متاع .

(٢) تبقل : التمس البقل للماشية وطلبه، البقل من النبات «**بفتح الباء وسكون القاف**» : ما ينبت في بزره ولا ينبت في أرومة ثابتة .

نحو قوله تعالى: ﴿فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ﴾ [طه:٧٢] أي اصنع ما أنت صانع، وكقوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱقْضُوٓاْ إِلَيَّ﴾ [يونس:٧١]؛ أي اعملوا ما أنتم عاملون.

٦- الوجوب: وذلك بأن يكون اللفظ أمرًا والمعنى الوجوب، نحو قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ .

٧- الخبر: وقد يكون اللفظ أمرًا والمعنى خبر، نحو قوله تعالى: ﴿فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلًا وَلْيَبْكُواْ كَثِيرًا﴾ [التوبة:٨٢]، فالمعنى أنهم سيضحكون قليلاً ويبكون كثيرًا.

ثانيًا- النهي:

ومن أنواع الإنشاء الطلبيّ النهيُ، وهو: طلب الكف عن الفعل أو الامتناع عنه على وجه الاستعلاء والإلزام.

وللنهي صيغة واحدة وهي المضارع المقرون بـ «لا» الناهية الجازمة نحو قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۝٢٧ فَإِن لَّمْ تَجِدُواْ فِيهَآ أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُواْ فَٱرْجِعُواْ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ۝٢٨﴾ [النور:٢٧-٢٨][1]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلْأَلْقَٰبِ﴾ [الحجرات:١١][2]، وقوله تعالى أيضًا: ﴿وَلَا تَكْتُمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ﴾ [البقرة:٢٨٣].

ومن أمثلة أسلوب النهي في الشعر:

لا تخلني أرضَى الهوانَ لنفسي ... الرضا بالهوان عَجزٌ صريحٌ

لا تقولوا حطَّنا الدهر فما ... هوَ إلاّ من خيال الشعراء

لا تحذُ حذوَ عصابة مفتونة ... يجدون كل قديم شيء منكرًا

من كل ماض في القديم وهدمه ... وإذا تقدّم للبناية قصَّرا

خروج النهي عن معناه الحقيقي:

عرفنا أن النهي الحقيقيّ في أصل الوضع هو طلب الكف عن الفعل على وجه الاستعلاء والإلزام، ولكن الذي يتأمل صيغة النهي في أساليب شتى يجد أنها قد تخرج

(١) حتى تستأنسوا: حتى تستأذنوا، وقيل: حتى تجدوا أناسًا.

(٢) لا تلمزوا أنفسكم: اللمز: الطعن في الغير خفية، بالإشارة، أو بالعين أو اللسان، وقد يطلق على كل إلصاق عيب بالغير ولو بالباطل، ولا تنابزوا بالألقاب: لا يلقب بعضكم بعضًا بألقاب قبيحة مكروهة.

عن معناها الحقيقي للدلالة على معان أخرى تستفاد من السياق وقرائن الأحوال، كما كان الشأن بالنسبة إلى الأمر.

ومن المعاني الأخرى التي تحملها صيغة النهي وتستفاد من السياق وقرائن الأحوال:

١- الدعاء: وذلك عندما يكون صادرًا من الأدنى إلى الأعلى منزلة وشأنًا، نحو قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾[البقرة: ٢٨٦][1] .

ومن أمثلته شعرًا قول المتنبي في مدح علي بن منصور الحاجب:

أمهجّن الكرماء والمزري بهم ... وتروكَ كلّ كريم قوم عاتبا
خذ من ثنايَ عليك ما أسطيعه ... لا تلزمَنّي في الثناء الوَاجبا [2]

وقول أبي فراس من قصيدتين مخاطبًا سيف الدولة:

فلا تحمل على قلب جريح... ... به لحوادث الأيام نَدب
فلا تعدلنّ - فداك ابن عمّـ ... ـك، لا بل غلامك - عمًّا يجب

وقوله أيضًا:

فإن يمكنك يا مولاي وصلي ... فلا تبخل بشيء من صلاحي
ولا تعجل إلى تسريح روحي ... فموتي فيك أيسر من سراحي

وقول النابغة في النعمان بنِ المنذر:

فلا تتركنِّي بالوعيد كأنني ... إلى الناس مطليّ به القارُ أجربُ

وقول شاعر معاصر يبتهل إلى الله:

لا تكِلْني إلى الزمان فإني ... بفجاج الزمان غير خبير

٢- الالتماس: وذلك عندما يكون النهي صادرًا من شخص إلى آخر يساويه قدرًا ومنزلة، نحو قوله تعالى على لسان هارون يخاطب أخاه موسى:

﴿يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي﴾ [طه :٩٤] .

ومنه شعرًا قول أبي فراس، والخطاب لمن يساويه قدرًا:

---

(١) الأصر: أصله الحمل الثقيل الذي يأصر صاحبه أي يلزمه مكانه، والمراد التكاليف الشاقة .

(٢) المهجن: المقبح، والقصيدة التي منها هذان البيتان تدعى «القصيدة الدينارية» لأن الممدوح، - كما يقال، لم يعط الشاعر عليها إلا دينارًا واحدًا! .

فلا تصفنّ الحرب عندي فإنها طعاميَ مُذْ بعت الصبا وشرابي

وقول المتنبي في سيف الدولة، والخطاب لصديقين متخيلين:

فلا تبلغاه ما أقول فإنه شجاع متى يذكرْ له الطعنُ يشتق

وقول شاعر معاصر من قصيدتين:

لا تحسبوا البعد ينسيني مودتكم هيهات أن تُنسِي على الزمن

لا تقولي: «هتفتُ باسمك في الليـ ـل» فما طاف بي النداءُ الحبيبُ

٣- التمني: عندما يكون النهي موجّهًا إلى ما لا يعقل نحو قول شاعر معاصر:

إيه يا طير لا تضن بلحن يُنقذ النفس من هموم كثيرة

وقوله:

يا قلب لا تنثر أساك ولا تطفْ بالذكريات وجَوّهِنّ المُحرقِ

لا تنهض الأوجاع من أوكارها.. سوداء تنهش كالمغيظ المحنق

وقوله أيضًا:

يا لياليّ.. وانجلي لا تعوديـ ـه بما تحسنينه مِن عزاءِ

يا أماسيّ.. وانطوي لا تعيشي بين دنياه عذبة الإيحاءِ

يا أغانيّ.. واصمتي لا تسرّيـ ـه بما تحملينه من غنائي

يا أمانيّ.. واهدئي لا تماشيـ ـه ولا تشغليه بالأشقياء

يا مآسيّ.. واسكتي لا تضجي ودعيه يعيش كالأحياء

وقول الخنساء في رثاء أخيها صخر:

أعينيّ جودا ولا تجمدا ألا تبكيان لصخر الندى؟

٤- النصح والإرشاد: وذلك عندما يكون النهي يحمل بين ثناياه معنى من معاني النصح والإرشاد، نحو قول المتنبي:

إذا غامرت في شرف مروم فلا تقنع بما دون النجوم

وقول أبي العلاء المعري:

ولا تجلي إلى أهل الدنايا فإن خلائق السفهاء تُعدي

وقول الطغرائي:

لا تطمحن إلى المراتب قبل أن تتكامل الأدوات والأسباب

وقول شوقي:

لا تسمعوا للمرجفين وجهلهم فمصيبة الإسلام من جهاله [١]

وقوله:

لا تهجعنّ إلى الزمان فقد ينبّه مَن هجع [٢]

لا تخلُ من أملٍ إذا ذهب الزمان فكم رجع

٥- التوبيخ: عندما يكون المنهيّ عنه أمرًا لا يشرف الإنسان ولا يليق أن يصدر عنه، نحو قوله تعالى: ﴿لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾ [الحجرات: ١١].

ونحو قول المتنبي:

لا تحسب المجد تمرًا أنت آكله لن تبلغ المجد حتى تلعق الصّبرا

وقول أبي الأسود الدؤلي:

لا تنه عن خلق وتأتي مثله عار عليك، إذا فعلت، عظيم

٦- التحقير: عندما يكون الغرض من النهي الإزراء بالمخاطب والتقليل من شأنه وقدراته، وفيما يلي أمثلة لذلك:

لا تطلب المجد واقنعْ فمطلب المجد صعب

لا تَحسبوا من قتلتم كان ذا رمق فليس تأكل إلا الميتة الضَّبُعُ

لا تطلب المجد إن المجد سُلَّمُه صعب، وعِشْ مستريحًا ناعمَ البال

ومنه قول الحطيئة في الزبرقان بن بدر:

دع المكارم لا ترحل لبغيتها واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي

ومنه قول أبي هلال العسكري:

انظر إليهم ولا تعجبك كثرتهم فإنما الناس قلوا كلما زادوا

ولا يهولنك من دهمائهم عدد فليس للناس في التحصيل أعداد

ومنه قول ابن الرومي:

فلا تخش من أسهمي قاصدًا ولا تأمننَّ من العائر [٣]

---

(١) المرجفون: من يخوضون في الأخبار السيئة ليوقعوا في الناس الاضطراب.

(٢) الهجوع: النوم.

(٣) السهم العائر: الذي لا يدرى من رمى به، والمعرات: جمع معرة وهي المساءة والإثم والعيب.

ولكن وقاك معرّاتها	تضاؤل قدرك في الخاطر

٧- التيئيس: ويكون في حال المخاطب الذي يَهُمّ بفعل أمر لا يقوى عليه أو لا نفع له فيه من وجهة نظر المتكلم؛ كأن تقول لشخص يحاول نظم الشعر وليس لديه ملكة الشعر وأدواته: «**لا تحاول نظم الشعر**»، ونحو قوله تعالى: ﴿لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ [التوبة:٦٦].

ومنه شعرًا قول المتنبي في مدح سيف الدولة:

لا تطلبنّ كريمًا بعد رؤيته	إن الكرام بأسخاهم يدًا خُتِموا

وقول آخر:

لا تعرضنّ لجعفر متشبهًا	بندى يديه فلست من أنداده

٨- التهديد: وذلك عندما يقصد المتكلم أن يخوّف من هو دونه قدرًا ومنزلة عاقبة القيام بفعل لا يرضى عنه المتكلم؛ كأن تقول لمن هو دونك: «**لا تقلع عن عنادك**» أو «**لا تكفّ عن أذى غيرك**».

ثالثًا: الاستفهام:

من أنواع الإنشاء الطلبي الاستفهام: وهو طلب العلم بشيء لم يكن معلومًا من قبل بأداة خاصة. وأدوات الاستفهام كثيرة منها: الهمزة، وهل.

ولنبدأ بإيراد أمثلة لهاتين الأداتين للتوصل عن طريق مناقشتها إلى الفرق بينهما معنى واستعمالاً.

أمثلة للهمزة:

١- أخالد فاز بالجائزة أم أسامة؟

٢- أكاتب أنت أم شاعر؟

٣- أمبكرًا حضرت إلى الجامعة أم متأخرًا؟

٤- أقلمًا أهديت إلى صديقك أم كتابًا؟

٥- أأسبوعًا قضيت في الجبل أم أكثر من أسبوع؟

فهذه الجمل جميعها تفيد الاستفهام الذي هو طلب العلم بشيء لم يكن معلومًا من قبل، وأداة الاستفهام في كل منها هي الهمزة.

وبالتأمل في هذه الأمثلة نجد المتكلم أو السائل في كل مثال منها يعرف النسبة التي تضمنها الكلام، ولكنه يتردد في شيئين ويطلب تعيين أحدهما.

فهو في المثال الأول يعرف أن الفوز بالجائزة قد وقع فعلاً وأنه منسوب إلى واحد من اثنين: خالد وأسامة، ولذلك فهو لا يطلب معرفة النسبة لأنها معروفة، وإنما يطلب معرفة مفرد، وينتظر من المسئول أن يعين له ذلك المفرد ويدله عليه، ومن أجل جوابه بالتعيين، فيقال له: خالد مثلاً.

وفي المثال الثاني يعلم السائل أن واحدًا من شيئين؛ الكتابة أو الشعر قد نسب إلى المخاطب فعلاً، ولكنه متردد بينهما، فلا يدري أهو الكتابة أم الشعر، فهو إذن لا يطلب معرفة النسبة لأنها معروفة له، ولكنه يسأل عن مفرد ويطلب تعيينه ولهذا يجاب بالتعيين فيقال له في الجواب: شاعر مثلاً.

وفي المثال الثالث يعلم المستفهم أن حضور المخاطب إلى الجامعة قد وقع فعلاً، ولكنه متردد في الحالة التي كان عليها المخاطب عند حضوره إلى الجامعة، فلا يدري أهي حالة تبكير أم تأخير. فهو إذن لا يطلب معرفة النسبة لأنها معروفة له، وإنما يستفهم عن مفرد ويطلب تعيينه، ولهذا يجاب بتعيين إحدى الحالتين، فيقال له في الجواب: مبكرًا مثلاً، وهكذا يقال في بقية الأمثلة.

ومن ذلك نرى أن همزة الاستفهام يطلب بها معرفة مفرد، تسمى معرفة المفرد تصورًا. إذن فالهمزة من استعمالاتها أنه يطلب بها التصور، وهو إدراك المفرد.

ويلاحظ من الأمثلة أيضًا أن الهمزة التي للتصور تكون متلوّة بالمسئول عنه دائمًا ويذكر له في الغالب معادل بعد «أم».

امثلة أخرى للهمزة:

١- أتصهر النار الأحجار؟

٢- أيزرع القطن في الجزائر؟

٣- أينزل الثلج شتاءً في الصحراء؟

وإذا نظرنا في أمثلة هذه الطائفة التي فيها أداة الاستفهام الهمزة أيضًا فإننا نجد الحال على خلاف ما كان عليه في الأمثلة السابقة.

فالسائل: «**أتصهر النار الأحجار؟**» متردد بين ثبوت صهر النار للأحجار ونفيه، فهو يجهل هذه النسبة، ولذلك يسأل عنها ويطلب معرفتها، وفي سؤاله: «**أيزرع القطن في الجزائر؟**» يتردد السائل بين ثبوت زراعة القطن في الجزائر ونفيها عن الجزائر، ولذلك يطلب معرفة هذه النسبة، وفي سؤاله كذلك: «**أينزل المطر شتاءً في الصحراء؟**» يتردد السائل بين ثبوت نزول المطر شتاءً في الصحراء ونفيه عنها، ومن أجل ذلك يطلب معرفة هذه النسبة أيضًا.

وفي جميع هذه الأمثلة وأشباهها يكون الجواب بـ «**نعم**» إن أريد الإثبات، وبـ «**لا**» إن أريد النفي، وإذا تأملنا هذه الأمثلة لم نجد للمسئول عنه وهو «**النسبة**» معادلاً.

ومن كل ما تقدم يتضح أن لهمزة الاستفهام استعمالين، أحدهما: أن يكون المعلوم هو النسبة والمجهول هو المفرد، فيطلب بها معرفة النسبة، والثاني: أن يكون المجهول هو النسبة فيطلب بها معرفة النسبة، وتسمى معرفة المفرد «**تصورًا**»، ومعرفة النسبة «**تصديقًا**».

أمثلة «هل»:

١- هل تنام الطيور في الليل؟

٢- هل تحب الموسيقى؟

٣- هل يتألم الحيوان؟

وإذا تأملنا هذه الأمثلة حيث أداة الاستفهام فيها هي «هل» وجدنا أن السائل في كل منها لا يتردد في معرفة مفرد من المفردات، ولكنه متردد في معرفة النسبة، أمثبتة هي أم منفية، فهو يسأل عنها، ولذلك يجاب عليه بـ «**نعم**» إن أريد الإثبات، وبـ «**لا**» إن أريد النفي.

وكذلك يكون الشأن في جميع الأسئلة التي تكون أداة الاستفهام فيها «هل» أعني أن المطلوب بها هو معرفة النسبة ليس غير، وعلى ذلك لا تستعمل «هل» إلا لطلب التصديق فقط، ويمتنع معها ذكر المعادل.

وتلخيصًا لكل ما ذكرناه عن الاستفهام حتى الآن نقول:

١- من أنواع الإنشاء الطلبي الاستفهام: وهو طلب العلم بشيء لم يكن معلومًا من قبل بأداة خاصة.

٢- وأدوات الاستفهام كثيرة منها: الهمزة، وهل.

٣- الهمزة - يطلب بها أحد أمرين:

أ- التصور: وهو إدراك المفرد، أي تعيينه، وفي هذه الحالة تأتي الهمزة متلوّة بالمسئول عنه، ويذكر له في الغالب معادل بعد «أم».

ب- التصديق: وهو إدراك النسبة، أي تعيينها، وفي هذه الحال يمتنع ذكر المعادل.

٤- هل - ويطلب بها التصديق ليس غير، أي إدراك النسبة، ويمتنع معها ذكر المعادل.

وإتمامًا للكلام عن «الهمزة وهل» تجدر الإشارة إلى بعض نقاط تتصل بهما أو بأحدهما.

النقطة الأولى أن «أم» إن جاءت بعد همزة التصور، نحو:

أتفاحًا اشتريت أم برتقالاً؟ فإنها تكون متصلة، بمعنى أن ما بعدها يكون داخلاً في حيز الاستفهام السابق عليها، وقد يستغنى عن ذكر المعادل نحو قوله تعالى: ﴿ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ﴾ [الأنبياء: ٦٢] ؟ ويقدر المعادل في الآية: أم غيرك؟

أما إذا جاءت «أم» بعد همزة التصديق، نحو قول جرير:

أتصحو؟ أم فؤادك غير صاح عشية همّ قومك بالرواح

أو بعد «هل» التي للتصديق فقط نحو قول الشاعر:

ألا ليت شعري هل تغيرت الرحى رحى الحرب؟ أم أضحت بفلج كما هيا [(١)]

فإن «أم» في هاتين الحالتين: حالة همزة التصديق، وهل، تقدر منقطعة، وتكون بمعنى «بل» التي تكون للانتقال من كلام إلى آخر لا يمتد تأثير الاستفهام السابق إليه. وبعبارة أخرى يكون الكلام الذي يلي «أم» المنقطعة خبريًّا لا إنشائيًّا.

النقطة الثانية أن «هل» قسمان:

١- بسيطة: إن استفهم بها عن وجود شيء أو عدمه، نحو: هل يصدأ الذهب؟ فالمطلوب هنا معرفة ثبوت الصدأ للذهب أو نفيه عنه، ولذلك يجاب في الإثبات بنعم، وفي النفي بلا، ومن أمثلتها أيضًا: هل الحركة موجودة؟

---

(١) الفلج لغة: الظفر والفوز، والفلج: نهر صغير، والفلج: اسم بلد، وواد بطريق البصرة إلى مكة.

٢- مركبة: إن استفهم بها عن وجود شيء لشيء أو عدمه، نحو: هل نهر النيل يصب في البحر الأبيض؟ فالعلم بوجود نهر النيل أمر لا شك فيه، ولكن المجهول عنه والمطلوب معرفته هو ثبوت صبّه في البحر الأبيض أو نفيه عنه، ولهذا يجاب عنه في الإثبات بنعم وفي النفي بلا، ومن أمثلتها أيضًا: هل الحركة دائمة؟ وهذا التقسيم ليس مقصورًا على «هل» وإنما تشترك معها فيه الهمزة التي للتصديق، فقد تكون هي الأخرى بسيطة إن استفهم بها عن وجود الشيء أو عدمه، وقد تكون مركبة إن استفهم بها عن وجود شيء لشيء.

والنقطة الثالثة أن المسئول عنه بالهمزة التي للتصور يلي الهمزة مباشرة، سواء أكان هو:

١- المسند إليه نحو: أأنت الذي جاء لزيارتي أمس أم غيرك؟

٢- أو المسند نحو: أمسافر أنت في الصيف أم مقيم؟

٣- أو مفعولاً به نحو أكتابًا قرأت في الأدب أم أكثر من كتاب؟

٤- أو حالاً نحو: أماشيًا تغدو إلى عملك أو راكبًا؟

٥- أو زمانًا نحو: أساعة أمضيت في زيارة صديقك أم ساعتين؟

٦- أو غير ذلك من المتعلقات نحو: أإلى الشعر تميل أو إلى الأدب القصصي؟

بقية أدوات الاستفهام:

عرفنا من أدوات الاستفهام حتى الآن: الهمزة وهل، ولكن للاستفهام أدوات أخرى غير هاتين الأداتين، وهي: من وما ومتى وأيان وكيف وأين وأنى وكم وأيّ. وهذه الأدوات يطلب بها التصور فقط، ولذلك يكون الجواب معها بتعيين المسئول عنه.

وطبيعي أن المطلوب تعيينه أو تصوره بكل منها يخالف المطلوب تعيينه وتصوره بأداة أخرى، ولذلك يقتضي الأمر التعرّف على حقيقة المسئول عنه والمطلوب تعيينه وتصوره بكل أداة من هذه الأدوات. وفيما يلي بيان ذلك:

١- من: ويطلب بها تعيين العقلاء.

وتعيين العاقل يحصل بالعَلَم [1]، أي بذكر اسم المسئول عنه، كقولنا في جواب: من هذا؟ هذا محمد أو عليّ مثلاً، كما يحصل بالصفة، أي بذكر صفة من صفات

(١) العلم بفتح العين واللام .

المسئول عنه، كقولنا في جواب السؤال السابق: من هذا؟ هذا معلم أو طبيب أو صديق مثلاً.

٢- ما: ويطلب بها شرح الاسم أو ماهية المسمى.

فشرح الاسم يراد به بيان مدلوله لغة، أي بيان المعنى الذي وضع له في اللغة، نحو ما الكبرياء؟ فيكون الجواب: إنها العظمة والملك والتجبر. وما التواضع؟ فيكون الجواب: إنه التذلل والخشوع.

أما ماهية المسمى فهي حقيقته التي هو بها هو، ويراد بها الحقيقة الوجودية التي تتحقق بها أفراد الشيء بحيث لا يزاد في الخارج عليها إلا العوارض كأن يقال: ما الإنسان؟ فيكون الجواب: إنه الحيوان الناطق، فأفراد الإنسان لا تزيد عن هذه الحقيقة إلا بالعوارض أي الصفات التي تميز فردًا من الإنسان على الآخر، وكأن يقال: ما الحركة؟ أي ما حقيقة مسمى هذا اللفظ فيجاب بإيراد ذاتياته.

قال السكاكي: «يسأل بما عن الجنس»، تقول: ما عندك؟ بمعنى أي أجناس الأشياء عندك؟ وجوابه: كتاب ونحوه، كذلك يسأل بما عن الوصف، تقول: ما زيد؟ ما صفة زيد؟ أي وجوابه: الكريم، ونحوه.

ويدخل عنده في السؤال بما عن الجنس، السؤال عن الماهية أي الحقيقة، نحو: ما الكلمة؟ بمعنى أي أجناس الألفاظ هي، وجوابه: إنها لفظ مفرد موضوع.

٣- متى: ويطلب بها تعيين الزمان ماضيًا كان أو مستقبلاً، فتقول: متى جئت؟ والجواب: صباحًا أو مساءً مثلاً وتقول: متى تأتي؟ ويكون الجواب: آتي بعد شهر مثلاً.

٤- أيان: ويطلب بها تعيين الزمان المستقبل خاصة، وأكثر ما تكون في مواضع التفخيم، أي في المواضع التي يقصد فيها تعظيم المسئول عنه والتهويل بشأنه، نحو قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ [القيامة:٦] ؟ ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا﴾ [الأعراف:١٨٧]؟ ﴿يَسْـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾ [الذاريات:١٢] ؟.

٥- كيف: ويطلب بها تعيين الحال، فإذا قيل: كيف أحمد؟ فجوابه هو صحيح أو سقيم أو شج أو جذلان[1] وما أشبه ذلك.

---

(١) شج أو جذلان: حزين أو فرحان.

٦- أين: ويطلب بها تعيين المكان، فإذا قيل أين الطبيب؟ فجوابه: هو في المستشفى أو في عيادته مثلاً.

٧- أنَّى: وتأتي لمعان عدّة، وتفصيل ذلك أنها تستعمل تارة بمعنى «كيف» نحو: أنَّى يتوقع المرء النجاح في عمله وهو لا يعمل له؟ وتارة تستعمل بمعنى «من أين» نحو: أنَّى لك هذا؟ وتارة تستعمل بمعنى «متى» نحو: أنى جئت؟ أو أنَّى تجيء؟

٨- كم: ويطلب بها تعيين العدد، نحو قوله تعالى: ﴿سَلْ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ كَمْ ءَاتَيْنَٰهُم مِّنْ ءَايَةٍۭ بَيِّنَةٍ﴾ [البقرة:٢١١]؟ وقوله تعالى: ﴿كَمْ لَبِثْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ﴾ [المؤمنون:١١٢]؟.

٩- أي ويطلب بها تعيين أحد المتشاركين في أمر يعمهما، نحو قوله تعالى: ﴿أَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا﴾ [مريم:٧٣]؟ أي أنحن أم أصحاب محمد؟.

وعلى هذا يسأل «بأي» عن العاقل وغير العاقل، وعن الزمان والمكان والحال والعدد - على حسب ما تضاف إليه. فإن أضيفت إلى عاقل أخذت حكم «من» التي يطلب بها تعيين العقلاء، وإن أضيفت إلى زمان أو مكان عدد مثلاً أعطيت حكم متى أو أين أو كم على التوالي، وهكذا.

المعاني التي تستفاد من الاستفهام بالقرائن

عرفنا أن الاستفهام في الأصل هو طلب العلم بشيء لم يكن معلومًا من قبل بأداة خاصة، ولكن أدوات الاستفهام قد تخرج عن معانيها الأصلية إلى معان أخرى على سبيل المجاز تفهم من سياق الكلام وقرائن الأحوال، ومن هذه المعاني الأخرى الزائدة التي تحتملها ألفاظ الاستفهام من سياق الكلام.

١- النفي: وذلك عندما تجيء لفظة الاستفهام للنفي لا لطلب العلم بشيء كان مجهولاً.

ومن أمثلة ذلك في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ﴾ [الروم:٢٩]؟ وقوله: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ [الرحمن:٦٠]؟، وقوله: ﴿أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِى ٱلنَّارِ﴾ [الزمر:١٩]؟، وقوله: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة:٢٥٥]؟.

فظاهر هذه الآيات الكريمة الاستفهام، والمعنى: لا هادي لمن أضل الله، وليس جزاء الإحسان إلا الإحسان، ولست تنقذ من في النار، ولا أحد يشفع عنده إلا بإذنه.

ومن الشعر الذي خرج فيه الاستفهام إلى النفي قول الفرزدق:

أين الذين بهم تُسامي دَارِمًا؟ أم مَن إلى سَلَفَيْ طهيَةَ تجعل؟

وقول أبي فراس في رثاء أمه:

إلى من أشتكي؟ ولمن أناجي إذا ضاقت بما فيها الصدور؟
بأيِّ دعاءِ داعيةٍ أوقى؟ بأيِّ ضياءِ وجهٍ أستنير؟
بمن يستدفع القدر الموفى؟ بمن يستفتح الأمر العسير؟

وقول المتنبي من قصائد مختلفة:

ومن لم يعشق الدنيا قديمًا؟ ولكن لا سبيل إلى الوصال.
يفنى الكلام ولا يحيط بفضلكم أيحيط ما يَفْنى بما لا ينفدُ؟
وهل تفنى الرسائل في عدوّ إذا ما لم يكنَّ ظُبا رقاقا[1]؟
كيف الرجاء من الخطوب تخلصًا من بعد ما أنشبن فيَّ مَخالبا؟

وقول البحتري:

هل الدهر إلاّ غمرة وانجلاؤها وشيكًا، وإلاّ ضيقة وانفراجها؟

وقول آخر:

فما ترجّى النفوس من زمن أحمد حاليه غير محمود؟

فالاستفهام في جميع هذه الأبيات قد خرج عن معناه الأصلي إلى النفي الذي يستفاد من سياق الكلام.

٢- التعجب: كقوله تعالى: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان:٧]؟ وقوله تعالى على لسان سليمان عليه السلام: ﴿مَالِىَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ﴾ [النمل:٢٠]؟ فالغرض من هذا السؤال هو التعجب، لأن الهدهد كان لا يغيب عن سليمان إلا بإذنه، فلما لم يبصره تعجب من حال نفسه وعدم رؤيته.

والمتعجب منه في الحقيقة هو غيبة الهدهد من غير إذن، ووجه خروج الاستفهام إلى التعجب أن السؤال عن السبب في عدم الرؤية يستلزم الجهل بذلك السبب، والجهل بسبب عدم الرؤية يستلزم التعجب.

---

(١) الظبا: جمع ظبة بضم الظاء وباء مخففة وهي حد السيف، والمعنى لا يشتفي من العدو إلا بالقتل.

ومن أمثلته في شعر المتنبي، قوله حينما صرع بدر بن عمار أسدًا.

أمعفر الليث الهزبر بسوطه لمن ادخرت الصارم المسلولا [١]

وقوله وقد أصابته الحمَّى:

أبنت الدهر عندي كل بنت فكيف وصلت أنت من الزحام؟

وقوله في سيف الدولة وقد أصابته علة:

وكيف تعُلك الدنيا بشيء وأنت لعلة الدنيا طبيب؟
وكيف تنوبك الشكوى بداء وأنت المستغاث لما ينوب؟

وقوله أيضًا:

خليليَّ إني لا أرى غير شاعر فلِمَ منهم الدعوى ومني القصائد؟
فلا تعجبا أن السيوف كثيرة ولكن سيف الدولة اليوم واحد

وقول إحدى نساء العرب تشكو ابنها:

أنشا يمزق أثيابي يؤدبني أعد شيبى يبغي عندي الأدبا؟

وقول شوقي:

ما أنت دنيا؟ أرؤيا نائم؟ أم ليل عُرس؟ أم بساط سلافِ؟

٣- التمني: وذلك عندما يكون السؤال موجهًا إلى من لا يعقل.

ومن أمثلته:

هل الحدث الحمراء تعرف لونها؟ وتعلم أي الساقيين الغمائم [٢]
هل بالطلولِ لسائل رد؟ أم هل لها بتكلم عهدُ؟
أيدري الربع أيّ دم أراقا؟ وأي قلوب هذا الركب شاقا؟
أما تغلط الأيام فيَّ بأن أرى بغيضًا تناءى أو حبيبًا تقرب؟
فيا ليلة قد رجعنا بها سعيدين، من لي بأن تقبلي؟

وقول أبي العتاهية في مدح الأمين:

تذكر أمين الله حقي وحرمتي وما كنت توليني لعلك تذكر

---

(١) عفره: في التراب، والليث الهزبر: الأسد الشديد، والصارم: السيف القاطع، ويقول: إذا كنت تصرع الأسد القوي بالسوط فلمن إذن أعددت سيفك القاطع؟

(٢) الحدث: قلعة بناها سيف الدولة في بلاد الروم.

فمن لي بالعين التي كنت مرة   إليّ بها في سالف الدهر تنظر؟

وقول شاعر معاصر من قصائد مختلفة:

يا طيور المساء هل من سبيل   تصل النفس بالليالي الشهيدة؟
هو هذا أنا فمن لي بصوت   يمنع الناس أن يطيلوا الملاما؟
ألا ليالي بيضا كالتي سلفت   أنسى بها كل ما عانيت من محن؟

وقوله مخاطبًا بلاده:

أما فيك من قلبه أمةٌ   ومن عزمه الجيشُ أو أصلب؟

٤- التقرير: حَمْلُ المخاطب على الإقرار بما يعرفه إثباتًا ونفيًا لغرض من الأغراض، على أن يكون المقرر به تاليًا لهمزة الاستفهام، فتقول: أفعلت؟ إذا أردت أن تقرره بأن الفعل كان منه، وتقول: أأنت فعلت؟ إذا أردت أن تقرره بأنه الفاعل، وتقول: أشعرًا نظمت؟ إذا أردت أن تقرره بأن منظومه شعر، وهكذا.

ومن الاستفهام التقريري قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [الشرح:١] ؟ وقوله: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا﴾ [الشعراء:١٨] ؟، وقوله تعالى على لسان قوم إبراهيم: ﴿ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ﴾ [الأنبياء:٦٢] ؟، وقوله: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ۝٨﴾ [الضحى:٦-٨]؟.

ومن أمثلته شعرًا:

ألستم خير من ركب المطايا   وأندى العالمين بطون راح؟
ألستَ المرء تَجبي كلّ حمد   إذا ما لم يكن للحمد جاب [(١)]؟
ألست أعمَّهم جودًا وأزكا   هم عودًا وأمضاهم حسامًا [(٢)]؟

٥- التعظيم وذلك بالخروج بالاستفهام عن معناه الأصلي واستخدامه في الدلالة على ما يتحلَّى به المسئول عنه من صفات حميدة كالشجاعة والكرم والسيادة والملك وما أشبه ذلك.

ومن أمثلته:

من فيكم الملك المطاع كأنه   تحت السوابغ تُبّعٌ في حمير؟
أضاعوني وأيّ فتى أضاعوا   ليوم كريهة وسداد ثغر؟

---

(١) تجبي: تجمع.   (٢) أزكاهم عودًا: أقواهم جسمًا.

من للمحافل والجحافل والسَّرَى؟ فقدت بفقدك نيرًا لا يطلع
ومن اتخذت على الضيوف خليفة؟ ضاعوا، ومثلك لا يكاد يُضَيِّع
إذا القوم قالوا: من فتى لعظيمة؟ فما كلهم يُدعَى ولكنه الفتى
إذا القوم قالوا: من فتى؟ خلت أنني دعيت، فلم أكسل ولم أتبلَّدِ

٦- التحقير: عندما يخرج الاستفهام عن معناه الأصلي للدلالة على ضآلة المسئول عنه وصغر شأنه مع معرفة المتكلم أو السائل به، نحو «من هذا»؟، والعلاقة أن المحتقَر من شأنه أن يُجهل لعدم الاهتمام به فيُسأل عنه والاحتقار فيه إظهار حقارة المخاطب وإظهار اعتقاد صغره، ولذلك يصح في غير العاقل نحو: «ما هذا؟»، أي هو شيء حقير قليل.

ومما ورد منه في القرآن قوله تعالى على لسان الكفار: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا﴾ [الفرقان:٤١] ؟، ومن أمثلته شعرًا:

فدع الوعيد فما الوعيد بضائري أطنين أجنحة الذباب يطير؟
أتظن أنك للمعالي كاسب وخبي أمرك شرَّة وشنار [١]؟
من أية الطرق يأتي مثلك الكرم؟ أين المحاجم يا كافور والجلم [٢]؟
أيشتمنا عبد الأرقم ضِلَّةً؟ فماذا الذي تُجدي عليك الأراقم [٣]؟

٨- الاستبطاء: وهو عدّ الشيء بطيئًا في زمن انتظاره وقد يكون محبوبًا منتظرًا، ولهذا يخرج الاستفهام فيه عن معناه الأصلي للدلالة على بُعد زمن الإجابة عن زمن السؤال، وهذا البعد يستلزم الاستبطاء، نحو قولك لمخاطب دعوته فأبطأ في الاستجابة لك: «كم دعوتك»؟ فليس المراد هنا الاستفهام عن عدد مرات الدعوى أو النداء، وإنما المراد أنَّ تَكَرُّر الدعوى قد باعد بين زمن الإجابة وزمن السؤال، وفي ذلك إبطاء، ولهذا جاء السؤال دالاً على استبطاء تحقق المسئول عنه، وهو الاستجابة للدعوة المتكررة.

ومن أمثلة ذلك قولك: «كم انتظرتك»؟، و «متى يعود السلام إلى ربوع الوطن»؟، ونحو قوله تعالى: ﴿مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ﴾ [البقرة:٢١٤] ؟.

---

(١) الشرة بكسر الشين: الشر والحدة والحرص، والشنار بفتح الشين: أقبح العيب.
(٢) المحاجم: جمع محجمة بكسر الميم وهي الوعاء الذي يجمع فيه دم الحجامة عند المص، والجلم: أحد شقي المشرط. قيل إن كافورًا كان عبدًا لحجام بمصر ثم اشتراه الإخشيد.
(٣) الأراقم: حي من تغلب، وعبد الأراقم: كناية عن الأخطل، والضلة بكسر الضاد: ضد الهدى.

ومنه شعرًا:

ألام وفيهم تنقلنا ركاب	ونأمل أن يكون لنا أوان؟
حتى متى أنت في لهو وفي لعب	والموت نحوك يهوي فاتحًا فاه؟
حتام نحن نُساري النجم في الظلم؟	وما سراه على خف ولا قدم
طال بي الشوط، ولكن ما التقينا	فمتى ألقاك في الدنيا؟ وأينا؟
متى يشتفى من لاعج الشوق في الحشى	محب لها في قربه متباعد؟

٩- الاستبعاد: وهو عدّ الشيء بعيدًا حسًّا أو معنى، وقد يكون منكرًا مكروها غير منتظر أصلاً، وربما يصلح المحل الواحد له وللاستبطاء، وعلى هذا قد يخرج الاستفهام عن معناه الأصلي للدلالة على استبعاد السائل للمسئول عنه، سواء أكان البعد حسيًّا مكانيًّا، نحو قول شوقي وهو منفيٌّ في الأندلس: «أين شرق الأرض من أندلس»؟ أو بعدًا معنويًّا كمن يقول لمن هو أعلى منه منزلة: «أين أنا منك»؟.

ومن أمثلته قوله تعالى: ﴿أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ۝١٣ ثُمَّ تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ﴾ [الدخان :١٣-١٤] ؟ أي كيف يذكرون ويتعظون والحال أنهم جاءهم رسول يعلمون أمانته بالآيات البينات من الكتاب المعجز وغيره فتولوا عنه وأعرضوا؟ فكل هذه قرائن لاستبعاد تذكرهم.

ومن أمثلته شعرًا قول جرير في رثاء ابنه سوادة:

قالوا: نصيبك من أجر فقلت لهم:	كيف العزاء إذا فارقت أشبالي؟ (١)

وقول أبي تمام:

من لي بإنسان إذا أغضبته	وجهلت كان الحلم ردَّ جوابِه؟

وقول أبي الطيب:

وما قتل الأحرار كالعفو عنهم	ومن لك بالحر الذي يحفظ اليدا؟

وقول آخر:

من لي برد الدمع قسرًا، والهوى	يغدو عليه مشمرًا في نصره؟

وقول شاعر معاصر:

---

(١) نصيبك بالنصب لا غير؛ لأنه مفعول لفعل محذوف تقديره: احفظ أو أحرز نصيبك.

هذا الفؤاد فنقب في جوانحه أكنت تلقى به ظلًّا لإنسان؟

٩- الإنكار: وقد يخرج الاستفهام عن معناه الأصلي للدلالة على أن المستفهم عنه أمر منكر عرفًا أو شرعًا، نحو قولك لمن يقف بسيارته في طريق عام من غير سبب: «**أتعوق غيرك عن السير في الطريق**»؟ ونحو قولك لمسلم يأكل أو يدخن نهارًا في رمضان: «**أتأكل أو تدخن في شهر رمضان**»؟ فأنت في كلا السؤالين تنكر على المخاطب صدور مثل هذا العمل الشائن منه وتقرّعه عليه.

والاستفهام الإنكاري يكون على أوجه، فهو:

أ- إما إنكار للتوبيخ على أمر وقع في الماضي، بمعنى ما كان ينبغي أن يكون ذلك الأمر كان نحو قولك لمن صدر منه عصيان: «**أعصيت ربك**»؟.

ب- وإما إنكار للتوبيخ على أمر في الحال أو خيف وقوعه في المستقبل، والمعنى على هذا: لا ينبغي أن يكون هذا الأمر، نحو: «**أتعصي ربك**»؟ تقول هذا لمن هو واقع في المنكر أو لمن همّ أن يقع فيه، على معنى: لا ينبغي أن يحدث منك حالاً أو يصدر عنك استقبالاً. ويسمى الإنكار في الحالتين السابقتين الإنكار التوبيخي.

ج- وإما إنكار للتكذيب في الماضي، بمعنى: «**لم يكن**»، أي: أن المخاطب إن ادّعى وقوع شيء فيما مضى، أو نُزّل منزلة المدعي أُتي بالاستفهام الإنكاري تكذيبًا له في دعواه، نحو قوله تعالى لمن اعتقدوا أن الملائكة بنات الله: ﴿أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا﴾ [الإسراء:٤٠]؟ أي: أخصكم ربكم بالذكور وخص نفسه بالبنات؟ أي: أنه لم يفعل هذا لتعاليه عن الولد مطلقًا.

د- وإما إنكار للتكذيب في الحال أو في المستقبل، بمعنى «**لا يكون**» نحو قوله تعالى على لسان نوح عليه السلام عندما دعا قومه إلى التوحيد وكذبوه: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ﴾ [هود:٢٨]؟ أي: أنكرهكم على قبولها، والحال أنكم لها كارهون؟ يعني لا يكون هذا الإلزام. فالإنكار في هذين الحالين إنكار لأمر كاذب، ولذلك يسمى في الحالين الإنكار التكذيبي.

ويجب في الاستفهام الإنكاري أن يقع المنكر بعد همزة الاستفهام. وقد يكون المنكر هو «**الفعل**» نحو قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً﴾ [الأنعام:٧٤]؟ فالمنكر هو نفس الفعل، أي: اتخاذ الأصنام آلهة، ونحو قوله تعالى على لسان إبراهيم

عندما أسرع إليه قومه بعد أن كسَّر أصنامهم: ﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ۝ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات:٩٥-٩٦] ؟ ونحو قول امرئ القيس:

أيقتلني والمشرفي مضاجعي ومسنونة زرق كأنياب أغوال[1]؟

وقول آخر:

أأترك إن قلت دراهم خالد زيارته؟ إني إذن للئيم

وقد يكون المنكر هو «الفاعل» في المعنى، كقوله تعالى: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ [الزخرف:٣٢] ؟ أي: ينكر عليهم أن يكونوا هم المتخيرين للنبوة من يصلح لها المتولين لقَسم رحمة الله التي لا يتولاها إلا هو بباهر قدرته وبالغ حكمته. وعدّ الزمخشري من هذا الضرب قوله تعالى: ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس:٩٩] ؟، وقوله تعالى أيضًا: ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ﴾ [الزخرف:٤٠] ؟ على المعنى: أفأنت تقدر على إكراههم على الإيمان؟ وأفأنت تقدر على هدايتهم على سبيل القسر والإلجاء؟ أي: إنما يقدر على ذلك الله لا أنت.

وقد يكون المنكر «المفعول» نحو قوله تعالى: ﴿أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا﴾ [الأنعام:١٤] ؟، وقوله تعالى: ﴿أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ﴾ [الأنعام:٤٠] ؟ وقد يكون «المفعول لأجله» نحو قوله تعالى: ﴿أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ﴾ [الصافات:٨٦] ؟ [2] أي: أتريدون آلهة غير الله كذبًا؟ وهكذا...

١٠- التهكم: ويقال له أيضًا السخرية والاستهزاء، وهو إظهار عدم المبالاة بالمستهزأ أو المتهكم به ولو كان عظيمًا. وقد خرج الاستفهام عن معناه الأصلي للدلالة على هذا المعنى، نحو قوله تعالى حكاية عن الكافرين في شعيب: ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ﴾ [هود:٨٧] ؟.

فالقصد هنا هو الاستخفاف بشأن شعيب في صلاته التي يلازمها؛ لأن شعيبًا كان كثير الصلاة، وكان قومه إذا رأوه يصلي تضاحكوا، فقصدوا بسؤالهم لشعيب الهزء والسخرية والتهكم لا حقيقة الاستفهام، ومثله قوله تعالى حكاية عن إبراهيم عليه

---

(١) المشرفي: سيف نسب إلى قرى بالشام يقال لها المشارف والمسنونة الزرق السهام المسنونة الصافية، والأغوال: جمع الغول، وهو كل ما اغتال الإنسان وأهلكه.

(٢) الإفك: أقبح الكذب.

السلام: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ۝٩١ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ﴾ [الصافات :٩١-٩٢] ؟، فالمعنى: أن إبراهيم ذهب خفية إلى أصنام قومه فقال لهم هذا القول تهكمًا بهم وسخرية واستهزاء. ومنه قوله تعالى: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ﴾ [الأنبياء :٣٦] ؟.

ومنه قول المتنبي في الدمستق:

أفي كل يوم ذا الدمستق مقدم قفاه على الأقدام للوجه لائم؟ (١)

وقول أبي فراس متهكمًا ببني زرارة عندما أخذ أحد خلفائهم منهم غصبًا:

ما بالكم! يا أقل الله خيركم لا تغضبون لهذا الموثق المعاني؟
جار نزعناه قسرًا في بيوتكم والخيل تعصب فرسانًا بفرسان

١١- التسوية: وتأتي الهمزة للتسوية المصرح بها نحو قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة:٦] ، فهم يعلمون مسبقًا أنهم أنذروا ومع ذلك أصروا على كفرهم وعنادهم، ولهذا يجيء الاستفهام هنا للدلالة على أن إنذار الرسول وعدمه بالنسبة لهم سواء. ومن أجل ذلك خرج الاستفهام عن معناه الحقيقي ليؤدي معنى مجازيًا بلاغيًا هو التسوية.

ومن أمثلة التسوية أيضًا قوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ﴾ [الأنبياء :١٠٩] ؟ومنه قول المتنبي:

ولست أبالي بعد إدراكي العلا أكان تراثًا ما تناولت أم كسبا؟

١٢- الوعيد: ويسميه بعض البلاغيين «التهديد»، وذلك نحو قولك لمن يسيء الأدب: «ألم أؤدب فلانًا» إذا كان المخاطب المسيء للأدب عالمًا بذلك، وهو أنك أدبت فلانًا، فيفهم معنى الوعيد والتهديد والتخويف فلا يحمل كلامك على الاستفهام الحقيقي، ومنه قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ﴾ [الفجر :٦] ؟

١٣- التهويل: وهو التفظيع والتفخيم لشأن المستفهم عنه لغرض من الأغراض، وذلك كقراءة ابن عباس لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ۝٣٠ مِن فِرْعَوْنَ﴾ [الدخان :٣٠-٣١] فقد قرأ ابن عباس «من فرعون»؟ بفتح ميم «من» على أنها اسم

---

(١) الدمستق صاحب جيش الروم، والمعنى: أكل يوم يقدم الدمستق عليك يا سيف الدولة ثم يفر، فيلوم قفاه وجه على أقدامه قائلاً له: لم أقدم حتى عرضتني للضرب بهزيمتك؟ وذلك أن إقدامه سبب هزيمته والضرب في قفاه.

استفهام خبر مقدم، و«فرعون» بالرفع على أنه مبتدأ. وحقيقة الاستفهام على هذه القراءة غير مرادة، وإنما المراد تفظيع أمر فرعون والتهويل بشأنه لبيان شدة العذاب الذي نجا منه بنو إسرائيل. وللتهويل من شأن فرعون وعذابه، قال تعالى بعد ذلك: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ [الدخان :٣١] ، أي: أنه كان عاليًا في ظلمه مسرفًا في عتوه.

١٤- التنبيه على الضلال: نحو قوله تعالى: ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ﴾ [التكوير :٢٦] ؟ وليس القصد هنا الاستفهام عن مذهبهم وطريقهم، بل التنبيه على ضلالهم وأنه لا طريق لهم ينجون به. وكثيرًا ما يؤكد هذا الاستعمال بالتصريح بالضلال، فيقال لمن ضل عن القصد: «يا هذا إلى أين تذهب قد ضللت فارجع»، وبهذا يعلم أن التنبيه على الضلال لا يخلو من الإنكار والنفي.

١٥- التشويق: وفيه لا يطلب السائل العلم بشيء لم يكن معلومًا له من قبل، وإنما يريد أن يوجه المخاطب ويشوقه إلى أمر من الأمور، نحو قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الصف :١٠-١١] ؟ ومن هذا القبيل قوله تعالى على لسان إبليس عندما راح يوسوس لآدم ويغريه بالأكل من الشجرة التي نهاه الله عن الاقتراب منها: ﴿قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾ [طه :١٢٠] ؟

١٦- الأمر: وقد يخرج الاستفهام عن معناه الحقيقي للدلالة على معنى الأمر، نحو قوله تعالى: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [هود :١٤] ؟ أي: أسلموا، وقوله تعالى: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المائدة :٩١] ؟ أي: انتهوا، ونحو قوله تعالى أيضًا: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر :١٧] ؟ أي: تذكر واتعظ، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسْلَمْتُمْ﴾ [آل عمران :٢٠] ؟ أي: أسلموا، ومن هذا القبيل «أرأيت؟» أو «أرأيتك؟» فإنه استفهام خرج إلى الأمر بمعنى «أخبرني». وقد ورد هذا الأسلوب كثيرًا في القرآن الكريم، ومنه قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ [النجم :١٩-٢٠] ؟ أي: أخبروني عن هذه الأصنام الثلاثة التي كانوا يزعمون أنها تمثل بعض الملائكة، وكانوا يتقربون بها إلى الله، ومنه قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ ﴿٣٣﴾ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ﴾ [النجم :٣٣-٣٤] ؟ أي: أخبرني عن هذا الذي أعطى قليلاً ثم أكدى، أي: توقف عن العطاء.

وقوله تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴿١٠﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ

﴿١٢﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١٣﴾﴾ [العلق :٩-١٣] ؟ أي : أخبرني أيها السامع عن حال هذا الرجل، هل هو على هدى عندما منع عبدًا من طاعة ربه، أو هو أمر بالتقوى عندما أمر غيره بعدم إطاعة خالقه؟ ثم أخبرني عندما كذب رسولنا وأعرض عن طاعة ربه، فهل يظن أنه يفلت من عقابنا؟ كلا .

١٧- النهى : وقد يخرج الاستفهام عن معناه الحقيقي إلى معنى النهي، أي : إلى طلب الكف عن الفعل على وجه الاستعلاء نحو قوله تعالى : ﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ ۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ﴾ [التوبة :١٣] ، أي : لا تخشوهم فالله أحق أن تخشوه . ومنه قول الشاعر :

أتقول: أف للتي حملتك ثم رعتك دهرًا؟

أي : لا تقل : أف لأمك .

وقول آخر :

أتخالني أرضى الهوان؟ فحاذر واسلم بنفسك من أبي قادر

أي : لا تخلني أرضى الهوان، فحاذر . . . إلخ .

١٨- العرض : ومعناه طلب الشيء بلين ورفق . ومن أدواته «ألا» بفتح الهمزة وتخفيف اللام، و«أما» بفتح الهمزة وتخفيف الميم، وتختص كلتا الأداتين إذا كانتا للعرض بالدخول على الجملة الفعلية، ونحو قوله تعالى : ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ﴾ [النور :٢٢] ؟ ونحو : أما تزورنا فتدخل السرور علينا؟ ومنه شعرًا :

ألا تقول لمن لا زال منتظرًا منك الجواب كلامًا يبعث الأملا؟
أما تضيف لما أسديت من نعم فضل المعونة في اللأواء والمحن؟ (١)
ألا فتى من بني ذبيان يحملني؟ وليس يحملني إلا ابن حمَّالِ (٢)
ألا فتى يورد الهنديُّ هامته كيما تزول شكوك الناس والتُّهم؟

١٩- التحضيض : ومعناه طلب الشيء بحثّ . ومن أدواته «لولا» و«لوما» و«هلّا» بتشديد اللام . وهذه الأدوات إذا كانت للتحضيض فإنها تختص بالدخول على جملة فعلية فعلها ماض أو مستقبل .

---

(١) اللأواء : الشدة .

(٢) فتى في هذا البيت والذي يليه فاعل لفعل محذوف تقديره في هذا البيت «ألا يحملني فتى» وفي البيت الذي يليه «ألا يورد فتى» والسبب أن أداة العرض كما ذكرنا تختص بالدخول على الجمل الفعلية .

فإذا وقع بعد أداة من هذه الأدوات فعل ماض، فإن معناه يخرج إلى اللوم والتوبيخ فيما تركه المخاطب، أو يقدر فيه الترك، نحو قولك لمن قصر في الامتحان: «**هلّا أعددت للامتحان عدته؟**» ولمن جاء متأخرًا: «**لولا حضرت مبكرًا؟**» ولمن تراخى وتباطأ في عمله: «**ألّا بدأت عملك؟**» ولمن تسرع في القيام بواجبه فلم يحسنه: «**لو ما تأنيت في أداء واجبك؟**» فالتحضيض في كل هذه المعاني قد خرج إلى اللوم والتوبيخ، وذلك لوقوع الفعل الماضي بعد كل أداة تخصيص.

ومنه قول أبي فراس الحمداني من قصيدة طويلة في التشيع لآل علي والرد على خصومهم:

هلا صفحتم عن الأسرى بلا سبب ... للصافحين «ببدر» عن أسيركم؟
هلا كففتم عن «الديباج» سوطكم؟ ... وعن بنات «رسول الله» شتمكم؟ (١)

أما إذا وقع الفعل المستقبل بعد أي أداة من الأدوات السابقة فإن معنى التحضيض يخرج إلى الحث في طلب الشيء كقول المعلم لتلميذه الذي لا يظهر اجتهادًا: لولا تجتهد؟ ولمن لا يصغى إليه أثناء شرح الدرس: لو ما تصغى إليّ؟ ولمن يقرأ من غير جدّ: هلا تقرأ خيرًا من ذلك؟

فالتحضيض في كل هذه المعاني قد خرج إلى الحث أو الاستحثاث على الفعل، وذلك لوقوع الفعل المستقبل بعد أدوات التحضيض. ومما ورد من ذلك في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ﴾ [الحجر:٧] ؟ وفي هذا شاهد على وقوع الفعل المستقبل بعد أداة التحضيض فأفاد طلب الفعل بحثّ، وقد خرج الاستفهام هنا إلى معنى الأمر، أي «**ائتنا بالملائكة**».

وقد يلي الفعل الماضي أداة التحضيض فلا يفيد اللوم والتوبيخ وإنما يفيد الطلب بحث، وذلك لأن الماضي في تأويل الفعل المستقبل، نحو قوله تعالى: ﴿لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ [المنافقون:١٠] ؟، إذ المعنى: لولا تأخرني إلى أجل قريب؟.

وقد تستعمل أداة العرض «ألا» المفتوحة الهمزة المخففة اللام للتحضيض إذا دلت على طلب الفعل بحثّ نحو قوله تعالى: ﴿أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوا أَيْمَانَهُمْ﴾

(١) الديباج: محمد بن عبد الله، وسمي: «**الديباج**» لحسنه، ضربه المنصور ثمانين سوطًا على رأسه. انظر: ديوان أبي فراس ج ٣ ص ٣٥٢ طبعة سامس الدهان.

[التوبة :١٣] ؟ وكقولك لمن خالف الوعد: ألا تفي بوعدك؟ ولمن يضيع وقته سدى: ألا تملأ وقتك بعمل نافع؟ وهكذا . . .

تلك هي أهم المعاني الزائدة التي قد يخرج الاستفهام عن معناه الحقيقي لأدائها عن طريق قرائن تستفاد من سياق الكلام.

وقد ذكر ابن فارس في كتابه «**الصاحبي في فقه اللغة**» معاني أخرى يخرج الاستخبار، أي الاستفهام عن معناه الحقيقي للدلالة عليها.

وعن هذه المعاني يقول: ويكون اللفظ استخبارًا والمعنى «**تفجع**» نحو: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً﴾ [الكهف :٤٩] ؟ ويكون استخبارًا والمعنى «**تبكيت**» نحو: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [المائدة :١١٦] ؟ تبكيت للنصارى فيما ادعوه، ويكون استخبارًا والمعنى: «**استرشادًا**» نحو: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾ [البقرة :٣٠] ؟ وتكون استخبارًا، والمراد به «**الإفهام**» نحو قوله جل ثناؤه: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ [طه :١٧] ؟ [١] قد علم الله أن لها أمرًا قد خفى على موسى عليه السلام فأعلمه من حالها ما لم يعلم، ويكون المعنى استخبارًا، والمعنى «**تكثير**» نحو قوله جل ثناؤه: ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا﴾ [الأعراف :٤] ؟ و ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ﴾ [الحج :٤٨] ؟ ومثله:

كم من دنيّ قد صرت أتبعه ... ولو صحا القلب عنها كان لي تبعًا

وقد يكون اللفظ استخبارًا، والمعنى «**إخبار وتحقيق**» نحو قوله جل ثناؤه: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ﴾ [الإنسان :١] ؟ قالوا معناه: «**قد أتى**».

ثم يستطرد فيقول: ومن دقيق باب الاستفهام أن يوضع في الشرط وهو في الحقيقة للجزاء، وذلك كقول القائل: إن أكرمتك تكرمني؟ المعنى: أتكرمني إن أكرمتك؟ قال الله جل ثناؤه: ﴿أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ﴾ [الأنبياء :٣٤] ؟ تأويل الكلام: أفهم الخالدون إن مت؟ ومثله: ﴿أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ﴾ [آل عمران :١٤٤] ؟ تأويله: أفتنقلبون على أعقابكم إن مات؟ [٢]

ولمن بالتأمل يمكن إدخال بعض المعاني التي أشار إليها ابن فارس في بعض المعاني

---

(١) الإشارة هنا إلى عصا موسى .

(٢) انظر كتاب الصاحبي ص ١٨١ .

السابقة التي خرج إليها الاستفهام.

كذلك ذكر ابن فارس أن العرب ربما حذفت همزة الاستفهام، وأورد على ذلك الأمثلة التالية:

رفوني [١] وقالوا: يا خويلد لم ترع فقلت، وأنكرت الوجوه، همُ همُ؟

أراد: أهمُ همُ؟

لعمرك ما أدري وإن كنت داريًا شعيثُ بن سهم أم شعيث بن مِنقر؟

وقال عمر بن أبي ربيعة:

لعمرك ما أدري وإن كنت داريًا بسبع رمين الجمر أم بثمان؟

أي: أبسبع رمين الجمر أم بثمان؟

وعلى هذا حمل بعض المفسرين قوله جل ثناؤه في قصة إبراهيم عليه السلام: ﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي﴾ [الأنعام:٧٧] أي: أهذا ربي [٢]؟

رابعًا: التمني:

التمني نوع من الإنشاء الطلبي. وقد عرفه سعد الدين التفتازاني [٣] بقوله: «**التمني، هو طلب حصول شيء على سبيل المحبة**».

وعرفه يعقوب المغربي بقوله: «**هو طلب حصول الشيء بشرط المحبة ونفي الطماعية في ذلك الشيء**»، فخرج ما لا يشترط فيه المحبة، كالأمر والنهي والنداء والرجاء بناء على أنه طلب، وأما نفي الطماعية فلتحقيق إخراج نوع الرجاء الذي فيه الإرادة، وإخراج غيره مما فيه الطماعية [٤].

ومن ذلك يتضح أن التمني: طلب أمر محبوب لا يرجى حصوله. إما لكونه مستحيلاً، والإنسان كثيرًا ما يحب المستحيل ويطلبه، وإما لكونه ممكنًا غير مطموع في نيله.

---

(١) رفوني: أي سكنوني، والبيت لأبي خراش الهذلي. انظر: ديوان الهذليين القسم الثاني ص ١٤٤.
(٢) كتاب الصاحبي ص ١٨٣.
(٣) مختصر سعد الدين التفتازاني على تلخيص المفتاح للخطيب القزويني ج ٢ ص ٢٣٩.
(٤) انظر: مواهب الفتاح في شرح تلخيص المفتاح لابن يعقوب المغربي على هامش مختصر سعد الدين التفتازاني ج ٢ ص ٢٣٩.

فالأول: وهو طلب الأمر المحبوب الذي لا يرجى حصوله لكونه مستحيلًا، مثل قول الشاعر:

ألا ليت الشباب يعود يومًا فأخبره بما فعل المشيب

وقول ابن الرومي في شهر رمضان:

فليت الليل فيه كان شهرًا ومرّ نهاره مرّ السحابِ

وقول آخر:

ليت الكواكب تدنو لي فأنظمها عقودَ مدحٍ فما أرضي لكم كَلمى

ونحو قول المتنبي:

ليت الحوادث باعتني الذي أخذت مني بحملي الذي أعطت وتجريبي
فما الحداثة من حلم بمانعة قد يوجد الحلم في الشبان والشيب (١)

والثاني: وهو طلب الأمر المحبوب الذي لا يرجى حصوله لكونه ممكنًا غير مطموع في نيله، نحو قوله تعالى: ﴿يَٰلَيۡتَ لَنَا مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ قَٰرُونُ﴾ [القصص:٧٩] وقوله تعالى أيضًا: ﴿يَٰلَيۡتَ بَيۡنِي وَبَيۡنَكَ بُعۡدَ ٱلۡمَشۡرِقَيۡنِ﴾ [الزخرف:٣٨]. وكقول مروان بن أبي حفصة في رثاء معن بن زائدة:

فليت الشامتين به فدوه وليت العمر مدَّ له فطالا

واللفظ الذي يدل بأصل وضعه اللغوي على التمني هو «ليت» وقد يتمنى بثلاثة ألفاظ أخرى لغرض بلاغي، وهذه هي: «هل» و«لعل» و«لو».

فالغرض البلاغي المنشود من وراء التمني بلفظتي: «هل» و«لعل» هو إبراز المتمني المستحيل وإظهاره في صورة الممكن القريب الحصول لكمال العناية به والشوق إليه.

فمن أمثلة «هل» قوله تعالى: ﴿فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشۡفَعُواْ لَنَآ﴾ [الأعراف:٥٣]. وقوله تعالى أيضًا: ﴿فَهَلۡ إِلَىٰ خُرُوجٖ مِّن سَبِيلٖ﴾ [غافر:١١]، وقول الشاعر:

أيا منزلي سلمى سلام عليكما هل الأزمن اللائي مضين رواجع

ومن أمثلة «لعل» قوله تعالى: ﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبۡنِ لِي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَبۡلُغُ ٱلۡأَسۡبَٰبَ ٣٦ أَسۡبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾ [غافر:٣٦-٣٧]، وقول الشاعر:

(١) الحلم هنا بمعنى العقل، والجمع حلوم وأحلام.

أسرب القطا هل من يعير جناحه لعلي إلى من قد هو يت أطير

والغرض البلاغي من استعمال «لو» في التمني، هو الإشعار بعزة المتمنى، وقدرته؛ لأن المتكلم يظهره في صورة الممنوع، إذ إن «لو» تدل بأصل وضعها على امتناع الجواب لامتناع الشرط، ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: ﴿فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء:١٠٢]، وقول جرير:

ولى الشباب حميدة أيامه لو كان ذلك يشترى أو يرجع

وقول مسلم بن الوليد:

واها لأيام الصبا وزمانه لو كان أسعف بالمقام قليلاً [١]

وإذا كان الأمر المحبوب مما يرجى حصوله كان طلبه ترجيًا. وألفاظ الرجاء التي تطلب بها الأمر المحبوب المطموع فيه والممكن حصوله هي: «لعل» و«عسى».

ومن أمثلة ذلك في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا﴾ [الطلاق:١]، وقوله: ﴿فَعَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ﴾ [المائدة:٥٢]، وقوله: ﴿عَسَىٰ رَبُّنَا أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا﴾ [القلم:٣٢].

ومن الشعر:

لعل خيال العامرية زائر فيسعد مهجور ويسعد هاجر

على الليالي التي أضنت بفرقتنا جسمي ستجمعني يومًا وتجمعه [٢]

عسى فرج يأتي به الله إنه له كل يوم في خليقته أمر

عسى الأيام أن تدني حبيبا لقيت ببعده الكرب الشدادا

وقد تستعمل «ليت» في الرجاء لغرض بلاغي هو إبراز المرجو في صورة المستحيل مبالغة في بعد نيله.

ومن أمثلة ذلك:

فليت هوى الأحبة كان عدلاً فحمل كل قلب ما أطاقا

ليت الملوك على الأقدار معطية فلم يكن لدنيء عندها طمع [٣]

---

(١) واهًا: كلمة للتعجب من طيب الشيء، ومعنى واهًا لأيام الصبا: ما أطيب أيام الصبا.

(٢) أضنت جسمي: أمرضته.

(٣) أي ليت الملوك يعطون الشعراء على قدر فضلهم ونبل أنفسهم فلا يطمع في عطائهم دنيء خسيس.

ليت المدائح تستوفى مناقبه فما كليب وأهل الأعصر الأول؟
إن كان يجمعنا حب لغرته فليت أنا بقدر الحب نقتسم [(١)]

خامسًا النداء:

والنوع الخامس والأخير من أنوع الإنشاء الطلبي النداء وهو طلب إقبال المدعو على الداعي بأحد حروف مخصوصة ينوب كل حرف منها مناب الفعل «أدعو».

وأحرف النداء أو أدواته ثمان: «الهمزة»، و«أي»، و«يا»، و«أيا»، و«هيا»، و«آ»، و«آى»، و«وا».

وهذه الأدوات في الاستعمال نوعان:

١- الهمزة، وأي لنداء القريب.

٢- والأدوات الست الأخرى لنداء البعيد.

فمن أمثلة استعمال الهمزة وأي لنداء القريب جريا على الأصل، ما يلي:

أمحمد افتح النافذة التي بجوارك.

أي زينب ناوليني كتابك لأقرأ فيه قليلاً.

ابني إن أباك كاربُ يومه فإذا دُعيت إلى المكارم فاعجل [(٢)]
أي صديقي إني قصدتك لما لم أجد في الحياة غيرك شهما

ومن أمثلة استعمال الأدوات الأخرى لنداء البعيد جريا على الأصل أيضًا:

يا ساري الصبا بلغ تحيتنا من لو على البعد حبي كان يحيينا
أيا رب قد أحسنت عودًا وبدأة إليَّ فلم ينهض بإحسانك الشكر
أيا جامع الدنيا لغير بلاغة لمن تجمع الدنيا وأنت تموت؟
هيا غائبًا عني وفي القلب عرشه أما آن أن يحظي بوجهك ناظري؟
أنعشتنا روائح من ديار كم حننا لها ولساكنيها
يا دار الأحباب: أهلاً وسهلاً من غريب عنها وإن كان فيها

وقد ينزل البعيد منزلة القريب، وعندئذ ينادي بالهمزة وأي إشارة إلى قربه من القلب وحضوره في الذهن، وأنه لا يغيب عن البال.

---

(١) الغرة: الطلعة.

(٢) كارب يومه: مقارب يومه الذي يموت فيه.

ومن أمثلة ذلك:

أسكان نعمان الأراك تيقنوا بأنكم في ربع قلبي سكان [١]
أعلى إن تك بالعراق نسيتني فأنا بمصر على هواك مقيم
أي بلادي في القلب مثواك مهما طال منفاي عن ثراك الحبيب

وقد ينزل القريب منزلة البعيد فينادي بغير الهمزة وأي إشارة إلى علو مرتبته، أو انحطاط منزلته، أو غفلته وشرود ذهنه.

فمن أمثلتة تنزيل القريب منزلة البعيد لعلو مرتبته وارتفاع شأنه:

يا من يرجى للشدائد كلها يا من إليه المشتكى والمفزع
يا رجاء العيون في كل أرض لم يكن غير أن أراك رجائي
أيا آخذًا من دهره حق نفسه ومثلك يعطى حقه ويهاب
يا ربة الحسن: هل لي فيك من أمل؟ إنى هجرت وكل الناس عاداني!

ومن أمثلة تنزيل القريب منزلة البعيد لانحطاط منزلته:

أولئك آبائي فجئني بمثلهم إذا جمعتنا يا جرير المجامع
أيا هذا أتطمع في المعالي وما يحظى بها إلا الرجال؟
وجهك يا عمرو فيه طول وفي وجوه الكلاب طول
يا أيها الرجل المدلس نفسه في جملة الكرماء والأدباء
بالبيت ينشد ربعه أو نصفه والخبز يرزأ عنده والماء [٢]

ومن أمثلة تنزيل القريب لغفلته وشرود ذهنه، قول أبي العتاهية:

أيا من عاش في الدنيا طويلًا وأفنى العمر في قيل وقال
وأتعب نفسه فيما سيفنى وجمع من حرام أو حلال
هب الدنيا تقاد إليك عفوا أليس مصير ذلك للزوال؟

وقوله أيضًا:

أيا من يؤمل طول الحياة وطول الحياة عليه خطر
إذا ما كبرت وبان الشباب فلا خير في العيش بعد الكبر

---

(١) نعمان الأراك: موضع في بلاد العرب، والربع: المنزل.

(٢) المدلس نفسه: المخفي عيوبها، ويرزأ: يصاب منه شيء قليل، والمعنى: إنه يغطي على عيوبه بإنشاد ربع بيت من الشعر أو نصفه، وبإعطاء شيء قليل من الخبز والماء.

وقد يخرج النداء عن معناه الأصلي من نداء القريب أو البعيد إلى معان أخرى تستفاد من سياق الكلام وقرائن الأحوال، كالإغراء والتحرس والزجر.

١- ومن النداء إلى الذي خرج عن معناه الأصلي إلى الإغراء قول أبي الطيب المتنبي مخاطبًا سيف الدولة:

يا أعدل الناس إلا في معاملتي ... فيك الخصام وأنت الخصم والحكم
أعيذها نظراتٍ منك صادقة ... أن تحسب الشحم فيمن شحمه ورم

وقول شاعر مصري معاصر:

يا بلادي اليوم فاستقبلي النور ... وعيشي طليقة يا بلادي
لم يعد فيك مأمل للألي كا ... نوا يعيشون عيشة الأوغاد
لم يعد فيك مأرب للألي كا ... نوا يظنون أننا كالجماد

وقوله أيضًا:

يا شباب البلاد أحييتموها ... وأبيتم على المدى أن تهونا
كل يوم لكم مواقف صدق ... تملأ الأرض روعة وفتونا
أرسلوها في قوة وإباء ... صيحة ترهب الألد الخئونا
علموه كيف اخترام الأماني ... أشعروه بأننا لن ندينا

٢- ومن النداء الذي خرج من معناه الأصلي إلى التحسر قول ابن الرومي:

يا شبابي! وأين مني شبابي؟ ... آذنتني حباله بانقضاب
لهف نفسي على نعيمي ولهوي ... تحت أفنانه اللدان الرطاب [١]

وقوله أيضًا:

يا أبا القاسم الذي كنت أرجوه ... لدهري: قطعت حبل الرجاء!

وقول عربية تتحسر على ابنها:

دعوتك يا بني فلم تجبني ... فردت دعوتي يأسًا عليا!

٣- ومن النداء الذي خرج عن معناه الأصلي إلى الزجر قول شاعر معاصر:

إلام يا قلب تستبقي مودتهم ... وقد أذاقوك ألوانًا من الوصب؟
تظل تسعى مدى الأيام تطلبهم ... والعمر يذهب بين السعي والطلب

(١) الانقضاب: الانقطاع، وأفنانه اللدان الرِّطاب: أغصانه اللينة المخضلة.

يا قلب حسبك ما قد ذقت من حرق   يا قلب حسبك ما قد نلت من تعب

وقوله أيضًا:

قل لهذا الغرب: يا غرب إلاما   تعشق الجور وتهوى الانقساما؟

كم بزيف القول أشقيت الورى   وبمحض الكيد آذيت السلاما!

قد هبطت الشرق داء معضلا   لم يفت شيخا ولم يرحم غلاما!

كـلـمـا طـفـت بـواد أمـن   طار عنه الأمن والخوف أقاما

٤- وقد يخرج النداء عن معناه الأصلي إلى معان أخرى غير هذه كأنه يوجه إلى: «أ» الاستغاثة نحو: يا أولي القوة للضعفاء، «ب» والتعجب، نحو: يا لجمال الربيع! «ج» الندبة نحو: واكبدي! ويا ولداه! «د» الاختصاص نحو: بعلمكم أيها الشباب يعتز الوطن وينهض.

* * *

المبحث الثاني
الجملة

أشرنا فيما سبق إلى علم المعاني بأنه العلم الذي يعرف به أحوال اللفظ العربي الذي يطابق مقتضى الحال. وهذا يعنى أنه العلم الذي يبحث في الأساليب والجمل العربية باعتبار إفادتها لمعان زائدة على أصل المعنى والوصول إلى مزيد من المعرفة بالمعاني الزائدة يستدعى النظر في الجملة من حيث أجزائها وأحوال هذه الأجزاء وقيودها، واقترانها بغيرها عن طريق الوصل أو الفصل، وذاك هو موضوع هذا البحث.

أجزاء الجملة

عرفنا من قبل أن لكل جملة خبرية كانت أو إنشائية ركنين هما:

أ- المسند: ويسمى المحكوم به أو المخبر به، والمسند قد يكون له متعلقات إذا كان فعلا أو ما في معناه من نحو المصدر واسم الفاعل واسم المفعول والصفة المشبهة واسم التفضيل والظرف.

ب- المسند إليه: ويسمى المحكوم عليه أو المخبر عنه والنسبة التي بين المسند إليه تسمى الإسناد.

ومواضع المسند هي:

١- **الفعل نحو:** «يأبى» من قوله: يأبى العربي الضيم.

٢- **اسم الفعل نحو:** شتان بمعنى: افترق، وأواه بمعنى: أتوجع، وبله بمعنى: دع أو اترك.

٣- **خبر المبتدأ نحو:** «عمل» من قولك: الحياة عمل.

٤- **المبتدأ المكتفى بمرفوعه نحو:** «قائم» من قولك: أقائم أنت بواجبك؟

٥- **ما أصله خبر المبتدأ:** ويشمل خبر كان وأخواتها نحو: «معتدلا» من قولك: صار الجو معتدلا، وخبر إن وأخواتها نحو: «فضيلة» من قولك: إن الصدق فضيلة، والمفعول الثاني للأفعال التي تنصب مفعولين أصلهما مبتدأ وخبر نحو: «نادرًا» من قولك: وجدت الوفاء نادرًا، والمفعول الثالث للأفعال التي تنصب ثلاثة مفاعيل نحو: «محققًا» من قولك: أعلمتُ المجتهد النجاحَ محققًا.

٦- المصدر النائب عن فعل الأمر نحو: «إحسانًا» من قوله تعالى: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [البقرة :٨٣] .

ومواضع المسند إليه هي:

١- فاعل الفعل التام وشبهه نحو: انتصر المدافعون عن أوطانهم .

«**فالمدافعون**» وهو الفاعل هنا قد أسند إليه الانتصار، ولهذا فهو المسند إليه . والشبيه بالفعل مشتقاته، كاسم الفاعل والصفة المشبهة من نحو: أنت الحسن خلقه، (فخلقه) وهو فاعل الصفة المشبهة قد أسند إليه الحسن، ولذلك فهو المسند إليه .

٢- نائب الفاعل،نحو: يُكرم الضيف، «**فالضيف**» وهو نائب الفاعل قد أسند إليه الكرم، فهو المسند إليه .

٣- المبتدأ الذي له خبر نحو: «**الحياة**» من قولك: الحياة كفاح .

٤- ومرفوع المبتدأ المكتفى به نحو: «**فضلك**» من قولك: ما مجحود فضلك .

٥- ما أصله مبتدأ: ويشمل اسم كان وأخواتها نحو: «**العامل**» من قولك: ظل العامل مشتغلاً، واسم إن وأخواتها نحو: «**الحق**» من قولك: لعل الحق يظهر، والمفعول الأول للأفعال التي تنصب مفعولين نحو: «**الصديق**» من قولك: حسبت الصديق مسافرًا، والمفعول الثاني للأفعال التي تنصب ثلاثة مفاعيل نحو: «**الإهمال**» من قولك: أنبأت المقصر الإهمال ضارًا، فالمسند والمسند إليه هما ركنا الجملة الأساسيان، وما زاد عليهما غير المضاف إليه وصلة الموصول فهو قيد. والقيود هي: أدوات الشرط، وأدوات النفي، وحروف الجر، والمفاعيل الخمسة: المفعول به، والمفعول المطلق، والمفعول فيه، والمفعول لأجله، والمفعول معه، والحال، والتمييز، والتوابع الأربعة: النعت، والعطف، والتوكيد، والبدل .

أحوال المسند والمسند إليه

والمسند والمسند إليه اللذان يمثلان جزأي الجملة أو ركنيها الأساسيين قد تلحقهما لأغراض بلاغية أحوال من الذكر والحذف، أو التقديم والتأخير، أو التعريف والتنكير، أو التقيد، أو القصر، أو الخروج عن مقتضى الظاهر في المسند إليه وفي غيره. وفيما يلي بيان أهم هذه الأحوال:

الحذف

أ- حذف المسند إليه:

المسند إليه أحد ركني الجملة، بل هو الركن الأعظم لأنه عبارة عن الذات، والمسند كالوصف له، والذات أقوى في الثبوت من الوصف. وإذا كانت الإفادة، تفتقر إلى كليهما فإن افتقارها وحاجتها إلى الدال منهما على الذات الثابتة أشد في الحاجة عند قصد الإفادة من الدال على الوصف العارض.

وحذف المسند إليه يتوقف على أمرين: أحدهما وجود ما يدل عليه عند حذف من قرينة، والأمر الآخر وجود المرجح للحذف على الذكر. أما الأمر الأول وهو وجود القرينة الدالة على المسند إليه عند حذفه فمرجعه إلى علم النحو، وأما الأمر الثاني وهو المرجح لحذفه على ذكره فمرده إلى البلاغة.

ومعنى ذلك أنه توجد مقتضيات ودواع بلاغية ترجح حذف المسند إليه على ذكره. والمسند إليه الذي يكثر حذفه هو: المبتدأ أو الفاعل، وفيما يلي أهم الدواعي التي ترجح حذف كليهما.

دواعي حذف المسند إليه إذا كان مبتدأ:

١- الاحتراز عن العبث: وذكر المسند إليه في الجملة ليس عبثًا في الحقيقة لأنه ركن للإسناد، ولكن المراد هنا «**بالاحتراز من العبث**» أن ما قامت عليه القرينة وظهر عند المخاطب يعد ذكره عبثًا من حيث إنه يقلل من قيمة العبارة بلاغيًا.

فإذا تقرر ذلك قلنا: إن المبتدأ يكثر حذفه لداعي الاحتراز عن العبث في المواضع التالية:

(أ) إذا وقع المبتدأ الذي هو المسند إليه في جواب الاستفهام، نحو قوله تعالى في شأن الهمزة[١] اللمزة: ﴿كَلَّا لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ ۝٤ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ ۝٥ نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ۝٦﴾ [الهمزة:٤-٦]، أي هي نار الله الملتهبة التهابًا شديدًا. وقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٦ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٨ فَأُمُّهُۥ

(١) الهمزة: كثير الهمز والعيب في غيره؛ اللمزة: الكثير الطعن في غيره خفية؛ لينبذن: والله ليطرحن.

هَاوِيَةٌ ۝ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ۝ نَارٌ حَامِيَةٌۢ﴾ [القارعة:٦-١١][(١)]، أي هي نار حامية. وقوله تعالى: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ۝ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ۝ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ۝﴾ [الواقعة:٢٧-٢٩][(٢)]، أي هم في سدر مخضود وطلح منضود.

(ب) وإذا وقع بعد الفاء المقترنة بجواب الشرط، نحو قوله تعالى: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ﴾ [فصلت:٤٦]، أي فعلمه لنفسه، وإساءته عليها، وقوله تعالى: ﴿وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ ۚ﴾ [البقرة:٢٢٠]، أي فهم إخوانكم وقوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ۗ﴾ [البقرة:٢٦٥]، أي فهو طل. ونحو قوله تعالى: ﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ﴾ [فصلت:٤٩]، أي فهو يئوس قنوط. ونحو قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَشْهِدُوا۟ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ ۖ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ﴾ [البقرة:٢٨٢]، أي فالشاهد رجل وامرأتان.

(ج) وإذا وقع المبتدأ بعد القول وما اشتق منه، نحو قوله تعالى: ﴿فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾ [الذاريات:٢٩][(٣)]، أي أنا عجوز عقيم وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الفرقان:٥] أي قالوا: القرآن أساطير الأولين. وقوله تعالى في أصحاب الكهف: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًۢا بِٱلْغَيْبِ ۖ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ۚ﴾ [الكهف:٢٢]، أي يقولون: هم ثلاثة، ويقولون: هم خمسة، ويقولون: هم سبعة.

(٢) ضيق المقام عن إطالة الكلام إما لتوجع وإما لخوف فوات فرصة فمن أمثلة حذف المبتدأ لضيق المقام للتوجع قول الشاعر:

قال لي: كيف أنت؟ قلت: عليل ... سهر دائم وحزن طويل

أي قلت: أنا عليل. وهذا يصلح مثالاً أيضًا للمبتدأ المحذوف بعد القول.

---

(١) أمه: المراد مرجعه الذي يأوي إليه كما يأوي الطفل إلى أمه، والهاوية: أصلها المكان المنخفض كثيرًا الذي لا يرجع من سقط فيه والكلام هنا من قبيل التهكم، وما هيه؟: أصلها: ما هي؟ والعرب تزيد هاء ساكنة على آخر الكلمة ويسمونها هاء السكت.

(٢) السدر: هو شجر ثمرة النبق، ولكنه ليس كذلك كما في الدنيا بل فاكهة تليق بالجنة، مخضود: مقطوع الشوك ولم يبق إلا الثمر، وطلح منضود: موز متراكب بعضه فوق بعض، والكلام هنا على سبيل التمثيل.

(٣) امرأته: امرأة إبراهيم عليه السلام وهي: «سارة»، في صرة: بفتح الصاد وتشديد الراء: أي في صوت مرتفع بقولها: يا ويلتا إلخ تعجبًا، وصكت وجهها بتشديد الكاف: ضربت وجهها بأطراف أصابعها.

ومن أمثلته أيضًا قول الشاعر:

لم تبكين؟ مَن فقدت؟ فقالت والأسى غالب عليها: حبيبي

أي قالت: الفقيد حبيبي.

ومن أمثلة حذف المبتدأ لضيق المقام من خوف فوات الفرص قولك عند رؤية نار تنبعث فجأة من منزل مجاور: حريق. تريد هذه حريق وكقولك عند رؤية شخص يعوم في البحر ثم يختفي في مائه ولا يظهر: غريق. تريد هذا غريق. وقول الصياد غزال. يريد: هذا غزال.

(٣) تيسير الإنكار عند الحاجة إلى الإنكار:

وتفصيل ذلك أنه قد تجد مواقف يصرح فيها المتكلم بذكر شيء ثم تدعوه اعتبارات خاصة إلى جحدها وإنكارها. مثال ذلك أن يُذكر شخص بعينه في معرض الحديث عن الكرم والكرماء، فيبدي فيه أحد الحضور رأيه قائلاً: بخيل شحيح. يريد: هو بخيل شحيح.

فحذف المبتدأ في هذا الموقف تقتضيه البلاغة؛ لأن في حذفه فرصة لصاحب الرأي أن ينكر نسبة هذا الرأي إلى نفسه. ولو أنه صرح بذكره فقال مثلاً: فلان بخيل شحيح، لأقام البينة على نفسه بهذا التصريح ولما استطاع الإنكار.

(٤) تعجيل المسرة بالمسند، كأن يلوح شخص بكأس فاز بها في مسابقة قائلاً: جائزتي. يريد هذه جائزتي. ونحو قول القائل: دينار. يريد: هذا دينار.

(٥) إنشاء المدح أو الذم أو الترحم، فالمسند إليه إذا كان مبتدأ يترجح حذفه إذا قصد به إنشاء المدح أو الذم أو الترحم وكان في الكلام قرينة تدل عليه. فمن أمثلة حذفه لإنشاء المدح قولنا: «**الحمد لله أهل الحمد**» برفع «**أهل**» أي هو أهل الحمد. ومنه قولهم، بعد أن يذكروا الممدوح، فتى من شأنه كذا وكذا، وأغر من صفته كيت وكيت، كقول الشاعر:

سأشكر عمرًا ما تراخت منيتي أيادي لم تمنن وإن هي جلت

فتى غير محجوب الغنى عن صديقه ولا مظهر الشكوى إذا النعل زلت

أي هو فتى... إلخ

ومن أمثلة حذف لإنشاء الذم «**أعوذ بالله من الشيطان الرجيم**» برفع الرجيم، أي هو الرجيم. ومنه قول الأقيشر في ذم ابن عم له موسر سأله فمنعه، فشكاه إلى القوم وذمه،

فوثب إليه ابن عمه ولطمه:

سريع إلى ابن العم يلطم وجهه   وليس إلى داعي الندى بسريع
حريص على الدنيا مضيع لدينه   وليس لما في بيته بمضيع

يريد: هو سريع إلى ابن العم، وهو حريص على الدنيا، وهو مضيع لدينه ومن أمثلته في الترحم: اللهم ارحم عبدك المسكين برفع المسكين، أي: هو المسكين.

دواعي حذف المسند إليه إذا كان فاعلًا:

والدواعي أو الأغراض التي تدعو المتكلم إلى حذف الفاعل كثيرة جدًّا، ولكنها على كثرتها لا تخلو من أن سببها إما أن يكون شيئًا لفظيًّا أو معنويًّا.

فمن الدواعي اللفظية لحذف الفاعل القصد إلى الإيجاز في العبارة نحو قوله تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ﴾ [النحل:١٢٦]، أي: بمثل ما عاقبكم المعتدي به، ولما كان في الكلام قرينة تدل على الفاعل، فقد اقتضت البلاغة حذفه مراعاة للإيجاز وإقامة المفعول مقامه.

ومنها المحافظة على السجع في الكلام المنثور نحو قولهم: من طابت سريرته حُمدت سيرته، إذ لو قيل: «**حمد الناس سيرته**» لاختلف إعراب الفاصلتين «**سريرته وسيرته**».

ومنها المحافظة على الوزن في الكلام المنظوم كما في قول الأعشى ميمون بن قيس:

عُلِّقتُها عرَضا وعُلِّقت رجلا   غيري وعلق أخرى غيرها الرجل[1]

فالأعشى هنا قد بنى الفعل «**علِّق**» ثلاث مرات للمجهول؛ لأنه لو ذكر الفاعل في كل مرة منها أو بعضها لما استقام وزن البيت. ومن الدواعي المعنوية لحذف الفاعل:

(١) كون الفاعل معلومًا للمخاطب حتى لا يحتاج إلى ذكره له نحو قوله تعالى: ﴿وَخُلِقَ الْإِنسَانُ ضَعِيفًا﴾ [النساء:٢٨]، أي: خلق الله الإنسان ضعيفًا.

(٢) كون الفاعل مجهولاً للمتكلم فلا يستطيع تعيينه للمخاطب، وليس في ذكره بوصف مفهوم من الفعل فائدة، وذلك كما تقول: «**سُرِقَ متَاعي**» لأنك لا تعرف ذات السارق في قولك: «**سرق السارق متاعي**» فائدة زائدة في الإفهام على قولك: «سُرِقَ

---

(١) التعلق: المحبة، وعرضا: أي من غير قصد مني،، ولكنها عرضت لي فأحببتها وهويتها.

متاعي» وقوله تعالى أيضًا: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ [الجمعة :١٠] ، أي: فإذا قضيتم الصلاة. . .

(٣) رغبة المتكلم في الإبهام على السامع، كقولك: «**تُصدق بألف دينار**».

(٤) ورغبة المتكلم في إظهار تعظيمه للفاعل: وذلك بصون اسمه عن أن يجري على لسانه، أو بصونه عن أن يقترن بالمفعول به في الذكر، كقولك: خلق الخنزير.

(٥) رغبة المتكلم في إظهار تحقير الفاعل: بصون لسانه عن أن يجري بذكره، كمن يقول في وصف شخص يرضى الهوان والذل: «**يُهان ويُذل فلا يغضب**».

(٦) خوف المتكلم من الفاعل أو خوفه عليه، كمن يقول: قتل فلان، فلا يذكر القاتل خوفًا منه أو خوفًا عليه.

(٧) عدم تحقق غرض معين في الكلام بذكر الفاعل، نحو قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [الأنفال :٢] فقد بنى الفعلان «ذكر وتلى» للمجهول لعدم تعلق الغرض بشخص الذاكر والتالي ونحو قول الفرزدق في مدح علي بن الحسين:

يغضى حياء ويغضى من مهابته فلا يكلم إلا حين يبتسم

فبنى الفعل «**يغضى**» الثاني للمجهول؛ لأن ذكر الفاعل هنا لا يحقق غرضًا معينًا في الكلام؛ لأن معرفة ذات المغضى لا تعني السامع ويحسن التنبيه هنا إلى حذف الفاعل في جميع الأمثلة السابقة هو حذف للمسند إليه الحقيقي، وإن كان المسند إليه في اللفظ وهو نائب الفاعل مذكورًا.

ب- حذف المسند:

وكما توجد دواع لحذف المسند إليه كذلك توجد دواع ترجح حذف المسند سواء أكان خبرًا أو فعلاً إذا دل عليه دليل وفيما يلي بيان لأهم هذه الدواعي.

دواعي حذف المسند الخبر:

(١) الاحتراز من العبث بعدم ذكر ما لا ضرورة لذكره، وهذا من شأنه أن يكسب الأسلوب قوة ويضفي عليه جمالاً. ويكثر حذف الخبر لهذا الداعي أو الغرض إذا جاءت الجملة التي يرد فيها الحذف جوابًا عن استفهام علم منه الخبر كأن يسألك سائل: من

شاعر العربية الأكبر؟ فتجيب «أبو الطيب المتنبي» تريد: أبو الطيب المتنبي شاعر العربية الأكبر. وكأن يُسأل آخر: من عندكم؟ فيجيب «ضيف» أي عندنا ضيف. وكأن يُسأل ثالث: ماذا في يدك؟ فيجيب «كتاب» يريد: في يدي كتاب.

كذلك يكثر حذف الخبر في الجملة الواقعة بعد «إذا» الفجائية على رأي من يعدها حرفًا للمفاجأة، وكان الخبر المحذوف يدل على معنى عام يفهم من سياق الكلام نحو: خرجت من البيت وإذا العواصف، وسرت في الطريق وإذا المطر! أي: إذا العواصف شديدة وإذا المطر نازل! فالخبر في هذين المثالين يدل على معنى عام هو الشدة في المثال الأول، والنزول في المثال الثاني، وكلاهما مفهوم من سياق الكلام ويكثر حذف الخبر أيضًا إذا كانت الجملة المحذوفة الخبر معطوف على جملة اسمية أو معطوفًا عليها جملة اسمية والمبتدآن مشتركان في الحكم نحو قوله تعالى: ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَاۚ﴾ [الرعد:٣٥]، أي: وظلها دائم. وقوله تعالى أيضًا: ﴿وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حِلّٞ لَّكُمۡ وَطَعَامُكُمۡ حِلّٞ لَّهُمۡۖ وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾ [المائدة:٥]، أي: والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب حل لكم ونحو قول الفرزدق:

وليس قولك من هذا بضائره ... العرب تعرف من أنكرت والعجم

يريد: والعجم تعرف من أنكرت أيضًا:

ونحو قول شاعر آخر:

نحن بما عندنا وأنت ... عندك راض والرأي مختلف

يريد: نحن بما عندنا راضون وأنت بما عندك راض. وقد حذف خبر الجملة الاسمية الأولى لأنه عطف عليها بجملة اسمية أخرى والمبتدآن مشتركان في الحكم.

وداعى الحذف هنا هو الاحتراز عن العبث والقصد إلى الإيجاز مع ضيق المقام، ودلاله خبر المبتدأ الثاني على خبر المبتدأ الأول هو الذي جعل حذفه سائغًا سهلاً.

دواعي حذف المسند الفعل

وأهم دواعي حذف المسند الفعل الاحتراز عن العبث بعدم ذكر ما لا ضرورة لذكره أيضًا. ويكثر ذلك في جواب الاستفهام، أي: إذا جاءت الجملة المحذوفة المسند جوابًا لسؤال محقق نحو قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ

﴿لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [لقمان :٢٥]، أي: ليقولون خلقهن الله.

كذلك إذا جاءت الجملة المحذوفة المسند جوابًا لسؤال مقدر نحو قول ضرار بن نهشل يرثي أخاه:

ليبك يزيد ضارع لخصومه ومختبط مما تطيح الطوائح (١)

وذلك ببناء «ليبك» للمجهول، وكأن سائلاً سأل: من يبكي يزيد؟ فأجيب: ضارع ومختبط، أي: ليبكه ضارع لخصومه، وليبكه مختبط...

ج- حذف المفعول به:

والمفعول به قد يحذف لدواع وأغراض بلاغية، شأنه في ذلك شأن المسند إليه والمسند. ومن أهم هذه الدواعي والأغراض:

(١) إفادة التعميم مع الاختصار نحو قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَى دَارِ السَّلَامِ﴾ [يونس :٢٥]، أي يدعو جميع عباده؛ لأن حذف المعمول يؤذن بالعموم. وهذا التعميم يمكن أن يستفاد من ذكر المفعول بصيغة العموم كقولنا يدعو جميع عباده، ولكن ذلك من شأنه أن يفوت مزية الاختصار أو الإيجاز.

(٢) تنزيل الفعل المتعدي منزلة الفعل اللازم، وذلك لعدم تعلق الغرض بذكر المفعول؛ لأن المراد في مثل هذه الحالة هو إفادة مجرد ثبوت الفعل للفاعل أو نفيه، نحو قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر :٩]؟، فالمعنى: هل يستوي من لهم علم ومن لا علم لهم؟ بغض النظر عن المعلوم أيا كان نوعه.

ونحو قول البحتري:

إذا أبعدت أبلت وإن قربت شفت فهجرانها يبلى ولقيانها يشفى

فهو لم يقل: «أبلتنى وشفتنى» لعدم تعلق غرض الشاعر بذكر المفعول، لأن ما يريد أن يعبر عنه هو: إبعادها بلاء وداء وتقريبها شفاء.

(٣) مجرد الاختصار أو الإيجاز: نحو قوله تعالى: ﴿رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف :١٤٣]، أى أرنى ذاتك ونحو: أصغيت إليه، أى أصغيت إليه أذنى.

---

(١) ضارع لخصومه: مستغيث من خصومه، والضارع: الضعيف من الرجال أيضًا، والمختبط: طالب الرفد، والذي يسألك ويطلب معروفك من غير سابق معرفة ولا قرابة، ومما تطيح الطوائح: أي مما تلحق به الخطوب، والطائح: المشرف على الهلاك.

(٤) تحقيق البيان بعد الإبهام، وذلك لتقرير المعنى في النفس.

ويكثر ذلك في فعل المشيئة أو الإرادة أو نحوهما إذا وقع فعل شرط فإن الجواب يدل عليه ويبينه، نحو قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟﴾ [البقرة:٢٥٣] أي لو شاء الله ألا يقتتلوا أو عدم اقتتالهم ما اقتتلوا. فإنه لما قيل: «ولو شاء» علم السامع أن هناك شيئًا تعلقت المشيئة الإلهية به لكنه خفى مبهم، فلما جئ بجواب الشرط صار بينًا واضحًا يقع في النفس ومثله قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [النحل:٩] أي: لو شاء هدايتكم لهداكم أجمعين. قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا﴾ [السجدة:١٣] أي: ولو شئنا هداية النفوس لآتينا كل نفس هداها وكذلك يكثر حذفه بعد نفى العلم ونحوه، كقوله تعالى: ﴿وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: لا يعلمون أن وعد الله حق وكقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:١٣] أي: لايعلمون أنهم سفهاء. وقوله تعالى أيضًا: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾ [الواقعة:٨٥] أي: لاتبصرون أننا أقرب إليكم.

ويكثر حذف المفعول به أيضًا في الفواصل نحو ﴿قَلَىٰ﴾ من قوله تعالى: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾ [الضحى:١-٣]، نحو ﴿يَخْشَىٰ﴾ من قوله تعالى أيضًا: ﴿طه ۝١ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ۝٢ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ﴾ [طه:١-٣] ونحو ﴿أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ﴾ من قوله تعالى كذلك: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ﴾ [الليل:٥-٧]، ونحو: ﴿يَضُرُّونَ﴾ من قوله جل شأنه: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ۝٦٩ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ۝٧٠ قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ۝٧١ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ۝٧٢ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ﴾ [الشعراء:٦٩-٧٣]؟

فحذف المفعول في هذه الأمثلة وما أشبهها هو للمحافظة على وحدة الحرف الأخير من الفواصل والذى ينزل في النثر المسجوع منزلة حرف الروى في الكلام المنظوم.

الذكر

(أ) ذكر المسند إليه:

الأصل في المسند إليه أن يذكر في الكلام، ولا ينبغى العدول عنه إلا إذا كان هناك قرينه في الكلام ترجح الحذف والاحتراز عن العبث. وأهم الدواعى والأغراض التى

ترجح ذكر المسند إليه على حذفه هى:

(١) ضعف التعويل والاعتماد على القرينة: أي يكون ذكر المسند إليه للاحتياط لأن فهم السامع من اللفظ أقرب من فهمه من القرينة، إما لخفائها أو لعدم الوثوق بنباهة السامع. فإذا استدعى أستاذ أحد طلابه وكلمه في شأن ما، ثم سأله أحد زملائه: ماذا قال لك أستاذنا؟ فمثل هذا السؤال يمكن الجواب عليه بحذف المسند إليه مرة فيقال: قال لي: كذا وكذا ويمكن الجواب عليه بذكره مرة أخرى فيقال: أستاذنا قال كذا وكذا ولاشك أن ذكر المسند إليه في هذا المقام أبلغ لضعف التعويل على قرينة السؤال في حالة الحذف، لأن بعض السامعين مثلا يجوز عليه الغفلة عن السماع للقرينة، كما يجوز عليه عدم التنبه للفهم منها، ولو كان الفهم منها واضحا في نفسه.

(٢) القصد إلى زيادة التقرير والإيضاح: نحو قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة:٥] ففى تكرير اسم الإشارة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ زيادة تقرير وإيضاح لتميزهم بالشرف على غيرهم، فكما ثبت لهم أن تميزوا باستئثارهم بالهدى في الدنيا ثبت لهم أيضًا أن تميزوا باستئثارهم بالفلاح في الآخرة ونحو قول القائل: «**الوطنية الحقة أن تخلص لوطنك إخلاصك لنفسك، والوطنية الحقة أن تبذل قصارى جهدك فيما تعمل له، والوطنية الحقة أن تلبى نداءه عن رضا في كل ما يدعوك إليه. ذاك لأن عزتك من عزته، وشرفك من شرفه وسلامتك من سلامته**». فتكرار ذكر المسند إليه هنا «**الوطنية**» هو لزيادة التقرير والإيضاح.

(٣) بسط الكلام والإطناب فيه بذكر المسند إليه ولو دل عليه دليل، وذلك حيث يكون الإصغاء فيه من السامع مطلوبا للمتكلم لجلال قدره أو قربه من قلبه ومن أجل ذلك يطال الكلام مع الأحباء وذوى القدر وأولى العلم تلذذا بسماعهم وتشرفا بخطابهم وانتفاعا بكلامهم. ومن ذلك قوله تعالى حكاية عن موسى عليه السلام: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ۝١٧ قَالَ هِيَ عَصَايَ﴾ [طه:١٧-١٨]، وكان يكفيه في غير هذا المقام أن يقول في الجواب «عصا»، لكنه ذكر المسند إليه «هي» لبسط الكلام رغبة منه في أن يطيل الحديث في مناجاته لربه ليزداد بذلك شرفا وفضلا. ولذلك زاد على الجواب بقوله: ﴿أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ﴾ [طه:١٨]. وإنما أجمل المآرب لأن تفصيلها يطول، وقد يفضى الطول إلى الخروج عن مقتضيات الفصاحة والبلاغة.

(٤) إظهار تعظيم المسند إليه بذكر اسمه نحو قولك: الله ربى ومحمد نبيى والإسلام دينى في جواب من سألك: من ربك؟ ومن نبيك وما دينك؟

(٥) إظهار تحقيره وإهانته: وذلك لما يحمله اسمه ويدل عليه من معنى الحقارة، كقولك: إبليس اللعين هو الذى أخرج آدم من الجنة في جواب من سألك: من أخرج آدم من الجنة؟

(٦) التبرك والتيمن باسمه: كقولك: محمد رسول الله خير الخلق ونحو: القرآن خير ما يحمله المسلم دائما. في جواب من سأل: ما خير ما يحمله المسلم دائما؟

(٧) الاستلذاذ بذكره. وذلك في كل ما يهواه المرء ويتوق إليه ويعتز به، نحو قول الشاعر بشارة الخورى:

الهوى والشباب والأمل المنشـ ـود توحى فتبعث الشعر حيا

وقول عباس محمود العقاد:

الحب أن نصعد فوق الذرى والحب أن نهبط تحت الثرى
والحب أن نؤثر لذاتنا وأن نرى آلامنا آثرا

(ب) ذكر المسند:

المسند كالمسند إليه الأصل فيه الذكر، ولهذا لا يعدل عنه إلا لقرينة في الكلام تبرر حذفه. ومن الأغراض التى ترجح ذكر المسند:

(١) الاحتياط لضعف القرينة وعدم التعويل عليها، كقول: «عنتر أشجع وحاتم أجود»، في جواب من قال: من أشجع العرب في الجاهلية وأكرمهم؟ فلو حذف المسند «أجود» لفهم أن حاتما يشارك عنترة في الحكم السابق وهو الشجاعة. ولهذا تعين التصريح بالمسند «أجود» من قبيل الاحتياط لاحتمال الغفلة عن العلم به من السؤال.

ومن أمثلة هذا النوع أيضًا: عقل في السماء وحظ مع الجوزاء. فلو حذف المسند «مع الجوزاء» لما دل عليه مسند الجملة الأخرى السابقة وهو: «فى السماء» دلالة قاطعة إذ يحتمل أن يكون الحظ عاثرا كما هو شأن الكثيرين من أرباب المواهب والعقول.

(٢) التعريض بغباوة السامع: وذلك مثل قولنا: «سيدنا محمد نبينا» في جواب من قال: من نبيكم؟ تعريضا بالسامع وأنه لو كان ذكيا لم يسأل عن «نبينا» وهو المسند هنا، لأنه أظهر من أن يتوهم خفاؤه. ومن أجل ذلك يجاب بذكر أجزاء الجملة إعلاما بأن مثل

هذا السائل غبى لا يكفى معه إلا التنصيص، لعدم فهمه بالقرائن الواضحة.

(٣) ومن التعريض بغباوة السامع أيضًا ذكر المسند «فعله» في قوله تعالى: ﴿ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۝ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٢-٦٣]. فالمسند «فعله» قد اقتضى المقام ذكره تعريضا بغباوة السائلين وبأن الدافع على تكسير الأصنام هو غيظ إبراهيم من كبيرهم هذا الذى يخصونه بتعظيم أكثر.

(٤) إفادة أن المسند فعل أو اسم: فإن كان فعلا فهو يدل بأصل وضعه على التجدد والحدوث مقيدا بأحد الأزمنة الثلاثة بطريق الاختصار. وإن كان اسما فهو يفيد بأصل وضعه كذلك الثبوت من غير دلالة على الزمان مثال ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾ [النساء: ١٤٢][1]، فإن قوله﴿يُخَٰدِعُونَ﴾: يفيد تجدد الخداع منهم مرة بعد أخرى مقيدا بالزمان من غير افتقار إلى قرينة تدل عليه كذكر «الآن» و «الغد» وقوله: ﴿وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾ يفيد الثبوت من غير دلالة على الزمان.

التقديم والتأخير

من المسلّم به أن الكلام يتألف من كلمات أو أجزاء، وليس من الممكن النطق بأجزاء أي كلام دفعة واحدة من أجل ذلك كان لا بد عند النطق بالكلام من تقديم بعضه وتأخير بعضه الآخر. وليس شيء من أجزاء الكلام في حد ذاته أولى بالتقديم من الآخر، لأن جميع الألفاظ من حيث هى ألفاظ تشترك في درجة الاعتبار هذا بعد مراعاة ما تجب له الصدارة كألفاظ الشرط والاستفهام.

على هذا فتقديم جزء من الكلام أو تأخيره لا يرد اعتباطًا في نظم الكلام وتأليفه وإنما يكون عملا مقصودًا يقتضيه غرض بلاغى أو داع من دواعيها.

وقبل الشروع في بيان هذه الدواعى وتفصيلها ينبغى التنبيه إلى أن ما يدعو بلاغيا إلى تقديم جزء من الكلام هو هو ذاته ما يدعو بلاغيا إلى تأخير الجزء الآخر وإذا كان الأمر كذلك فإنه لايكون هناك مبرر لاختصاص كل من المسند إليه والمسند بدواع خاصة عند تقديم أحدهما أو تأخيره عن الآخر، لأنه إذا تقدم أحد ركنى الجملة تأخر الآخر، فهما متلازمان.

---

(١) يخادعون الله: أي يفعلون معه سبحانه فعل المخادع حيث يظهرون أمارات الإيمان ويخفون الكفر وهو خادعهم: والله سبحانه يفعل معهم ذلك أيضًا فيملي لهم في خداعهم ويحفظ دماءهم وأموالهم في الدنيا، ويعد لهم في الآخرة الدرك الأسفل من النار.

والآن . . . وعلى ضوء هذه المقدمة نذكر أن أهم الدواعى والأغراض البلاغية التى توجب التقديم والتأخير في الكلام هى :

(١) التشويق إلى المتأخر إذا كان المتقدم مشعرا بغرابة . نحو قول الشاعر :

ثلاثة تشرق الدنيا ببهجتها شمس الضحا وأبو إسحاق والقمر

فهنا قدم المسند إليه وهو «**ثلاثة**» واتصف بصفة غريبة تشوق النفس إلى الخبر المتأخر، وهى «**تشرق الدنيا ببهجتها**» . فإشراق الدنيا أمر يشوق النفس إلى أن تعرف هذه الأشياء الثلاثة التى جعلت الدنيا بحسنها تتألق وتضيء . فإذا عرفت النفس ذلك تمكن الخبر المتأخر فيها واستقر .

ومثله قول أبى العلاء المعرى :

والذى حارت البرية فيه حيوان مستحدث من جماد

فالمسند إليه قد تقدم أيضًا هنا واتصل به ما يدعو إلى العجب ويشعر بالغرابة وهو «**حارت البرية فيه**» وهذا أمر يشوق النفس ويثير فضولها إلى معرفة الخبر المتأخر .

(٢) تعجيل المسرة أو المساءة للتفاؤل أو التطير :

فالتعجيل بالمسرة نحو : الجائزة الأولى في المسابقة كانت من نصيبك . ونحو : براءة المتهم حكم بها القاضى، والإفراج عنه تم اليوم .

والتعجيل بالمساءة نحو : الفشل أصيب به العدو، والخسائر في جيشه كبيرة ونيران الأسلحة المختلفة تطارد فلوله في كل مكان .

(٣) كون المتقدم محط الإنكار والتعجب : نحو قوله تعالى : ﴿أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ﴾ [مريم :٤٦] فإنما قدم خبر المبتدأ عليه في قوله : ﴿أَرَاغِبٌ أَنتَ﴾ ولم يقل : «**أأنت راغب**» وذلك لأهمية المتقدم وشدة العناية به، وفى ذلك ضرب من التعجب والإنكار لرغبة إبراهيم عن آلهته، إن آلهته لا ينبغى وأن يرغب عنها هذا بخلاف ما لو قال : «**أأنت راغب عن آلهتي؟**»

ومن أمثلته شعرا قول أبى فراس الحمدانى :

أمثلى تقبل الأقوال فيه؟ ومثلك يستمر عليه كذب؟

وقول شاعر آخر :

أمنك اغتياب لمن في غيابـ ـك يثنى عليك ثناء جميلا؟

(٤) النص على عموم السلب أو سلب العموم:

فالنص على عموم السلب يعنى شمول النفى لكل فرد من أفراد المسند إليه ويكون عادة بتقديم أداة من أدوات العموم على أداة نفى نحو: كل قوى لا يهزم. ففى هذا المثال أداة عموم هى «كل» مقدمة على أداة نفى هى «لا» والكلام هنا يفيد شمول السلب أو النفى لكل فرد من الأفراد المسند إليه المتقدم، إذ المعنى: «**لا يهزم أحد أو أى فرد من الأقوياء**»، والسبب في إفادة الكلام شمول النفى هنا أن أداة العموم بهذا الوضع تكون المتسلطة على النفى، العاملة فيه بكليتها، وذلك يقتضى عموم النفى وشموله ومن أمثلة ذلك أيضًا: من يظلم الناس لا يفلح.

والنص على سلب العموم يكون عادة بتأخير أداة العموم عن أداة النفى. والنفى في سلب العموم - أو نفى الشمول - ليس عاما شاملا لكل الأفراد، بل يفيد ثبوت الحكم لبعض الأفراد ونفيه عن البعض الآخر، كقول المتنبى:

ما كل ما يتمنى المرء يدركه تأتى الرياح بما لا تشتهى السفن

فالمعنى هنا: أن الإنسان لايدرك كل أمانيه، إنما هو يدرك بعضها ويفوته بعضها الآخر.

ومن أمثلته أيضًا قول أبى فراس الحمدانى:

ما كل ما فوق البسيطة كافيا فإذا قنعت فكل شيء كاف

وقول عمارة اليمنى:

ما كل قولى مشروحا لكم فخذوا ما تعرفون وما لم تعرفوا فدعوا

(٥) تقوية الحكم وتقريره: وذلك كقولك عن شخص كريم: «**وهو يعطى الجزيل**»، فأنت لا تريد أن غيره لا يعطى الجزيل، ولا أن تعرض بإنسان آخر يعطى القليل، ولكن تريد أن تقرر في ذهن السامع وتحقق أنه يفعل إعطاء الجزيل. فتقديم المسند إليه «هو» وتكريره في الضمير المستتر في «يعطى» أدى إلى تقوية الحكم وتقريره.

وسبب التقوي على ما ذكره عبد القاهر الجرجانى هو أن الاسم لا يؤتى به مجردا من العوامل إلا لحديث قد نوى إسناده إليه فإذا قلت: «**عبد الله**» فقد أشعرت السامع بذلك أنك تريد الحديث عنه، فهذا توطئة له وتقدمة للإعلام به، فإذا جئت بالحديث

فقلت: «قام» مثلا دخل على القلب دخول المأنوس به، وذلك لا محالة أشد لثبوته وأنفى للشبهة وأمنع للشك. وجملة الأمر أنه ليس إعلامك بالشيء بغتة مثل الإعلام به بعد التنبيه عليه، لأن ذلك يجرى مجرى تكرير الإعلام في التأكيد والأحكام. وعلى ضوء ذلك يتضح الفرق من حيث تقوية الحكم وتقريره بين «**هو يعطى الجزيل**» و «**يعطى وهو الجزيل**».

ومن هذا القبيل قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ﴾ [المؤمنون:٥٩] فهذا ابلغ في تأكيد نفى الإشراك مما لو قيل: والذين بربهم لا يشركون أو لا يشركون بربهم.

ومنه كذلك قول أبى فراس الحمدانى مخاطبا سيف الدولة:

ألست وإياك من أسرة   وبينى وبينك قرب النسب؟

فالبيت يشمل على جملتين تقدم المسند إليه في الأولى وتأخر في الثانية، وليس من سبب لذلك في الحالين إلا تقرير الحكم الذى تضمنته كلتا الجملتين وتقويته.

(٦) التخصيص: وهذا يعنى أن المسند إليه قد يقدم ليفيد تخصيصه بالخبر الفعلى بشرط أن يكون مسبوقًا بحرف نفى نحو: ما أنا قلت هذا، أى: لم أقله ولكنه مقول غيرى. فأنت في هذا المثال تنفى وقوع المقول منك، ولكنك لا تنفى وقوعه من غيرك، ولهذا لا يصح: ما أنا قلت هذا ولا غيرى فتقديم المسند إليه «**أنا**» أفاد نفى الفعل عنك وثبوته لغيرك.

ومن ذلك قول الشاعر:

وما أنا اسقمت جسمى به   ولا أنا أضرمت في القلب نارا

فسقم الجسم بالحب وإضرام النار في القلب كلاهما ثابت موجود، ولكن قصرهما وتخصيصهما بالمسند إليه المتقدم «**أنا**» قصد به نفى كون المتكلم هو السبب في سقم جسمه وإضرام النار في قلبه، وإثبات السبب لغيره كالحبيب مثلا.

وكما يتقدم المسند إليه لقصره على المسند الفعل لا يتجاوزه إلى غيره وإن كان الفعل يتعداه إلى غيره، كذلك قد يتقدم المسند ويتأخر المسند إليه، بقصد قصره عليه، نحو قوله تعالى: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [المائدة:١٢٠]، فملك السموات والأرض مختص بكونه لله، أى مقصور عليه ومنحصر فيه.

ومن هذا القبيل قوله تعالى في خمر أهل الجنة: ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ﴾ [الصافات:٤٧]، فالغول

مقصور على اتصافه بعدم حصوله في خمر الجنة ولكنه يوجد في خمور الدنيا. فتقدم المسند «فيها» يقتضى تفضيل المنفى عنه وهو خمر الجنة على غيرها من خمور الدنيا، أى ليس فيها ما في غيرها من الغول الذى يغتال العقول ويسبب دوار الرأس وثقل الأعضاء.

(٧) التنبيه على أن المتقدم خبر لا نعت: وذلك خاص بتقديم الخبر المسند على المبتدأ المسند إليه، نحو قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [البقرة:٣٦] فالشاهد هنا هو في قوله: «ولكم مستقر» فلو قال: «ومستقر لكم» لتوهم ابتداء أن «لكم» نعت وأن خبر المبتدأ سيذكر فيما بعد، وذلك لأن حاجة النكرة إلى النعت أشد من حاجتها إلى الخبر. ولذلك تعين تقديم المسند للتنبيه على أنه خبر لا نعت.

ومن أمثلته شعرا قول المتنبى:

و«فيك» إذا جنى الجانى «أناة» تظن كرامة وهى احتقار

وقول حسان بن ثابت في مدح الرسول عليه السلام:

«له همم» لا منتهى لكبارها وهمته الصغرى أجل من الدهر
«له راحة» لو أن معشار جودها على البر كان البر أندى من البحر

تلك أهم الأغراض والدواعى البلاغية التى تقتضى التقديم والتأخير أحيانا بين المسند إليه.

ولكن بالإضافة إلى ذلك هناك نوع آخر من التقديم يكون مقصورا على تقديم متعلقات الفعل عليه، من مثل المفعول، والجار والمجرور، والحال، والاستثناء وما أشبه ذلك فالأصل في العامل أن يقدم على المعمول، فإذا عكس الأمر فقدم المعمول على العامل فإنما يكون لغرض بلاغى يقتضيه، وفى هذه الحالة يكون التقديم أبلغ من التأخير. وفيما يلى شيء من البيان لذلك.

تقديم متعلقات الفعل عليه:

(١) فمن تقديم المفعول على الفعل قولك: «محمد أكرمت» والأصل «أكرمت محمدا»، فإن في قولك بالتقديم «محمد أكرمت» تخصيصا لمحمد بالكرم دون غيره، وذلك بخلاف قولك «أكرمت محمدا» لأنك إذا قدمت بالفعل كنت بالخيار في إيقاع الكرم على أى مفعول شئت، بأن تقول: أكرمت خالدا أو عليا أو غيرهما. فتقديم

المفعول على الفعل هنا قصد به اختصاصه به، أى اختصاص محمد دون غيره بالإكرام.

(٢) ومن تقديم الجار والمجرور على الفعل قوله تعالى: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ [البقرة:٢١٠] فإن تقديم الجار والمجرور دل على أن مرجع الأمور ليس إلا لله وحده على حين لو وردت الآية من غير تقديم وقيل: «ترجع الأمور إلى الله» لاحتمل إيقاع مرجع الأمور إلى غير الله وهذا محال.

(٣) ومن تقديم الحال على الفعل كقولك: «مبكرا خرجت إلى عملى» فإن فيه تخصيصا لحالة التبكير بالخروج دون غيرها من الحالات، وذلك بخلاف قولك: «خرجت إلى عملى مبكرا» لأنك في تقديمك الفعل تكون بالخيار في إيقاعه مقيدا بأى حالة شئت، بأن تقول: خرجت إلى عملى متأخرا مسرعا أو مسرورا أو غير ذلك. وكذلك يجرى الأمر في بقية متعلقات الفعل.

وعلماء البلاغة ومنهم الزمخشرى يرون تقديم متعلقات الفعل عليه على النحو السابق إنما هو للاختصاص.

ولكن ابن الأثير يرى أن تقديم متعلقات الفعل عليه يكون لواحد من غرضين: أحدهما الاختصاص والآخر مراعاة نظم الكلام، وذاك أن يكون نظمه لا يحسن إلا بالتقديم وإذا أخر المقدم زال ذلك الحسن، وهذا الوجه عنده أبلغ وأوكد من الاختصاص.

فمن الأول عنده - وهو التقديم الذى يكون الغرض البلاغى منه «**الاختصاص**» - قوله تعالى: ﴿بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الزمر:٦٦] فإنه إنما قيل: «**بل الله فاعبد**» ولم يقل: «**بل اعبد الله**» لأن المفعول وهو لفظ الجلالة «**الله**» إذا تقدم وجب اختصاص العبادة به دون غيره. ولو قال «**بل اعبد**» لجاز وقوع فعل العبادة على أى مفعول شاء.

ومن الثانى وهو التقديم الذى يكون الغرض البلاغى منه مراعاة نظم الكلام قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة:٥] ويرى الزمخشرى أن التقديم في هذا الموضوع قصد به الاختصاص، ولكن ابن الاثير يرى أن المفعول لم يقدم على الفعل للاختصاص وإنما قدم لمكان نظم الكلام، لأنه لو قال: «**نعبدك ونستعينك**» لم يكن له ما لقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة:٥] ألا ترى أنه تقدم قوله تعالى:

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة:٢-٤] فجاء بعد ذلك قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ وذلك لمراعاة حسن النظم السجعي الذي هو على حرف النون، ولو قال: «**نعبدك ونستعينك**» لذهبت تلك الطلاوة وزال ذلك الحسن، وهذا غير خاف على أحد من الناس فضلا عن أرباب علم البيان.

ومما ورد فيه التقديم مراعاة لنظم الكلام أيضًا قوله تعالى: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ﴾ [الحاقة:٣٠-٣١] فإن تقديم الجحيم على التصلية وإن كان فيه تقديم المفعول على الفعل إلا أنه لم يكن ههنا للاختصاص، وإنما هو للفضيلة السجعية ولا مراء في أن النظم على هذه الصور أحسن مما لو قيل: «**خذوه فغلوه ثم صلوه الجحيم**».

ولهذا النوع من التقديم نظائر كثيرة في القرآن منها قوله تعالى: ﴿وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ﴾ (١) [يس:٣٩] فتقديم المفعول «**القمر**» على الفعل هنا ليس من باب الاختصاص، إنما هو من باب مراعاة نظم الكلام، ولو أنه قال: «**وقدرنا القمر منازل**» لما كان بتلك الصورة في الحسن، ومنه كذلك قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ [الضحى:٩-١٠] فالغرض البلاغى من وراء تقديم المفعول على الفعلين في الآيتين هو مراعاة حسن النظم السجعى.

وهناك نوع آخر من التقديم لا يرجع إلى تقديم أحد ركنى الإسناد على الآخر، ولا إلى تقديم أحد متعلقات الفعل عليه، وإنما هو مختص بدرجة التقديم في الذكر لاختصاصه بما يوجب له ذلك. وهذا النوع من التقديم مما لا يحصره حد ولا ينتهى إليه، وهو يتمثل في صور شتى منها:

(١) تقديم السبب على المسبب: ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة:٥] فهنا قدمت العبادة على الاستعانة لأن تقديم القربة والوسيلة قبل طلب الحاجة لحصول الطلب، أسرع لوقوع الإجابة ولو قال: «**إياك نستعين وإياك نعبد**» لكان جائزا، إلا أنه لا يسد ذلك المسد، ولايقع ذلك الموقع، وعلى نحو منه قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ۝ لِّنُحْـِۧىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا﴾ [الفرقان:٤٨-٤٩] . فقدم الأرض وإسقاء الأنعام على إسقاء الناس وإن كانوا

(١) العرجون بضم العين: العود الغليظ المتصل وفي آخره عناقيد البلح فإذا قطع منه شماريخ البلح يبقى منه جزء على النخلة أعوج يابسًا وهذا هو حال القمر في أول الشهر وآخره .

أشرف محلا، لأن حياة الأرض هى سبب لحياة الأنعام من أسباب التعيش والحياة للناس قدمها في الذكر على الناس، لأن حياة الناس بحياة أرضهم وأنعامهم، فقدم سقى ما هو سبب نمائهم ومعاشهم على سقيهم.

(٢) تقديم الأكثر على الأقل: كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ﴾ [فاطر :٣٢] .

وإنما قدم الظالم لنفسه للإيذان بكثرته وأن معظم الخلق عليه، ثم أتى بعده بالمقتصدين، لأنهم قليل بالإضافة إليه، ثم أتى بالسابقين وهم أقل من القليل، أعنى من المقتصدين، وهكذا قدم الأكثر وبعده الأوسط ثم ذكر الأقل آخرا، ولو عكست القضية لكان المعنى أيضًا واقعا في موقعه، لأنه يكون قد روعى فيه تقديم الأفضل فالأفضل.

وضابط هذا النوع هو أنه إذا كان الشيئان كل واحد منهما مختص بصفة فأنت بالخيار في تقديم أيهما شئت في الذكر كهذه الآية، فإن السابق بالخيرات مختص بصفة الفضل، والظالم لنفسه مختص بصفة الكثرة. فعلى هذا يقاس ما يأتى من الأشباه والنظائر.

ومن هذا الجنس قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ ۖ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ ۚ﴾ [النور: ٤٥]، فإنه إنما الماشي على بطن لأنه أدل على القدرة من الماشي على رجلين إذ هو ماشى بغير الآلة المخلوقة للمشى، ثم ذكر الماشى على رجلين وقدمه على الماشى على أربع، لأنه أدل على القدرة أيضًا حيث كثرت آلات المشى في الأربع. وهذا من باب تقديم الأعجب فالأعجب (١).

القصر

القصر لغة: الحبس والإلزام، تقول: قصرت نفسى على الشيء إذا حبستها وألزمتها إياه، كما تقول: قصرت الشيء على كذا إذا لم تجاوز به غيره. ومن القصر بمعنى الحبس قوله تعالى: ﴿حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ﴾ [الرحمن :٧٢] ، أى قصرن وحبسن على أزواجهن فلا يطمحن لغيرهم. والقصر في اصطلاح علماء المعانى: تخصيص شيء بشيء أو تخصيص أمر بآخر بطريق مخصوصة.

لأسلوب القصر طرفان وله طرقه المختلفة التى يؤدى بها، كما له بأقسامه باعتبار

---

(١) انظر المثل السائر لابن الأثير ص ١٨٠-١٨٦ .

الحقيقة والإضافة، وباعتبار حال المخاطب، وباعتبار الطرفين ولبيان كل ذلك نورد الأمثلة التالية فعلى ضوء شرحها ومناقشتها تتجلى لنا كل الحقائق المتصلة بأسلوب القصر وقيمته البلاغية:

الأمثلة:

(١) قال تعالى: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ .

(٢) إنما العرب أوفياء.

(٣) صداقة الجاهل تعب لا راحة.

(٤) لا أجيد الخطابة لكن الشعر.

(٥) ما وضعُ الإحسان في غير موضعه عدلاً بل ظلم.

(٦) وحياته أعطى الشهيد لقومه ... أترى أجلَّ من الحياة عطاء؟

(٧) نائم أنت على صدر الصخور ... ولقد كنت على الزهر تنام

(٨) إلى الله أشكو أن في النفس حاجة ... تمر بها الأيام وهي كما هيا

فإذا تأملنا هذه الأمثلة رأينا أن كل مثال منها يفيد تخصيص أمر بآخر.

فالمثال الأول: يفيد تخصيص علم الغيب بالله، وعلى هذا فعلم الغيب خاص بالله لا يتعداه إلى سواه.

والمثال الثاني: يفيد تخصيص العرب بالوفاء، بمعنى أن العرب مقصورون على الوفاء لا يفارقونه إلى غيره من الصفات.

والمثال الثالث: يفيد تخصيص صداقة الجاهل بالتعب، بمعنى أن صداقة الجاهل وقف على التعب لا تجاوزه إلى الراحة.

والمثال الرابع: يفيد تخصيص صفة الإيجادة بالشعر فالإيجادة خاصة بالشعر لا تتجاوزه إلى الخطابة أو غيرها.

والمثال الخامس: يفيد تخصيص وضع الإحسان في غير موضعه بالظلم، فموضع الإحسان في غير موضعه مقصور على الظلم لا يتعداه إلى سواه.

والمثال السادس: يفيد تخصيص إعطاء الشهيد بحياته، فإعطاء الشهيد خاص بحياته لا يجاوزها إلى غيرها.

والمثال السابع: يفيد تخصيص المخاطب بالنوم على صدر الصخور فالمخاطب خاص بالنوع على صدر الصخور لايتعداه إلى أى صفة أخرى.

والمثال الثامن: والأخير يفيد تخصيص الشكوى بالله فالشكوى مقصورة على الله لا تتجاوزه إلى سواه.

وإذا شئنا معرفة سبب هذا التخصيص في الأمثلة السابقة فإن الأمر يستأدينا ويتطلب منا أن نعود إلى الأمثلة مرة أخرى بحثا عن السبب.

فإذا حذفنا من المثال الأول أداة النفى والاستثناء «**لا وإلا**» وجدنا أن التخصيص قد زال منه، وكأنه لم يكن. إذن النفى والاستفهام هما وسيلة التخصيص فيه.

وإذا حذفنا من المثال الثاني «**إنما**» وجدنا أن التخصيص قد زال منه، وعلى هذا فوسيلة التخصيص فيه هى لفظة «**إنما**» وإذا حذفنا من المثال الثالث أداة العطف «**لا**» وجدنا أن التخصيص قد فارقه، وهذا يعنى أن أداة العطف «**لا**» هى وسيلة التخصيص فيه.

وإذا حذفنا من المثال الرابع أداة العطف «**لكن**» ومن المثال الخامس أداة العطف «**بل**» فإننا نجد أن التخصيص في كلا المثالين قد زال. إذن أداة العطف «**لكن**» هى وسيلة التخصيص في المثال الرابع، وأداة العطف «**بل**» هى وسيلة التخصيص في المثال الخامس.

وفى المثال السادس نلاحظ أن المفعول به مقدم على فعله فإذا قدمنا الفعل عليه وقلنا: «**وأعطى الشهيد حياته لقومه**» وجدنا أن التخصيص في هذا المثال قد زال إذن تقديم المفعول على فعله أو تقديم ما حقه التأخير هو وسيلة التخصيص فيه.

وفى المثال السابع نلاحظ كذلك أن الخبر مقدم على المبتدأ، فإذا قدمنا المبتدأ وقلنا: «**أنت نائم على صدر الصخور**» وجدنا التخصيص قد فارق هذا المثال. ومن هذا يفهم أن تقديم الخبر على المبتدأ، أو تقديم ما حقه التأخير هو وسيلة التخصيص فيه.

وفى المثال الثامن والأخير نلاحظ أن الجار والمجرور مقدمان على فعلهما، فإذا قدمنا الفعل عليهما وقلنا: «**أشكو إلى الله**» وجدنا التخصيص قد زال منه وكأنه لم يكن. إذن فتقديم الجار والمجرور على فعلهما، أو تقديم ما حقه التاخير هو وسيلة التخصيص فيه.

من كل ما تقدم نستطيع الآن أن ندرك أن وسائل التخصيص في الأمثلة السابقة هى: النفى والاستثناء، وإنما، والعطف بلا، أو لكن، أو بل، أو تقديم ما حقه التأخير. وعلماء المعانى يطلقون على التخصيص المستفاد من هذه الوسائل اسم «**القصر**»، كما يطلقون على الوسائل ذاتها اسم «**طرق القصر**» وإذا رجعنا إلى الأمثلة السابقة مرة ثالثة وبحثنا فيها مثالا مثالا وجدنا في المثال الأول أن علم الغيب مقصور ولفظ الجلالة مقصور عليه وهما «**طرفا القصر**»ولما كان علم الغيب صفة من الصفات ولفظ الجلالة «**الله**» هو الموصوف كان القصر في هذا المثال قصر «**صفة على موصوف**» بمعنى أن الصفة لا تتعدى الموصوف إلى موصوف آخر.

وفى المثال الثاني قصر العرب على الوفاء فالعرب مقصورون والوفاء مقصور عليهم وهما «**طرفا القصر**» ولما كان العرب موصوفين والوفاء صفة لهم كان القصر في هذا المثال قصر «**موصوف على صفة**» بمعنى أن الموصوف لا يفارق صفة الوفاء إلى أى صفة أخرى.

وفى المثال الثالث قصرت صداقة الجاهل على التعب فصداقة الجاهل مقصورة والتعب مقصور عليها وهما (طرفا القصر) لما كانت صداقة الجاهل موصوفة والتعب صفة لها كان القصر في هذا المثال قصر «**موصوف على صفة**» أيضًا بمعنى أن الموصوف لا يتعدى صفة التعب إلى صفة أخرى كالراحة مثلا.

وفى المثال الرابع قصرت الإجادة على الشعر فالإجادة مقصورة والشعر مقصور عليه وهما «**طرفا القصر**» ولما كانت الإجادة صفة من الصفات والشعر هو الموصوف كان القصر في المثال قصر «**صفة على موصوف**» بمعنى أن الصفة لا تتعدى الموصوف إلى موصوف آخر وإن كان هو يتعداها إلى صفات أخرى.

وفى المثال الخامس قصر وضع الإحسان في غير موضعه على الظلم، فوضع الإحسان في غير موضعه مقصور والظلم مقصور عليه، وهما «**طرفا القصر**» ولما كان وضع الإحسان في غير موضعه موصوفًا والظلم صفة له، كان القصر في هذا المثال قصر «**موصوف على صفة**» بمعنى أن الموصوف لا يتعدى صفة الظلم، وإن كانت هى تتعداه إلى موصوفين آخرين.

وفى المثال السادس قصر إعطاء الشهيد لقومه على حياته فإعطاء الشهيد لقومه

مقصورة وحياته مقصور عليها، وهما «**طرفا القصر**» ولما كان إعطاء الشهيد لقومه صفة من الصفات وحياته هى الموصوف، كان القصر في هذا المثال قصر «**صفة على موصوف**» بمعنى أن هذه الصفة لا تتعدى الموصوف إلى موصوف آخر، وإن كان هو يتعداها إلى صفات أخرى .

وفى المثال السابع قصر المخاطب «**أنت**» على «**نائم على صدر الصخور**» فأنت مقصور، و«نائم على صدر الصخور» مقصور عليه، وهما «**طرفا القصر**» ولما كان «**أنت**» موصوف والنوم على صدر الصخور صفة له كان القصر هنا قصر «**موصوف على صفة**» بمعنى أن الموصوف لا يتعدى صفة النوم على صدر الصخور، وإن كانت هذه الصفة تتعداه إلى الموصوفين آخرين، وفى المثال الأخير قصرت الشكوى على لفظ الجلالة «**الله**» فالشكوى مقصورة ولفظ الجلالة مقصور عليه، وهما «**طرفا القصر**» ولما كانت الشكوى صفة من الصفات، ولفظ الجلالة هو الموصوف، كان القصر في هذا المثال قصر «**صفة على موصوف**»، بمعنى أن هذه الصفة لا تتعدى الموصوف إلى موصوف آخر، وإن كان هو يتعداها إلى صفات أخرى .

مما تقدم يتضح أن أسلوب القصر يشتمل على مقصور ومقصور عليه وأن القصر لا يخلو من حالة من الحالتين السابقتين فهو إما قصر صفة على موصوف، وإما قصر موصوف على صفة . وهذا الكلام ينطبق على الأمثلة السابقة ونظائرها، ولعل في القواعد التالية والمستنبطة من الشرح السابق ما يعين على معرفة كل من المقصور والمقصور عليه، وطرق القصر، وطرفيه في أساليب القصر المختلفة .

(١) القصر في اصطلاح علماء المعانى : تخصيص شيء بشيء أو أمر بآخر بطريق مخصوص .

(٢) للقصر أربع طرق يؤدى بها، هى :

أ - النفى والاستثناء، وفى هذه الحالة يكون المقصور عليه ما بعد أداة الاستثناء .

ب - إنما : ويكون المقصور عليه معها مؤخرا وجوبا .

ج - العطف بلا، أو لكن، أو بل، فإن كان العطف بـ «لا» كان المقصود عليه مقابلا لما بعدها، وإن كان العطف بـ «لكن» كان المقصور عليه ما بعدها .

د - تقديم ما حقه التأخير، وهنا يكون المقصور عليه هو المقدم .

أقسام القصر

يقسم البلاغيون القصر إلى ثلاثة أقسام:

قصر حقيقى وإضافى.

قصر باعتبار الطرفين.

قصر باعتبار حال المخاطب.

القصر الحقيقي والإضافى:

فالقصر باعتبار الحقيقة والواقع ينقسم إلى :

أ - حقيقى : وهو أن يختص المقصور بالمقصور عليه بحسب الحقيقة والواقع بألا يتعداه إلى غيره أصلاً.

ب - إضافى : وهو ما كان الاختصاص فيه بحسب الإضافة إلى شيء معين ولبيان ذلك نورد فيما يلى طائفة من الأمثلة ثم نعقب عليها بالشرح والمناقشة وتوضيحًا لهذين النوعين من القصر وتوصلاً إلى معرفة حقيقة كل منهما.

الأمثلة:

(١) قال تعالى : ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الرعد: ١٩].

(٢) وقال تعالى : ﴿وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨].

(٣) وما قلت إلا الحق فيك ولم تزل على منهج من سنة المجد لاحب [١]

(٤) قال تعالى : ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ﴾[آل عمران: ١٤٤].

(٥) برجاء جودك يطرد الفقر وبأن تعادى ينفد العمر

(٦) إنما يدوم السرور برؤية الإخوان.

إذا تأملنا المثال الأول وجدنا القصر فيه من باب قصر الصفة على الموصوف، وإذا تدبرنا الصفة فيه وجدنا أنها لا تتعدى موصوفها إلى موصوف آخر مطلقًا فالتذكر صفة لا تتجاوز أولى الألباب إلى غيرهم من سائر الناس في الحقيقة والواقع. وطريق القصر هنا هو (إنما).

---

(١) المنهج: الطريق الواضح واللاحب: الطريق الواضح أيضًا.

وإذا تأملنا المثال الثاني وجدناه يشتمل على ثلاثة من أساليب القصر: الأول ﴿وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ﴾ [هود: ٨٨] والثاني ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ والثالث ﴿وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾، وأن القصر في كل منها هو قصر صفة على موصوف.

وإذا نظرنا إلى الصفة في كل قصر رأينا أنها لا تفارق موصوفها إلى موصوف آخر ألبتة. فالتوفيق صفة لا تتعدى المولى عز وجل إلى سواه، وكذلك كل من التوكل والإنابة صفة لا تتجاوز موصوفها وهو الله عز وجل إلى موصوف آخر مطلقًا.

وطرق القصر في هذا المثال هي: النفي والاستثناء في الأسلوب الأول، وتقديم ما حقه التأخير (الجار والمجرور) في الأسلوبين الآخرين والقصر في المثال الثالث هو (وما قلت إلا الحق) وهو قصر صفة على موصوف، وإذا تدبرنا الصفة فيه وجدنا أنها لا تتعدى موصوفها إلى غيره أصلا. فالقول صفة لا تتجاوز موصوفها (الحق) إلى غيره من سائر الموصوفات فالقصر في هذه الأمثلة الثلاثة يسمى (قصرًا حقيقيًّا) وكذلك كل قصر يختص فيه المقصور بالمقصور عليه اختصاصًا منظورًا فيه إلى الحقيقة والواقع بألا يتعداه إلى غيره أصلاً.

ومن مناقشة الأمثلة السابقة يلاحظ أن القصر فيها جميعًا كان قصر صفة على موصوف. هذا يعنى أن القصر الحقيقي يكون في قصر الصفة على الموصوف ولا يكاد يوجد في قصر الموصوف على الصفة.

وإذا نظرنا إلى أسلوب القصر في المثال الرابع وهو قوله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ﴾ [آل عمران: ١٤٤] وجدناه من باب قصر الموصوف على الصفة، وإذا تدبرنا المقصور هنا وهو (محمد) وجدناه مختصًّا بالمقصور عليه بالإضافة، أي بالنسبة إلى شيء معين لا إلى جميع ما عداه.

فليس المقصود هنا أن (محمدًا) مقصور على (الرسالة) وحدها بحيث لا يتعداها إلى شيء آخر، لأن الحقيقة والواقع خلاف ذلك، إنما المقصود أنه مقصور على الرسالة بالإضافة إلى شيء آخر معين كالشعر مثلاً.

وفى المثال الخامس قصران: الأول (برجاء جودك يطرد الفقر) والثاني (وبأن تعادى ينفد العمر) وكلاهما من باب قصر الصفة على الموصوف. وإذا تأملنا المقصور في كل منهما وجدناه مختصًّا بالمقصور عليه بالإضافة، أي النسبة إلى شيء معين لا إلى جميع ما عداه.

ففى أسلوب القصر هنا قصد صفة طرد الفقر على رجاء جود الممدوح بالإضافة أو النسبة إلى شيء آخر معين كرجاء عطفه مثلاً .

وفى أسلوب القصر الثانى قصد قصر صفة نفاد العمر على معاداة الممدوح بالإضافة أو بالنسبة إلى معاداة شخص آخر غيره .

وإذا تأملنا المثال السادس وجدنا القصر فيه من باب قصر الصفة على الموصوف . فالمقصور فيه مختص بالمقصور عليه بالإضافة ، أي النسبة إلى شيء معين لا إلى جميع ما عداه . فالمقصود هنا هو قصر دوام السرور على رؤية الإخوان بالإضافة إلى رؤية الأعداء مثلا . ولا ينافى هذا أن يدوم السرور برؤية الأهل أو غيرهم .

فالقصر في المثال الرابع والخامس والسادس يسمى (قصرًا إضافيًا) وكذلك كل قصر يكون التخصيص فيه بالإضافة إلى شيء آخر . وذلك بطبيعة الحال في مقابل (القصر الحقيقي) الذي يختص فيه المقصور بالمقصور عليه اختصاصًا ينظر فيه إلى الحقيقة والواقع ، بمعنى أنه لا يتعداه إلى غيره أصلاً .

وقد لاحظنا من أمثلة القصر الإضافي أنه يأتى في كل من قصر الصفة على الموصوف وقصر الموصوف على الصفة . وهذا كما ذكرنا من قبل بعكس (القصر الحقيقي) الذي يقع في قصر الصفة على الموصوف ولا يكاد يوجد في قصر الموصوف على الصفة .

كذلك لاحظنا أن (طرق القصر) في أمثلة القصر الإضافي هي : النفى والاستثناء في المثال الرابع ، وتقدم ما حقه التأخير في المثال الخامس ، و«إنما» في المثال السادس والأخير .

القصر باعتبار طرفيه

والقصر مطلقًا: حقيقيًا كان أو إضافيًا ، ينقسم باعتبار طرفيه إلى قسمين : قصر موصوف على صفة ، وقصر صفة على موصوف ، فقصر الموصوف على الصفة قصرًا حقيقيًا هو ما لا يتعدى فيه الموصوف تلك الصفة إلى أي صفة أخرى . وقد سبق أن ذكرنا أن هذا النوع من القصر لا يكاد يوجد ، وذلك لأن أي موصوف له من الصفات ما يتعذر الإحاطة بها ، ولهذا من المحال إثبات صفة واحدة للموصوف عليها ونفى ما عداها من صفاته الأخرى نفيًا شاملاً ، وقصر الصفة على الموصوف قصرًا حقيقيًا هو ما لا تتجاوز فيه الصفة ذلك الموصوف إلى أي شيء آخر . ذلك كالأمثلة التى سبق إيرادها

ومناقشتها، وكقولنا: (لم يبن الأهرام إلا المصريون)، فالقصر هنا قصر صفة على موصوف قصرًا حقيقيًا، قصرًا يراد به أن الصفة - بناء الأهرام - مقصورة على المصريين لم تتجاوزهم إلى سواهم من الناس.

وقصر الموصوف على الصفة قصرًا إضافيًا: هو ما لا يتعدى فيه الموصوف تلك الصفة إلى صفة أخرى معينة، وإن كانت الصفة تتجاوزه إلى غيره.

ومن الأمثلة لذلك بالإضافة إلى الأمثلة السابقة قولنا: (ما المتنبي إلا شاعر)، فقد قصر المتنبي على صفة الشاعرية لا يتجاوزها إلى غيرها من الصفات كالخطابة والكتابة، وإن كانت صفة (الشاعرية) تتجاوز المتنبي إلى غيره من الناس. وقصر الصفة على الموصوف قصرًا إضافيًا هو: ما لا يتجاوز فيه الصفة الموصوف إلى غيره من الموصوفات أو الموصوفين وإن كان هو يتجاوزها إلى صفات أخرى.

ومن أمثلة ذلك: (لا يتحمل الشدائد إلا الأقوياء) ففي هذا القصر الإضافي قصرت صفة تحمل الشدائد على الأقوياء بمعنى أنها لا تتجاوز الأقوياء إلى غيرهم، وإن كان الموصوف يتجاوزها إلى غيرها من الصفات وكما يقول الخطيب القزوينى: ليس المراد بالصفة في باب القصر النعت النحوى، وهو التابع الذي يدل على معنى في متبوعه، وإنما يراد بها ما يقابل الذات، وهو المعنى الذي يقوم بغيره سواء دل عليه بالوصف نحو (عادل) من قولك: (ما عمر إلا عادل) أو دل عليه بغير الوصف كالفعل نحو قولك: (ما عمر إلا يعدل)، والمراد بالموصوف في باب القصر كل ما يقوم به غيره، والغالب أن يكون دالاً على ذات كما أوضحنا في الأمثلة السابقة. ومن غيره الغالب قد يدل الموصوف في نفسه على معنى قائم بغيره، نحو: ما خدمة العلم إلا عبادة. فقد قصرت خدمة العلم على العبادة قصر موصوف على صفة مع أن خدمة العلم وهى المقصور تدل في نفسها على معنى قائم بغيره.

القصر باعتبار حال المخاطب

وهذا القسم خاص بالقصر الإضافي فقط. وبيان ذلك أن القصر الإضافي ينقسم باعتبار حال المخاطب إلى ثلاثة أقسام: قصر أفراد، وقصر قلب وقصر تعيين.

١ - فإذا اعتقد المخاطب الشركة في الحكم بين المقصور عليه وغيره، فهذا (قصر أفراد).

٢ - وإذا اعتقد المخاطب عكس الحكم الذي تثبته بالقصر، فهذا (قصر قلب).

٣ - وإذا كان المخاطب مترددا في الحكم بين القصور عليه وغيره فهذا (قصر تعيين).

فإذا قلت في قصر الصفة على الموصوف: (الكريم محمد لا على) وكان المخاطب يعتقد اشتراك محمد وعلى في صفة الكرم كان القصر «قصر أفراد». وإذا كان المخاطب يعتقد عكس ما تقول كان القصر (قصر قلب)، وإذا كان المخاطب مترددا لا يدرى أيهما الكريم كان القصر (قصر تعيين).

وإذا قلت في قصر الموصوف على الصفة: (ما أحمد إلا تاجر) وكان المخاطب يعتقد اتصاف أحمد بالتجارة والزراعة كان القصر (قصر أفراد).

وإذا كان المخاطب يعتقد اتصاف أحمد بالزراعة لا التجارة، كان القصر (قصر قلب).

وإذا كان المخاطب مترددا لا يدرى أي الصفتين هي صفه أحمد، كان القصر (قصر تعيين).

على ضوء ما تقدم نورد جملتى القصر التاليتين ثم نعرض لهما بالتحليل لبيان أيهما أبلغ.

إنما يجيد السباحة حسين.

إنما حسين يجيد السباحة.

فالجملة الأولى تفيد أن حسينا وحده هو الذي يجيد السباحة ولا يشاركه غيره في هذه الصفة، وهذا لا يمنع أن يتصف حسين بصفات أخرى كركوب الخيل ولعب الكرة والصيد والتجديف مثلاً.

أما الجملة الثانية فتفيد أن حسينا يجيد السباحة وحدها ولا يجيد غيرها من الأعمال، وهذا لا يمنع أن يكون هناك من يشارك حسينا في إجادة السباحة.

من هذا التحليل يتضح أن الجملة الأولى أبلغ في مدح حسين من ناحيتين: فهى من ناحية تفيد أنه متفرد بإجادة السباحة لا يشاركه غيره في هذه الصفة ومن ناحية أخرى لا تنفى أن لحسين أعمال أخرى يجيدها.

الفصل والوصل

من أسرار البلاغة العلم بمواطن الوصل والفصل في الكلام، أو بعبارة أخرى العلم بما ينبغى أن يصنع في الجمل من عطف بعضها على بعض أو ترك العطف فيها، والإتيان بها منثورة تستأنف واحدة منها بعد الأخرى وإدراك مواطن الوصل والفصل في الكلام لا تتأتى إلا للعرب الخلص لأن اللغة لغتهم وهم ينطقون بها عن سليقة، كما لا تتأتي إلا لمن طبعوا على البلاغة وأوتوا حظًّا من المعرفة في ذوق الكلام.

وقد بلغ من قوة الأمر في ذلك أن جعلوه حدًّا للبلاغة، فقد جاء عن بعضهم أنه سئل عنها فقال: (البلاغة معرفة الفصل من الوصل)، وذاك لغموض هذا الباب ودقة مسلكه، ولأن من يكمل له إحراز الفضيلة فيه يكمل له إحراز معاني البلاغة.

(والوصل) يعني عند علماء المعانى عطف جملة على أخرى (بالواو) فقط من دون سائر حروف العطف الأخرى، كقول المتنبي:

أعز مكان في الدنا سرج سابح ... وخير جليس في الزمان كتاب [1]

ويقصد علماء المعاني بـ (الفصل) ترك هذا العطف، كقول الشاعر:

عادة الأيام لا أنكرها ... فرح تقرنه لى بترح

وقد قصر علماء المعانى عنايتهم في هذا الباب على البحث في عطف الجمل (بالواو) دون بقية حروف العطف كما أشرت سابقًا؛ لأن (الواو) هي الأداة التى تخفى الحاجة إليها ويتطلب فهم العطف بها دقة في الإدراك.

وسبب ذلك أنها لا تدل إلا على مطلق الجمع والاشتراك، أما غيرها من أحرف العطف فتفيد مع الاشتراك معاني زائدة كالترتيب مع التعقيب في الفاء والترتيب مع التراخي في (ثم) وهلم جرا. فإذا عطفت بواحد منها ظهرت الفائدة وسهل إدراك موطنها.

وبعد.. فلكل من الفصل والوصل بالواو في الكلام مواضع خاصة تدعو إليها الحاجة ويقتضيها المقام. والآن نعرض بالشرح والتفصيل لهذه المواضع بادئين بالفصل.

---

(١) الدنا: جمع دنيا والسابح: الفرس السريع الجرى يقول: سرج الفرس أعز مكان لأن صاحبه يجاهد عليه في طلب المعالى والكتاب خير جليس لأنه مأمون الأذى.

مواضع الفصل

يجب الفصل في ثلاثة مواضع:

(١) أن يكون بين الجملتين اتحاد تام، وذلك بأن تكون الجملة الثانية توكيد للأولى، أو بيانًا لها، أو بدلاً منها. ويقال حينئذ: إن بين الجملتين (كمال الاتصال).

(أ) فمن أمثلة الفصل الذي تكون فيه الجملة الثانية توكيدًا للجملة الأولى قول الشاعر:

يهوى الثناء مبرز ومقصر حب الثناء طبيعة الإنسان

فالبيت هنا يشتمل على جملتين، وإذا تأملناهما وجدنا بينهما اتحادًا تامًّا في المعنى، فالجملة الثانية وهى: (حب الثناء طبيعة الإنسان) لم تجئ إلا توكيدًا للأولى وهى جملة: (يهوى الثناء مبرز ومقصر) فإن معنى الجملتين واحد.

ومن أمثلة هذا النوع أيضًا قول المتنبي:

وما الدهر إلا من رواة قصائدى إذا قلت شعرًا أصبح الدهر منشدًا

فإذا تدبرنا جملتي البيت وجدنا بينهما كذلك اتحادًا تامًّا في المعنى فالجملة الثانية وهى (إذا قلت شعرًا أصبح الدهر منشدًا) لم تجئ في الواقع إلا توكيدًا للجملة الأولى وهى (وما الدهر إلا من رواة قصائدى) لأن معنى الجملتين واحد.

ب - ومن أمثلة الفصل الذي تكون فيه الجملة الثانية بيانًا للجملة الأولى قول الشاعر:

كفى زاجرًا للمرء أيام دهره تروح له بالواعظات وتغتدي

فإذا تدبرنا جملتي البيت وجدنا بينهما اتحادًا تامًّا في المعني، فالجملة الثانية وهى: (تروح له بالواعظات وتغتدي) لم يجئ في الواقع إلا لإيضاح إبهام جملة: (كفى زاجرًا للمرء أيام دهره) فهى بيان لها.

ومن أمثلة هذا النوع كذلك قول الشاعر:

الناس للناس من بدو وحاضرة بعض لبعض وإن لم يشعروا خدم

فإذا تأملنا جملتي هذا البيت وجدنا بينهما اتحادًا تامًّا في المعنى، فالجملة الثانية وهى (بعض لبعض وإن لم يشعروا خدم) لم تأت إلا لإيضاح إبهام الأولى وهى (الناس للناس من بدو وحاضرة) فهى بيان لها.

ج - ومن أمثلة الفصل الذي تكون فيه الجملة الثانية بدلاً من الجملة الأولى قوله

تعالى: ﴿أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ۝ أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ۝ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ [الشعراء:١٣٢-١٣٤].

فالتأمل في الآية الكريمة يظهر أن بين جملة ﴿أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ﴾ وجملة ﴿أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ۝ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ كمال الاتصال، وذلك لأن الجملة الثانية بدل بعض من كل من الجملة الأولى إذ الأنعام والبنون والجنات والعيون بعض ما يعلمون.

ومن أمثلة هذا النوع أيضًا قوله تعالى: ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ﴾ [البقرة: ٤٩]. فالجملة الثانية هنا وهى (يذبحون أبناءكم) بدل بعض من كل من الأولى لأن تذبيح الأبناء بعض ما يسومونهم ويحملونهم إياه من سوء العذاب فالجملة الثانية في كل مثال من الأمثلة السابقة مفصولة عن الجملة الأولى، ولا سبب لهذا الفصل سوى ما بينهما من تمام التآلف وكمال الاتحاد. ومن أجل ذلك فإن بين الجملتين (كمال الاتصال).

(٢) والموضع الثاني من المواضع التى يجب فيها الفصل بين الجمل هو: أن يكون بين الجملتين (تباين تام)، وذلك بأن تختلفا خبرًا وإنشاء، أو بألا تكون بينهما مناسبة ما؛ يقال حينئذ إن بين الجملتين (كمال الانقطاع).

أ - فمن الأمثلة التى يجب فيها الفصل بين الجملتين لاختلافهما خبرًا وإنشاء قول الشاعر:

لا تحسب المجد تمرًا أنت آكله ... لن تبلغ المجد حتى تلعق الصبرا

فبين الجملة الثانية والأولى في هذا البيت تمام التباين وغاية الابتعاد؛ لاختلافهما خبرًا وإنشاء، ذلك لأن الجملة الأولى إنشائية والثانية خبرية، ومن أجل ذلك تعين الفصل بينهما. ومن أمثلة هذا النوع أيضًا قول الشاعر:

لست مستمطرًا لقبرك غيثًا ... كيف يظمأ وقد تضمن بحرًا؟

فالجملة الأولى هنا خبرية والثانية إنشائية فبينهما تمام التباين ومنتهى الابتعاد ولهذا تعين الفصل بينهما لاختلافهما خبرًا وإنشاءً.

ب - ومن الأمثلة التى يجب فيها الفصل بين الجملتين لعدم وجود مناسبة بينهما قول القائل: (كفى بالشيب داء صلاح الإنسان حفظ الوداد) فبين الجملتين كما ترى تباين تام، إذ لا مناسبة بينهما في المعنى.

وهذا الحكم ينطبق على كل جملتين لا تكون بينهما مناسبة ما، كقولك: (السماء ممطرة، عليّ يغدو إلى عمله مبكرًا)، وكقول الشاعر:

وإنما المرء بأصغريه كل امرئ رهن بما لديه [(١)]

فبين الجملة الثانية هنا والجملة الأولى تمام التباين ومنتهى الابتعاد؛ لأنه لا مناسبة بينهما مطلقًا، إذ لا رابطة في المعنى بين قوله: (وإنما المرء بأصغريه) وقوله: (كل امرئ رهن بما لديه) ففي جميع هذه الأمثلة والأمثلة التى تختلف فيها الجملتان خبرًا وإنشاء نجد الجملة الثانية مفصولة عن الجملة الأولى، ولا سر لذلك إلا كمال التباين وشدة التباعد، ولذلك يقال في هذا الموضع من مواضع الفصل: إن بين الجملتين (كمال الانقطاع).

(٣) والموضع الثالث من المواضع التى يجب فيها الفصل بين الجملتين هو أن تكون الجملة جوابًا عن سؤال يفهم من الأولى، ويقال حينئذ: إن بين الجملتين (شبه كمال الاتصال).

ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: ﴿وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ﴾ [هود: ٧٠][(٢)]، ففي هذه الآية الكريمة فصلت جملة (قالوا لا تخف) عن جملة (وأوجس منهم خيفة) لأن بينهما شبه كمال الاتصال، إذ الثانية جواب لسؤال يفهم من الأولى، كأن سائلاً سأل: فماذا قالوا له حين رأوه قد أحس منهم خوفًا؟ فأجيب: (قالوا لا تخف).

ومن أمثلة هذا النوع من الفصل أيضًا قول الشاعر:

يقولون إنى أحمل الضيم عندهم أعوذ بربى أن يضام نظيري [(٣)]

فبين جملة (أعوذ بربى أن يضام نظيري) وجملة (يقولون: إنى أحمل الضيم عندهم) شبه كمال الاتصال، لأن الثانية جواب عن سؤال نشأ من الأولى، فكأن الشاعر بعد أن أتى بالشطر الأول من البيت أحس أن سائلاً يقول له:

وهل ما يقولونه من أنك تتحمل الضيم صحيح؟، فأجاب بالشطر الثانى.

ففى هذين المثالين نرى أن الجملة الثانية في كليهما مفصولة من الأولى، ولا سبب لهذا الفصل إلا قوة الرابطة المعنوية بين الجملتين، فإن الجواب شديد الارتباط بالسؤال، فأشبهت الحال هنا من بعض الوجوه حال (كمال الاتصال) السابقة الذكر.

(١) الأصغران: القلب واللسان ورهن بما لديه: يجازى بما عمل .
(٢) أوجس منهم خيفة: أحس منهم خوفًا .
(٣) الضيم: الذل، وضامه يضيمه بفتح ياء المضارعة: أذله يذله .

ومن أجل ذلك يقال بين الجملتين: (شبه كمال الاتصال)، تلك هي مواضع الفصل الثلاثة بين الجمل في الكلام، وفيما يلى تجميع للقواعد التى تحكمها.

أ - الوصل عطف جملة على أخرى بالواو، والفصل ترك هذا العطف.

ب - يجب الفصل بين الجملتين في ثلاثة مواضع:

١ - أن يكون بين الجملتين اتحاد تام، وذلك بأن تكون الجملة الثانية توكيد للأولى، أو بيانًا لها، أو بدلاً منها وفى هذه الأحوال الثلاثة يقال إن موجب الفصل بين الجملتين هو (كمال الاتصال).

٢ - أن يكون بين الجملتين تباين تام، وذلك بأن يختلفا خبرًا وإنشاء، أو بألا تكون بينهما أي مناسبة معنوية. وفى هاتين الحالتين يقال: إن موجب الفصل بين الجملتين هو (كمال الانقطاع).

٣ - أن تكون الجملة الثانية جوابًا عن سؤال يفهم من الأولى وفى هذه الجملة يقال: إن موجب الفصل بين الجملتين هو (شبه كمال الاتصال)، وفيما يلي طائفة أخرى من أمثلة الفصل يستطيع الدارس أن يتبين مواضعها وموجبات الفصل فيها على ضوء الشرح السابق:

١ - قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة:٦].

٢ - قال تعالى: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَـٰتِ﴾ [الرعد:٢].

٣ - قال تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم:٣-٤].

٤ - وقال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَـٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا﴾ [لقمان:٧].

٥ - أصون عرضي بمالى لا أدنسه ... لا بارك الله بعد العرض في المال

٦ - أعلمت من حملوا على الأعواد؟ ... أعلمت كيف خبا ضياء النادى؟

٧ - الرأي قبل شجاعة الشجعان ... هو أول وهى المحل الثانى

٨ - حسب الخليلين نأي الأرض بينهما ... هذا عليها وهذا تحتها بالي [1]

(١) حسب الخليلين: كفاهما: والنأي: البعد، البالي: الفاني والممزق يقول: كفاني وأخي حيلولة الأرض بيننا فأنا حي فوقها وهو بالي الجسم تحتها، وهذا نهاية البعد. البيت قاله النابغة في رثاء أخ له.

٩ - يا من يقتل من أراد بسيفه أصبحت من قتلاك بالإحسان
١٠ - لا يعجبنك إقبال يريك سنا إن الخمود لعمري غاية الضرم [(١)]
١١ - لا تسأل المرء عن خلائقه فى وجهه شاهد من الخبر
١٢ - أقول له ارحل لا تقيمن عندنا وإلا فكن في السر والجهر مسلمًا
١٣ - قال لى كيف أنت؟ قلت: عليل سهر دائم وحزن طويل
١٤ - يا واردًا سؤر عيش كله كدر أنفقت عمرك في أيامك الأول [(٢)]
١٥ - إن نيوب الزمان تعرفنى أنا الذي طال عجمها عودي [(٣)]
١٦ - لا الدمع غاض ولا فؤادك سال دخل الحمام عرينه الرئبال [(٤)]
١٧ - وما أنا بالباغى على الحب رشوة ضعيف هوى يُبغى عليه ثواب
١٨ - ليس الحجاب بمقص عنك لي أملًا إن السماء ترجى حين تحتجب [(٥)]
١٩ - من يهن يسهل الهوان عليه ما لجرح بميت إيلام
٢٠ - لا تنكري عطل الكريم من الغنى السيل حرب للمكان العالى
٢١ - بعيد عن الخلان في كل بلدة إذا عظم المطلوب قل المساعد
٢٢ - زعم العواذل أنني في غمرة صدقوا ولكن غمرتي لا تنجلي
٢٣ - ونحن أناس لا توسط عندنا لنا الصدر دون العالمين أو القبر

مواضع الوصل

ويجب الوصل بين الجملتين في ثلاثة مواضع أيضًا:

أ - إذا قصد إشراك الجملتين في الحكم الإعرابي وتفصيل ذلك أنه إذا أتت جملة بعده وكان للأولى محل من الإعراب وقصد تشريك الثانية لها في هذا الحكم فإنه يتعين في هذه الحالة عطف الثانية على الأولى بالواو، تمامًا كما يعطف مفرد على مفرد بالواو لاشتراكهما في حكم إعرابي واحد.

وفيما يلي طائفة من الأمثلة لهذا الموضع من مواضع الوصل:

(١) أنت أيقظتني وأطلعت عيني على عالم من السر وأخفى

(١) السنا: ضوء البرق، وخمود النار: سكون لهبها، والضرم: اشتعال النار والتهابها.
(٢) سؤر العيش: بقيته
(٣) عجم العود: عضه ليعرف أصلب هو أم رخو؟.
(٤) الحمام: الموت وعرينة الأسد: مأواه والرئبال: الأسد.
(٥) المراد بالحجاب: الممدوح عن قصّاده مقص: مبعد، وتحتجب: تختفى تحت الغيوم.

(٢) وما زلت مذ كنت تولي الجميل وتحمي الحريم وترعى النسب
(٣) وللسر مني موضع لا يناله نديم ولا يفضي إليه شراب[(١)]
(٤) وأبطأ عني والمنايا سريعة وللموت ظفر قد أطل وناب

تأمل في البيت الأول الجملتين (أيقظتني) و (أطلعت عيني على عالم من السر أخفى) تجد أن للجملة الأولى موضعًا من الإعراب لأنها خبر للمبتدأ قبلها وأن الشاعر أراد اشراك الثانية في هذا الحكم الإعرابي، أي أراد أن تكون خبرًا ثانيًا للمبتدأ، ولهذا تعين عطف الثانية على الأولى بواو العطف.

وإذا تأملت الجملتين (تولي الجميل) و (تحمي الحريم) في البيت الثاني وجدت أن للأولى موضعًا من الإعراب، لأنها خبر للفعل الناسخ (ما زال) وأن الشاعر أراد هنا أيضًا إشراك الثانية وهى (تحمي الحريم) للأولى في حكمها الإعرابي، أي أراد أن تكون خبرًا ثانيًا للفعل (ما زال) ومن أجل ذلك تعين وصل الجملة الثانية بالأولى بواو العطف.

وإذا تدبرنا الجملتين (لا يناله نديم) و (لا يفضي إليه شراب) في البيت الثالث وجدنا أن للأولى موضعًا من الإعراب لأنها صفة للنكرة قبلها وهى كلمة (موضع)، وأن الشاعر أراد إشراك الثانية لها في هذا الحكم الإعرابي، ولهذا وصلها بها أو عطفها عليها بالواو.

وإذا تدبرنا الجملتين (والمنايا سريعة) و (للموت ظفر قد أطل وناب) في البيت الرابع والأخير وجدنا أن للأولى منهما موضعًا من الإعراب؛ لأنها تقع في موضع حال من فاعل (أبطأ) وأن الشاعر أراد إشراك الجملة الثانية لها في هذا الحكم الإعرابي، ولهذا وصلها بها بحرف العطف الواو.

وكذلك يجب الوصل بين كل جملتين على هذا النحو، أي بين كل جملتين قصد إشراكهما في حكم إعرابي واحد.

(ب) ويجب الوصل بين الجملتين إذا اتفقتا خبرًا أو إنشاء، وكانت بينهما جهة جامعة، أي مناسبة تامة، ولم يكن هناك سبب يقتضي الفصل بينهما وفيما يلي طائفة من أمثلة هذا الموضع الثاني من مواضع الوصل:

١ - قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ۝١٣ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ﴾ [الانفطار: ١٣-١٤].

---

(١) النديم: الجليس على الشراب، ويفضي: ينتهي. يقول: إنه كتوم للسر يضعه حيث لا يطلع عليه النديم ولا يكشف عنه الشراب

٢ - ديارهمو انتزعناها انتزاعا وأرضهمو اغتصبناها اغتصابا
٣ - وما كل فعال يجازي فعله ولا كل قول لدى يجاب
٤ - فلا تترك الأعداء حولى ليفرحوا ولا تقطع التسآل عنه وتقعد
٥ - فليتك تحلو والحياة مريرة وليتك ترضى والأنام غضاب
٦ - وما أنس دار ليس فيها مؤانس؟ وما قرب قوم ليس فيهم مقارب؟

ففى الأمثلة الثلاثة الأولى هنا اشتمل كل مثال منها على جملتين متحدتين متناسبتين في المعنى وليس هناك من سبب يقتضى الفصل، ولذلك عطفت الجملة الثانية على الأولى في كل منها بواو العطف.

وفى الأمثلة الأخيرة اشتمل كل واحد منها على جملتين متحدتين إنشاء متناسبتين معنى، وليس هناك من سبب أيضًا يقتضى الفصل، ولذلك عطفت الثانية على الأولى.

وهكذا يجب الوصل بين كل جملتين اتحدتا خبرًا أو إنشاء، وتناسبتا في المعنى، ولم يكن هناك مانع من العطف.

(ج) ويجب الوصل بين الجملتين إذا اختلفتا خبرًا وإنشاء وأوهم الفصل خلاف المقصود. وهذا هو الموضع الثالث من مواضع الوصل.

وتتمثل شواهد هذا النوع من الوصل في الإجابة بالنفى على سؤال أداته (هل) أو (همزة التصديق) مع التعقيب على جملة الجواب المنفى بجملة دعائية ومن أمثلة ذلك:

(١) لا ولطف الله به. تقول ذلك في جواب من سألك: هل تحسنت صحة صديقك؟

(٢) لا وحفظك الله. تقول ذلك في جواب من سألك: ألك حاجة أقضيها لك؟

فـ (لا) في هذا الموضع قائمة مقام جملة خبرية تقديرها في المثال الأول (لم تتحسن صحته) وتقديرها في المثال الثانى (لا حاجة لى) وكل من جملتى (لطف الله به) (وحفظك الله) جملة دعائية إنشائية في المثال الأول (لا لطف الله به) وفى المثال الثانى (لا حفظك الله). لكن الفصل على هذه الصورة يجعل السامع يتوهم أنك تدعو عليه في حين أنك تقصد الدعاء له. ولذلك وجب العدول هنا عن الفصل إلى الوصل. وكذلك الحال في كل جملتين اختلفتا خبرًا وإنشاء وكان العطف بينهما يوهم خلاف المقصود وفيما يلى تلخيص وتجميع للقواعد التى تحكم مواضع الوصل.

يجب الوصل بين الجملتين في ثلاثة مواضع :

الأول - قصد إشراك الجملتين في الحكم الإعرابى .

الثاني - إذا اتفقت الجملتان خبرًا أو إنشاء وكانت بينهما جهة جامعة أي مناسبة [1] تامة ولم يكن هناك ما يقتضي الفصل بينهما .

الثالث - إذا اختلفت الجملتان خبرًا وإنشاء وأوهم الفصل خلاف المقصود .

وفيما يلى طائفة أخرى من أمثلة الوصل يترك للدارس أمر التعرف إلى موضع الوصل في كل منها وموجبه .

(١) قال تعالى : ﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ [التوبة : ٨٢]

(٢) وقال تعالى : ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي﴾ [هود :٤٤] .

(٣) وقال تعالى : ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَاجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾ [الشعراء: ٨٣-٨٧] .

(٤) وقال أبو بكر رضى الله عنه : «أيها الناس إنى وليت عليكم ولست بخيركم» .

٥ - وشر عدويك الذى لا تحارب	وخير خليليك الذي لا تناسب
٦ - سل عن شجاعته وزره مسالمًا	وحذار ثم حذار منه محاربًا
٧ - وأسطو وحبى ثابت في قلوبهم	وأحلم عن جهالهم وأهاب
٨ - ولست واجد شيء أنت عادمه	ولست غائب شيء أنت حاضره
٩ - أعيا على أخ وثقت بوده	وأمنت في الحالات عقبى غدره
١٠ - تسائلنى : من أنت؟ وهى عليمة	وهل بفتى مثلى على حاله نكر؟
١١ - فأظمأ حتى ترتوى البيض والقنا	وأسغب حتى يشبع الذئب والنسر

١٢ - لا وجعلنى الله فداءك! .

١٣ - لا وأيدك الله! .

* * *

(١) يقصد بالتناسب أن تكون بين الجملتين رابطة أو صلة تجمع بينهما ، كأن يكون المسند إليه في الأولى له تعلق بالمسند إليه في الثانية ، وكأن يكون المسند إليه في الأولى مماثلاً للمسند في الثانية أو مضادًا له .

محسنات الوصل وعيوبه

من محسنات الوصل تناسب الجملتين في الاسمية والفعلية، وتناسب الجملتين الفعليتين في الماضى والمضارعة، وفى الإطلاق والتقييد إلا لمانع، كما في الأمثلة السابقة، ولهذا لا يحسن العدول عن ذلك في الوصل إلا لغرض. ومن هذه الأغراض أن يقصد التجدد في إحدى الجملتين والثبات في الأخرى، كقولك: أقام محمد وأخوه مسافر. هذا إذا أردت أن إقامة محمد تتجدد وسفر أخيه ثابت مستمر لأن الدلالة على التجدد تكون بالجملة الفعلية، وعلى الثبات بالجملة الاسمية.

ومن الأغراض أن يراد الإطلاق في إحدى الجملتين والتقييد في الأخرى كقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ الْأَمْرُ﴾ [الأنعام:٨]. فالجملة الأولى وهى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾ مطلقة، والجملة الثانية وهى: ﴿وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ الْأَمْرُ﴾ مقيدة، لأن شرط (لو) مقيد للجواب، فقضاء الأمر، أي قضاؤه بهلاكهم، مقيد بإنزال الملك.

ومن عيوب الوصل انعدام المناسبة بين المعطوف والمعطوف عليه، كقول أبي تمام:

لا والذي هو عالم أن النوى صبر وأن أبا الحسين كريم

وإنما كان العطف في هذا البيت معيبًا لأنه لا مناسبة في المعنى بين المعطوف والمعطوف عليه، إذ لا علاقة مطلقًا بين مرارة النوى وكرم أبى الحسين.

ومن هذا القبيل أن يقال مثلاً: على تاجر وأحمد مريض فهذا العطف معيب قبيح، إذ لا مناسبة بين الجملتين ولا رابطة في المعنى بين تجارة على ومرض أحمد.

ولو قيل مثلاً: على طبيب وأحمد ممرض لصح العطف لوجود رابطة تجمع بين الجملتين، وهى هنا التماثل بين المسندين فيهما.

الإيجاز والإطناب والمساواة

الإيجاز:

أشاد الجاهليون كثيرًا بالإيجاز ودعوا إليه ومارسوه في أدبهم على اختلاف ألوانه لعل السر في اهتمامهم به راجع إلى ظروف مجتمعهم، فقد كان مجتمعًا تشيع فيه الأمية وتندر فيه الكتابة، ولهذا كان عليهم أن يعتمدوا على ذاكرتهم من ناحية في الإبقاء على أدبهم الذي يصور حياتهم، وعلى تناقله عن طريق الرواية جيلاً بعد جيل من ناحية أخرى، ولكن

الذاكرة مهما كانت قوية فإنها لا تستطيع أن تستوعب كل ما يقال، ولا سيما إذا كان طويلاً وإذا استوعبت ما قدرت عليه من الكلام المسهب فإنها معرضة لنسيان بعضه بسبب طوله.

من هنا ولهذه الاعتبارات، كما يبدو كانت الحاجة إلى الإيجاز في القول أول الأمر كوسيلة لاستيعاب أكبر قدر ممكن من الأدب تستطيع الذاكرة أن تعيه من غير نسيان، وبذلك يتسنى للأجيال المتعاقبة أن تتناقله سليمًا غير منقوص.

على ضوء ذلك القول نقول بأن ما نرى لهم من كلام كثير في فضل الإيجاز والتنويه به واعتباره البلاغة الحقة كان نابعًا في المحل الأول من حاجتهم إليه كأهم وسيلة للحفاظ على تراثهم العقلى. وقلما نظروا بمفهومه المتطور لدى رجال البلاغة المتأخرين، أي على أنه مطلب في حد ذاته تستدعيه مقتضيات الكلام أحيانًا.

وفى صدر الإسلام لم يتطور مفهوم الإيجاز كثيرًا عما كان عليه في العصر الجاهلى. حقًّا لقد اقتضى الأمر تدوين الرسائل لأغراض شتي، ولكن ظروف المجتمعين الجديد والقديم كانت لا تزال متقاربة متشابهة من جهة قلة الكاتبين وندرة أدوات الكتابة، ولذلك ظل الإيجاز وسيلة أكثر منه غاية قائمة لذاتها.

ثم شيئًا فشيئًا زاد الاهتمام بالكتابة وتفرغ لها طائفة من الأدباء يفتنون في طرقها وأساليبها، فكان ذلك إيذانًا ببدء مرحلة جديدة في تطوير مفهوم الإيجاز والنظر إليه على أنه مطلب بلاغى في حد ذاته يتنافسون في الإبداع فيه حتى ود بعضهم لو كان الكلام كله توقيعات مصبوبة في قوالب من الإيجاز. فإذا أتينا العصر العباسى فإننا نرى الجاحظ في القرن الثالث الهجرى يحدد مفهوم الإيجاز بقوله: (الإيجاز هو الجمع للمعانى الكثيرة بالألفاظ القليلة) [١]، ثم نراه فيما بعد يتوسع في مفهوم الإيجاز، فلم يعد يقصره على (جمع المعانى الكثيرة بالألفاظ القليلة)، وإنما صار الإيجاز عنده يعنى (أداء حاجة المعنى، سواء أكان ذلك الأداء في ألفاظ قليلة أم كثيرة)، فقد يطول الكلام وهو في رأيه إيجاز لأنه وقف عند منتهى البغية ولم يجاوز مقدار الحاجة [٢].

فمقياس الإيجاز في نظره إذن هو أداء حاجة المعنى وعدم تجاوز مقدار هذه الحاجة أو النكوص عنها طال الكلام أم قصر. وعند أبي هلال العسكرى يتمثل الإيجاز في ترديد

---

(١) كتاب الحيوان ج ٣ ص ٨٦ .

(٢) كتاب الحيوان ج ٦ ص ٧

رأى أصحابه القائل بأن: (الإيجاز قصور البلاغة على الحقيقة وما تجاوز مقدار الحاجة فهو فضل داخل في باب الهذر والخطل، وهما من أعظم أداء الكلام، وفيهما دلالة على بلادة صاحب الصناعة) [١] وفى هذا الرأى نظر إلى رأى الجاحظ السابق وتأثر به.

أما ابن رشيق فلم يورد للإيجاز تعريفًا خاصًا مكتفيًا في ذلك بتعريف الرمانى [٢] له وتقسيمه. أما تعريفه فقد قال ابن رشيق نقلاً عن الرمانى:

(الإيجاز هو العبارة عن الغرض بأقل ما يمكن من الحروف).

أما عن تقسيمه فقد قال ابن رشيق: (الإيجاز عند الرمانى على ضربين مطابق لفظه لمعناه لا يزيد عليه ولا ينقص عنه، كقولك: (سل أهل القرية)، وضرب آخر يسمونه (الاكتفاء)، وفيه يحذفون بعض الكلام لدلالة الباقى على الذاهب، كقولهم: لو رأيت عليًا بين الصفين)، أي (لرأيت أمرًا عظيمًا). ويعلق ابن رشيق على هذا الضرب من الإيجاز بقوله: (وإنما كان هذا معدودًا من أنواع البلاغة لأن نفس السامع تتسع في الظن والحساب، وكل معلوم فهو هين لكونه محصورًا) [٣]. وكذلك عرض ضياء الدين ابن الأثير في كتابه (المثل السائر) للإيجاز فعرفه وقسمه وفصل القول فيه تفصيلاً حسنًا مع الإكثار من الأمثلة والشواهد. وقد عرض ضياء الدين ابن الأثير في كتابه «المثل السائر» للإيجاز فعرّفه وقسّمه وفصّل القول فيه تفصيلاً حسنا مع الإكثار من الأمثلة والشواهد.

وقد عرّف ابن الأثير الإيجازمرة بقوله: (الإيجاز حذف زيادات الألفاظ) ومرة أخرى بقوله: (الإيجاز دلالة اللفظ على المعنى من غير أن يزيد عليه).

كما قسمه إلى إيجاز بدون حذف. أما الإيجاز بالحذف عنده (فهو ما يحذف منه المفرد والجملة لدلالة فحوى الكلام على المحذوف، ولا يكون إلا فيما زاد معناه على لفظه).

وأما الإيجاز بدون حذف فيقسمه قسمين: أحدهما إيجاز (القصر) وهو ما زاد معناه على لفظه، والآخر إيجاز (التقدير) وهو ما ساوى لفظه معناه.

وهذا القسم هو ما أطلق عليه رجال البلاغة فيما بعد اسم (المساواة) [٤].

---

(١) كتاب الصناعتين ص ١٧٣ . وقصور البلاغة إلى الحقيقة: ردها إلى الحقيقة .
(٢) الرمانى: هو على بن عيسى الرمانى المتوفى سنة ٣٨٦ هـ، وصاحب كتاب (النكت في إعجاز القرآن).
(٣) كتاب العمدة ج١ ص٢٢١ - ٢٢٢ .
(٤) المثل السائر ص ١٩٤ - ٢١٧ .

وإذا تتبعنا (الإيجاز) عند غير هؤلاء الأدباء والبلغاء من أمثال السكاكى والقزوينى وغيرهما فإننا نجد أن مفهومه -وإن اختلفت صيغ التعبير عنه- واحد وهو (جمع المعانى الكثيرة تحت الألفاظ القليلة مع الإبانة والإفصاح).

والإيجاز عند البلاغيين ضربان:

(أ) إيجاز قصر: وهو تقليل الألفاظ وتكثير المعانى. وقيل: هو تضمين العبارات القصيرة معانى كثيرة من غير حذف. وقيل أيضًا: هو الذي لا يمكن التعبير عن معانيه بألفاظ أخرى مثلها وفى عدتها. وهذا النوع، كما يقول ابن الأثير: هو أعلى طبقات الإيجاز مكانًا وأعورها إمكانًا، وإذا وحد في كلام بعض البلغاء فإنما يوجد شاذا نادرًا.

ومما ورد من إيجاز القصر في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾ [البقرة:١٧٩]، فإن قوله تعالى: ﴿ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾ لا يمكن التعبير عنه إلا بالألفاظ الكثيرة، لأن معناه أنه إذا قتل القاتل امتنع غيره عن القتل، فأوجب ذلك حياة الناس.

ويتبين فضل هذا الكلام إذا قرنته بما جاء عن العرب في معناه وهو قولهم: (القتل أنفى للقتل). فقد يخيل لمن لا يعلم أن يعلم أن هذا القول على وزن الآية الكريمة، وليس الأمر كذلك، بل بينهما فروق من ثلاثة أوجه: أحدها: أن ﴿ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾ [البقرة:١٧٩] لفظتان، (والقتل أنفى للقتل) ثلاثة ألفاظ، والوجه الثاني: أن في قولهم (القتل أنفى للقتل) تكريرًا ليس في الآية، والوجه الثالث: أنه ليس كل قتل نافيًا للقتل إلا إذا كان القتل على حكم القصاص.

ومن أمثلة إيجاز القصر في القرآن الكريم أيضًا، قوله تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف:٥٤] كلمتان استوعبتا جميع الأشياء على غاية الاستقصاء. روى أن ابن عمر قرأها، فقال: من بقى شيء فليطلبه.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ﴾ [البقرة:١٦٤] جمع أنواع التجارات، وصنوف المرافق التى لا يبلغها العد والإحصاء.

وقوله تعالى: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [الأعراف:١٩٩] فجمع جميع مكارم الأخلاق بأسره، لأن في العفو صلة القاطعين، والصفح عن الظالمين وإعطاء

المانعين وفى الأمر بالمعروف تقوى الله وصلة الرحم، وصون اللسان عن الكذب، وغض الطرف عن الحرمات والتبرؤ من كل قبيح لأنه لا يجوز أن يأمر بالمعروف وهو يلابس شيئًا من المنكر. وفى الإعراض عن الجاهلين الصبر والحلم وتنزيه النفس عن مقابلة السفيه بما يفسد الدين.

وقوله تعالى: ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ٤٤﴾ [هود: ٤٤]. فهذه الآية الكريمة تتضمن مع الإيجاز والفصاحة دلائل القدرة.

وقوله تعالى: ﴿أَخۡرَجَ مِنۡهَا مَآءَهَا وَمَرۡعَىٰهَا﴾ [النازعات :٣١] فدل بشيئين (الماء والمرعى) على جميع ما أخرجه من الأرض قوتًا ومتاعًا للناس، ومن العشب والشجر والحطب واللباس والنار والملح والماء، لأن النار من العيدان، والملح من الماء. والشاهد على أنه أراد ذلك كله قوله تعالى: ﴿مَتَٰعٗا لَّكُمۡ وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ﴾ [النازعات: ٣٣].

ومما ورد من إيجاز القصر في أحاديث الرسول قوله ﷺ: **«كفى بالسلامة داء»**، وقوله: **«إنكم لتكثرون عند الطمع، وتقلون عند الفزع»**، وقوله: **«حبك الشيء يعمى ويصم»**، وقوله: **«إن من البيان لسحرًا»**، وقوله: **«ترك الشر صدقة»**، وقوله: **«نية المؤمن خير من عمله»**. وقوله: **«إذا أعطاك الله خيرًا فليبن عليك، وابدأ بمن تعول، وارتضخ من الفضل، ولا تلم على الكفاف، ولا تعجز عن نفسك»**.

فقوله: **«فليبن عليك»** أي فليظهر أثره عليك بالصدقة والمعروف ودل على ذلك بقوله: **«وابدأ بمن تعول»**، **«وارتضخ من الفضل»** أي أكثر من مالك وأعط، وقوله: **«ولا تعجز عن نفسك»** أي لا تجمع لغيرك وتبخل عن نفسك فلا تقدم خيرًا.

ومنه في كلام العرب قول أعرابي: (أولئك قوم جعلوا أموالهم مناديل لأعراضهم، فالخير بهم زائد والمعروف لهم شاهد) أي يقون أعراضهم ويحمونها بأموالهم.

وقول آخر: (أما بعد، فعظ الناس بفعلك ولا تعظهم بقولك، واستحيى من الله بقدر قربه منك، وخفه بقدر قدرته عليك).

وقيل لأعرابى يسوق مالاً كثيرًا: لمن هذا المال؟ فقال: لله في يدى فمعانى هذا الكلام على حد قول أبى هلال العسكرى - أكثر من ألفاظه، وإذا أردت أن تعرف صحة ذلك فحلها وابنها بناء آخر، فإنك تجدها تجيء في أضعاف هذه الألفاظ.

(ب) إيجاز حذف: وهو القسم الثانى للإيجاز، ويعرفه البلاغيون بقولهم: (هو يحذف منه كلمة أو جملة أو أكثر مع قرينة تعيّن المحذوف ولا يكون إلا فيما زاد مع على لفظه).

وعن هذا النوع من الإيجاز يقول ابن الأثير: (أما الإيجاز بالحذف فإنه عجيب الأ شبيه بالسحر، وذلك أنك ترى فيه ترك الذكر أفصح من الذكر والصمت عن الإفادة أز للإفادة، وتجدك أنطق ما تكون إذا لم تنطق، وأتم ما تكون مبينًا إذا لم تبين . . .) [(١)]

ثم يستطرد في الكلام عن إيجاز الحذف فيقول: والأصل في المحذوفات جميع على اختلاف ضروبها أن يكون في الكلام ما يدل على المحذوف، فإن لم يكن هذ دليل على المحذوف فإنه لغو من الحديث لا يجوز بوجه ولا سبب.

ومن شرط المحذوف في حكم البلاغة أنه متى أظهر صار الكلام إلى شيء غث يناسب ما كان عليه من الطلاوة والحسن.

ذكرنا آنفا أن الإيجاز بالحذف إنما يكون بحذف كلمة أو جملة أو أكثر.

وإذا تتبعنا المحذوف في هذا النوع من أساليب الإيجاز فإننا نجده يأتى على وج مختلفة منها:

(١) ما يكون المحذوف فيه حرفًا: نحو قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُا۟ تَذْكُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ﴾ [يوسف:٨٥][(٢)] فالمراد: (تالله لا تف أي لا تزال، فحذفت (لا) من الكلام وهى مرادة.

وعلى هذا جاء ول امرئ القيس:

فقلت يمين الله أبرح قاعدًا ولو قطعوا رأسى لديك وأوصالى

أى: لا أبرح قاعدًا، فحذفت (لا) في هذا الموضع أيضًا وهى مرادة.

ومما جاء منه قول أبى محجن الثقفى لما نهاه سعد بن أبي وقاص عن شرب الخ وهو إذ ذاك قتال الفرس بموقعة القادسية:

رأيت الخمر صالحة وفيها مناقب تهلك الرجل الحليما

---

(١) المثل السائر ص ١٩٨ .

(٢) الحرض: مصدر حرض بكسر الراء، ومعنى الحرض: القرب من الهلاك، والمراد بها هنا الشخ القريب من الهلاك على وجه المبالغة. فالمعنى حتى تكون قريبًا من الهلاك أو تهلك فعلاً .

فلا والله أشربها حياتى ولا أسقى بها أبدًا نديما

يريد: لا أشربها فحذف (لا) من الكلام وهى مفهومة منه.

(٢) ما يكون المحذوف مضافًا: نحو قوله تعالى: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ [يوسف :٨٢][١]، أي: اسأل أهل القرية وأصحاب العير..

ومن ذلك أيضا قوله تعالى: ﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ﴾ [طه :٩٦] ، أي: من أثر حافر فرس الرسول. وقوله تعالى: ﴿وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾ [الحج :٧٨] أي: وجاهدوا في سبيل الله. . . .

(٣) ما يكون المحذوف موصوفًا: نحو قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً﴾ [الإسراء :٥٩] ، فإنه لم يرد أن الناقة كانت مبصرة ولم تكن عمياء وإنما يريد: آية مبصرة، فحذف الموصوف وهو (آية) وأقام الصفة مقامه، وأكثر وقوع حذف الموصوف في النداء وفى المصدر. أما النداء فنحو قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ﴾ [الزخرف: ٤٩] أي: يا أيها الرجل الساحر، وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ أي يا أيها القوم الذين آمنوا. وأما المصدر فكقوله تعالى: ﴿وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا﴾ [الفرقان :٧١]، تقديره: ومن تاب وعمل عملاً صالحًا. . . . . .

ومما جاء منه في الشعر قول البحترى من أبيات يصف فيها التصاوير التى في إيوان كسرى، وذلك أن الفرس كانت تحارب الروم فصوروا مدينة أنطاكية في الإيوان وحرب الروم والفرس عليها، فمما ذكره البحترى في ذلك قوله:

وإذا ما رأيت صورة أنطاكية ارتعت بين روم وفرس
والمنايا مواثل وأنوشر وان يزجى الصفوف تحت الدرفس [٢]
فى اخضرار من اللباس علَى أصفر يختال في صبيغة ورس [٣]

فقوله (أصفر) أي فرس أصفر وهذا مفهوم من قرينة الحال لأنه لما قال: (على أصفر) علم بذلك أنه أراد فرسًا أصفر كما أن (يختال) قرينة لفظية لأن الاختيال من صفات الخيل الحسنة.

---

(١) العير: اسم للإبل التى تحمل المتاع، وأريد بها هنا أصحابها .
(٢) الدرفس: العلم الكبير . (٣) الورس: بنات يصبغ به .

(٤) ما يكون المحذوف صفة: ولا يسوغ هذا إلا في صفة تقدمها ما يدل عليها أو تأخر عنها أو فهم ذلك من شيء خارج عنها. أما الصفة التى تقدمها ما يدل عليها فنحو قوله تعالى: ﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ [الكهف:٧٩]، فحذف الصفة أي: كان يأخذ سفينة صحيحة غصبًا ويدل على المحذوف قوله: ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾. فإن عيبه إياها لم يخرجها عن كونها سفينة، وإنما المأخوذ هو الصحيح دون المعيب. فحذفت الصفة هنا لأنه تقدمها ما يدل عليها.

وأما الصفة المحذوفة التى تأخر عنها ما يدل عليها فقول يزيد بن الحكم الثقفي:

كل امرئ ستئيم منه العرس أو منها يئيم [1]

يريد: كل امرئ متزوج، إذ دل عليه ما بعده من قوله: (ستئيم منه أو منها يئيم) إذ لا تئيم هي إلا من زوج، ولا يئيم هو إلا من زوجة، فجاء بعد الموصوف ما دل عليه، لولا ذلك ما صح معنى البيت، إذ ليس كل امرئ يئيم من عرس ولا تئيم منه عرس إلا إذا كان متزوجًا، وأما ما يفهم منه حذف الصفة فيه من شيء خارج عن الكلام فقول النبى ﷺ: «**لا صلاة لجار المسجد إلا في المسجد**» فإنه قد علم جواز صلاة جار المسجد في غير المسجد من غير هذا الحديث فعلم حينئذ أن المراد به الفضيلة والكمال، أي: لا صلاة أفضل أو أكمل لجار المسجد إلا في المسجد. وهذا شيء لم يعلم من نفس اللفظ وإنما علم من شيء خارج عنه.

(٥) ما يكون المحذوف القسم أو جوابه: فأما حذف القسم فنحو قولك: (لأفعلن) أي: والله لأفعلن، أو غير ذلك من الأقسام المحلوف بها.

وأما حذف جواب القسم فنحو قوله تعالى: ﴿قٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ۝ بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ﴾ [ق:١-٢]، فإن معناه: ق والقرآن المجيد لتبعثن. والشاهد على ذلك ما بعده من ذكر البعث في قوله تعالى: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ۖ ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ﴾ [ق:٣].

(١) آمت المرأة من زوجها تئيم أيما: إذا مات عنها زوجها وأقامت لا تتزوج. وكذلك آم الرجل من زوجته يئيم: إذا ماتت عنه زوجته ولم يتزوج بعدها. والمعنى كل امرئ متزوج سيأتى عليه يوم تفقده فيه زوجته أو كذلك كل امرأة متزوجة سيأتى عليها يوم يفقدها فيه زوجها.

وقد ورد هذا الضرب في القرآن كثيرًا، كقوله تعالى في سورة النازعات: ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرۡقٗا ۝١ وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشۡطٗا ۝٢ وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبۡحٗا ۝٣ فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبۡقٗا ۝٤ فَٱلۡمُدَبِّرَٰتِ أَمۡرٗا ۝٥ يَوۡمَ تَرۡجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ۝٦ تَتۡبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ۝٧﴾ [النازعات :١-٧][1]، فجواب القسم ههنا محذوف تقديره: لتبعثن أو لتحشرن. ويدل على ذلك ما أتى به من ذكر القيامة في قوله: ﴿يَوۡمَ تَرۡجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ۝٦ تَتۡبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ﴾ [النازعات :٦-٧]، وكذلك إلى آخر السورة.

(٦) ما يكون المحذوف لو وشرطها أو جوابها فقط: وذاك من ألطف ضروب الإيجاز وأحسنها. فأما حذف لو وشرطها معًا فكقوله تعالى: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٖ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنۡ إِلَٰهٍۚ إِذٗا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهِۢ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ﴾ تقدير ذلك: إذ لو كان معه آلهة لذهب كل إله بما خلق.

وكذلك ورد قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتۡلُواْ مِن قَبۡلِهِۦ مِن كِتَٰبٖ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَۖ إِذٗا لَّٱرۡتَابَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ﴾ تقديره: إذ لو فعلت ذلك لارتاب المبطلون.

ومما جاء من ذلك شعرًا قول قريط بن أنيف:

لو كنت من مازن لم تستبح إبلى ... بنو اللقيطة من ذهل بن شيبانا
إذًا لقام بنصرى معشر خشن ... عند الحفيطة إن ذو لوثة لانا

ف (لو) في البيت الثانى محذوفة لأنها في البيت الأول قد استوفت جوابها بقوله: (لم تستبح إبلى)، ثم حذفها في الثانى وتقدير حذفها: إذ لو كنت منهم لقام بنصرى معشر خشن، أو إذا كانوا قومى لقام بنصرى معشر خشن.

وأما حذف جواب (لو) فكثير شائع نحو: (لو زرتنا أو لو ألممت بنا) معناه: لأحسنا إليك أو لأكرمناك أو ما جرى هذا المجرى.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ أَنَّ قُرۡءَانٗا سُيِّرَتۡ بِهِ ٱلۡجِبَالُ أَوۡ قُطِّعَتۡ بِهِ ٱلۡأَرۡضُ أَوۡ كُلِّمَ بِهِ ٱلۡمَوۡتَىٰۗ بَل لِّلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ جَمِيعًاۗ﴾ [الرعد :٣١] أراد: لكان هذا القرآن. فحذف الجواب اختصارًا لعلم المخاطب بأن الشرط المذكور لا بد له من جواب.

---

(١) النازعات غرقًا: الكواكب التى تجرى وتغرق وتبالغ في الجرى والناشطات نشطًا: الكواكب المتنقلات من برج إلى برج، والسابحات سبحًا: الكواكب التى تسير في الجو سيرًا هينًا والسابقات سبقًا: الكواكب التي تتم دورتها في مدة أقل من غيرها كالقمر الذي يتم دورته كل شهر، مع أن الشمس تتمها كل عام والمدبرات أمرًا: أي المتسببات في حدوث الأمور المترتبة على سيرها من اختلاف الفصول ومعرفة عدد السنين والحساب .

هذا القسم الأول من أقسام إيجاز الحذف وهو حذف مفرد أو كلمة. وهذا النوع من الحذف يتصرف على أربعة عشر ضربًا أتينا هنا على ستة أضرب منها على سبيل المثال [1].

أما القسم الثانى من أقسام إيجاز الحذف وهو حذف جملة أو أكثر فمن أمثلته قوله تعالى في حكاية موسى عليه السلام مع ابنتي شعيب:

﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ۝٢٤ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ [القصص: ٢٤-٢٥] فالمحذوف هنا جمل عدة، ونظم الكلام من غير حذف أن يقال: فذهبتا إلى أبيهما وقصتا عليه ما كان من موسى، فأرسل إليه، ﴿فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ﴾ .

ومن أمثلة الإيجاز بحذف أكثر من جملة أيضًا قوله تعالى في قصة سليمان وقصة الهدهد في إرساله بالكتاب إلى بلقيس: ﴿قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ۝٢٧ ٱذْهَب بِّكِتَـٰبِى هَـٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ۝٢٨ قَالَتْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَـٰبٌ كَرِيمٌ﴾ [النمل: ٢٧-٢٩].

فالمحذوف هنا أكثر من جملة ونظم الكلام من غير حذف أن يقال: فأخذ الهدهد الكتاب وذهب به إلى بلقيس فلما ألقاه إليها وقرأته قالت: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟﴾ .

والمحذوف إذا كان كذلك دلك عليه الكلام دلالة ظاهرة، لأنه إذا ثبتت حاشيتا الكلام وحذف وسطه ظهر المحذوف لدلالة الحاشيتين عليه.

وبعد... فلما كان سبب الإيجاز في جميع ما أوردناه هنا من أمثلة هو الحذف، سواء أكان حذف مفردات أو جمل، سمى (إيجاز حذف).

وتلخيصا لقواعد الإيجاز التى فصلنا القول فيها نقول:

(١) الإيجاز: جمع المعانى الكثيرة تحت الألفاظ القليلة مع الإبانة والإفصاح.

(٢) الإيجاز نوعان:

أ - إيجاز قصر: ويكون بتضمين العبارات القصيرة معانى كثيرة من غير حذف.

ب - إيجاز حذف: ويكون بحذف مفرد أو جملة أو أكثر منع قرينة تعين المحذوف.

---

(١) من أراد استيفاء بقية الأضرب فليرجع إليها في كتاب المثل السائر لابن الأثير ص ٢٠٣ - ٢١٢

الإطناب

عرض الجاحظ للإطناب فقال: (وقد بقيت - أبقاك الله - أبواب توجب الإطالة وتحوج إلى الإطناب. وليس بإطالة ما لم يجاوز مقدار الحاجة ووقف عند منتهى البغية) [١].

فالإطناب والإطالة فى رأي الجاحظ مترادفان ومقابلان للإيجاز وهما عنده: كل ما جاز مقدار الحاجة من الكلام ولم يقف عند منتهى البغية وأشار أبو هلال العسكرى إلى الإطناب في معرض كلامه عن الحاجة إلى الإيجاز والإطناب فقال: (والقول القصد أن الإيجاز والإطناب يحتاج إليهما في جميع الكلام وكل نوع منه ولكل واحد منهما موضع فالحاجة إلى الإيجاز في موضعه كالحاجة إلى الإطناب في مكانه. فمن أزال التدبير في ذلك عن جهته واستعمل الإطناب في موضع الإيجاز واستعمل الإيجاز في موضع الإطناب أخطأ) [٢].

وأبو هلال متأثر في هذا الرأى بأقوال السابقين في البلاغة كقول القائل:

(البلاغة في غير عجز والإطناب في غير خطل).

وإذا كانت الإطالة عند الجاحظ مرادفة للإطناب فإنها عند أبى هلال مقابلة لها وفى ذلك يقول: (فالإطناب بلاغة والتطويل عى لأن التطويل بمنزلة سلوك ما يبعد جهلاً بما يقرب والإطناب بمنزلة سلوك طريق بعيد نزه يحتوى على زيادة الفائدة) [٣].

أما ضياء الدين ابن الأثير فيقرر أولاً أن علماء البيان قد اختلفوا في الإطناب وأن منهم من ألحقه بالتطويل الذي هو ضد الإيجاز.

بعد ذلك يعرض ابن الأثير لتحديد مفهوم (الإطناب) كما يراه هو فيقول: (إذا رجعنا إلى الأسماء واشتقاقاتها وجدنا هذا الاسم - الإطناب- مناسبًا لمسماه. وهو في الأصل مأخوذ من أطنب في الشيء إذا بالغ فيه ويقال أطنبت الريح إذا اشتدت في هبوبها وأطنب في السير إذا اشتد فيه وعلى هذا فإن حملناه على مقتضى مسماه كان معناه المبالغة في إيراد المعانى. وهذا لا يختص بنوع واحد من أنواع البيان وإنما يوجد فيها جميعًا إذ ما

---

(١) كتاب الحيوان ج ٦ ص ٧ .
(٢) كتاب الصناعتين ص ١٩٠ .
(٣) المرجع نفسه ص ١٩١ .

من نوع منها إلا ويمكن المبالغة فيه وإذا كان الأمر كذلك فينبغى أن يفرد هذا النوع من بينها ولا يتحدد أفراده إلا بذكر حده الدال على حقيقته).

ثم يخلص من ذلك إلى تحديد مفهومه الاصطلاحى أو البلاغي فيقول (الإطناب هو زيادة اللفظ على المعنى لفائدة) وعنده أن هذا الحد هو الذي يميزه عن التطويل إذ التطويل: (هو زيادة اللفظ عن المعنى لغير فائدة) كما يميزه عن التكرير الذي هو: (دلالة اللفظ على المعنى مكررًا كقولك لمن تستدعيه: أسرع أسرع فإن المعنى مردد واللفظ واحد).

ثم لبيان التكرير الذي يدخل في باب الإطناب والتكرير الذي يخرج من باب الإطناب ويدخل في باب التطويل يقول ابن الأثير: (وإذا كان التكرير: هو إيراد المعنى مرددًا فمنه ما يأتى لفائدة ومنه ما يأتى لغير فائدة. فأما الذي يأتى لفائدة فإنه جزء من الإطناب وهو أخص منه فيقال حينئذ: إن كل تكرير يأتى لفائدة فهو إطناب وليس كل إطناب تكريرًا يأتي لفائدة وأما الذي يأتي من تكرير لغير فائدة فإنه من التطويل، وهو أخص منه فيقال حينئذ: إن كل تكرير يأتي لغير فائدة تطويل، وليس كل تطويل تكريرًا لغير فائدة).

ثم يذيّل ابن الأثير على تعريفه من الإيجاز والإطناب والتطويل بقوله: (إن مثال الإيجار والإطناب والتطويل مثال مقصد يسلك إليه في ثلاثة طرق، فالإيجاز هو أقرب الطرق الثلاثة إليه، والإطناب والتطويل هما الطريقان المتساويان في البعد إليه، إلا أن طريق الإطناب تشتمل على منزه من المنازه لا يوجد في طريق التطويل) [1] ومع جمال هذا التمثيل ووضوحه فإنه متأثر فيه بكلام أبى هلال العسكرى السابق عن الإطناب.

أما السكاكى فعرف الإطناب بقوله: (الإطناب أداء المقصود بأكثر من عبارة المتعارف) [2]. والخطيب القزوينى عرفه بقوله: (الإطناب تأدية أصل المراد بلفظ زائد عليه لفائدة) [3]، ومن جميع التعريفات السابقة التى في الغالب تتساوى مضمونًا وتختلف لفظًا يمكن اعتماد تعريف ابن الأثير للإطناب تعريفًا له وهو: (الإطناب زيادة اللفظ على المعنى لفائدة). والإطناب كما أوضح البلاغيون يأتى في الكلام على أنواع مختلفة لأغراض بلاغية منها:

---

(١) يرجع في كل ما قيل عن الإطناب عند ابن الأثير إلى كتابه المثل السائر ص ٢١٧ - ٢١٨.
(٢) التلخيص ص ٢١٠. (٣) الإيضاح للقزوينى ص ١٢٨.

(١) الإيضاح بعد الإبهام: وهذا النوع من الإطناب يظهر المعنى في صورتين مختلفتين: أحداهما مجملة مبهمة والأخرى مفصلة موضحة وهذا من شأنه أن يزيد المعنى تمكنًا من النفس، فإن المعنى إذا ألقي على سبيل الإجمال والإبهام تشوقت نفس السامع إلى معرفته على سبيل التفصيل والإيضاح فتتوجه إلى ما يريد بعد ذلك فإذا ألقى كذلك تمكن فيها فضل تمكن، وكان شعورها به أتم ولذتها بالعلم به أكمل.

ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ﴾ [الحجر:٦٦]، فإن قوله تعالى: ﴿أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ﴾ إيضاح للإبهام الذي تضمنه لفظ (الأمر)، وذلك لزيادة تقرير المعنى في ذهن السامع بذكره مرتين: مرة على طريقة الإجمال والإبهام، ومرة على طريقة التفصيل والإيضاح.

ومن هذا النوع من الإطناب أيضًا قوله تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾ [طه:١٢٠]، فقوله تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ كلام مجمل فصله ووضحه الكلام الذي جاء بعده.

ومنه كذلك قوله تعالى: ﴿أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ۝١٣٢ أَمَدَّكُم بِأَنْعَٰمٍ وَبَنِينَ ۝١٣٣﴾ [الشعراء: ١٣٢-١٣٣] فإن ذكر الأنعام والبنين توضيح لما أبهم قبل ذلك في قوله، ﴿بِمَا تَعْلَمُونَ﴾.

ومن الإيضاح بعد الإبهام التوشيع - وهو أن يؤتى في عجز الكلام غالبًا بمثنى مفسر باسمين أحدهما معطوف على الآخر وذلك كقول الرسول ﷺ: «يشيب ابن آدم وتشيب معه خصلتان: الحرص وطول الأمل».

ومنه شعرًا قول البحترى:

لما مشين بذى الأرك تشابهت	أعطاف قضبان به وقدود
فى حلتى حبر وروض فالتقى	وشيان: وشي ربى ووشى برود
وسفرن فامتلأت عيون راقها	وردان: ورد جنى وورد خدود
ومتى يساعدنا الوصال ويومنا	يومان: يوم نوى ويوم صدود؟ [١]

وقد يأتى التوشيع في وسط الكلام كقول شوقى:

---

(١) ديوان البحترى ص ٨: والحبر بكسر وفتح الباء: جمع الحبرة بفتح الحاء والباء ضرب من الثياب اليمانية المنمرة، والوشى: النقش، والبرود بضم الباء: جمع برد بضم وسكون، وهو الثوب الموشى، والجنى: ما يجنى من الشجر ما دام غضًا طريًا.

ودخلت في ليلين: فرعك والدجى ولثمت كالصبح المنور فاك

وقد يأتي التوشيع لا مثنى في ابتداء الكلام كقول محمد بن وهيب:

ثلاثة تشرق الدنيا ببهجتنا شمس الضحى وأبو إسحاق والقمر

(٢) ذكر الخاص بعد العام: والغرض البلاغي من هذا النوع - الإطناب - هو التنبيه على فضل الخاص وزيادة التنويه بشأنه، حتى كأنه ليس من جنس العام.

ومن أمثلته قوله تعالى: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾ [البقرة:٢٣٨] فقد خص الله الصلاة الوسطى أي صلاة العصر بالذكر مع أنها داخلة في عموم الصلوات تنبيهًا على فضلها الخاص حتى إنها لفضلها جنس آخر مغاير لما قبلها فالغرض البلاغي من هذا الإطناب هو التنويه بشأن الخاص.

ومنه قوله تعالى في وصف ليلة القدر: ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم﴾ [القدر:٤]، فقد خص الله سبحانه وتعالى: ﴿ٱلرُّوحُ﴾ بالذكر وهو جبريل مع أنه داخل في عموم الملائكة تكريمًا له وتعظيمًا لشأنه كأنه جنس آخر. ففائدة الزيادة هنا أيضًا التنويه بشأن الخاص.

ومنه كذلك قوله تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [آل عمران:١٠٤] فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر داخلان في عموم الدعوة إلى الخير ولكن الله خصهما مرة ثانية بالذكر تنويهًا بشأنهما الخاص. وقد أورد المعنى هنا في صورتين مختلفتين إيهاما وإيضاحًا ليكون ذلك أوقع في نفس السامع.

(٣) ذكر العام بعد الخاص: والغرض من ذلك هو إفادة العموم مع العناية بشأن الخاص، نحو قوله تعالى: ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [نوح:٢٨]، فلفظ ﴿لِى وَلِوَٰلِدَىَّ﴾ زائد في الآية لدخول معناه في عموم المؤمنين والمؤمنات، فهذان اللفظان «للمؤمنين والمؤمنات» لفظان عامان يدخل في عمومهما من ذكر قبل ذلك، أي ﴿لِى وَلِوَٰلِدَىَّ﴾ لإفادة العموم مع العناية بالخاص لذكره مرتين: مرة وحده ومرة مندرجًا تحت العام.

(٤) التكرير لداعٍ: والمراد به تكرير المعاني والألفاظ، وحدُّه هو دلالة اللفظ على المعنى مرددًا. وقد سبقت الإشارة إلى رأي ابن الأثير في الفرق بينه وبين الإطناب والتطويل، ومتى يلحق بأي من هذين.

والتكرير المفيد يأتي في الكلام تأكيدًا له وتشديدًا من أمره، وإنما تفعل ذلك للدلالة على العناية بالشيء الذي كررت فيه كلامك إما مبالغة في مدحه أو ذمه أو غير ذلك.

ودواعى الإطناب بالتكرير كثيرة منها:

أ - تأكيد الإنذار: نحو قوله تعالى: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [التكاثر:٣-٤] فقوله: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ الأولى هي زجر وإنذار لهؤلاء الذين ألهاهم التكاثر في الدنيا عن العمل للآخرة وفى تكرير قوله تعالى: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ تأكيد لهذا الإنذار. وهذا هو المعنى الذي أفاده إطناب التكرير هنا.

ب - التحسر: كقول الحسين بن مطير يرثى معن بن زائدة:

فيا قبر معن أنت أول حفرة ... من الأرض خطت للسماحة موضعا
ويا قبر معن كيف واريت جوده ... وقد كان منه البر والبحر مترعا

فالغرض من تكرير (يا قبر معن) هو إظهار الأسى والتحسر على معن.

ج - طول الفصل: كما فى قوله تعالى: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ الْعَذَابِ﴾ [آل عمران:١٨٨] فكرر ﴿لَا تَحْسَبَنَّ﴾ لطول الفصل بين الأول ومتعلقه وهو ﴿بِمَفَازَةٍ مِّنَ الْعَذَابِ﴾ [آل عمران:١٨٨] وخشية أن يكون الذهن قد غفل عما ذكر أولاً.

وقول الشاعر:

لقد علم الحى اليمانون أننى ... إذا قلت أما بعد أنى خطيبها.

وقول الحماسى:

وإن امرأ دامت مواثيق عهده ... على مثل هذا إنه كريم

ففى البيت الأول كررت (أنى) لطول الفصل بين اسم (أننى) الأولى وخبرها. وفى البيت الثانى كررت (أنه) لذات السبب، أي لطول الفصل بين اسم (أن) الأولى وخبرها.

والإطناب بالتأكيد كما في الأغراض السابقة يظهر أيضًا فى الخطابة وفى مواطن الفخر والمدح والإرشاد والتلذذ، والاستيعاب.

(٥) الإيغال: وهو ختم البيت بكلمة أو عبارة يتم المعنى بدونها ولكنها تعطيه قافيته وتضيف إلى معناه التام معنى زائدًا.

ومن أمثلة ذلك قول الخنساء في أخيها صخر:

وإن صخرًا لتأتم الهداة به كأنه علم في رأسه نار

فإن معنى البيت يتم عند قولها: (كأنه علم) ولكن الخنساء لم تكتف في تشبيه أخيها الذي يأتم الهداة به بالعلم وهو الجبل المرتفع المعروف بالهداية. ولكنها أوغلت بذكر (في رأسه نار) فأعطت البيت بذلك قافيته، ثم أضافت بهذه الزيادة على معنى البيت التام معنى جديدًا، وهو أن أخاها لا يشبه الجبل المرتفع فقط ولكنه يشبه الجبل الذي فوق قمته نار.

ومن الإطناب بالإيغال قول مروان بن أبي حفصة:

هم القوم إن قالوا أصابوا وإن دعوا أجابوا وإن أعطوا أطابوا وأجزلوا

فقوله (وأجزلوا) إيغال أعطى البيت قافيته وأضاف إلى معناه التام معنى جديدًا هو أنهم عندما يعطون يعطون الطيب الجزيل.

(٦) الاحتراس: الإطناب بالاحتراس يكون حينما يأتي المتكلم بمعنى يمكن أن يدخل عليه فيه لوم، فيفطن لذلك ويأتي بما يخلصه منه.

والاحتراس الذي يؤتى به في الكلام لتخليصه مما يوهم خلاف المقصود قد يكون في وسط الكلام كقول طرفة بن العبد:

فسقى ديارك غير مفسدها صوب الربيع وديمة تهمي

فقوله: (غير مفسدها) احتراس وتحرز من المقابل وهو محو معالمها.

وقول ابن المعتز في وصف فرس:

صببنا عليها - ظالمين - سياطنا فطارت بها أيد سراح وأرجل

فالاحتراس هو في كلمة (ظالمين) فلو حذفت لتوهم السامع أن فرس ابن المعتز كانت بليدة تستحق الضرب. وهذا خلاف ما يقصده الشاعر، وقول نافع الغنوي:

رجال إذا لم يقبل الحق منهمو ويعطوه عاذوا بالسيوف القواضب

فقوله: (ويعطوه) احتراس لولاه لفهم أن هؤلاء الرجال يلجئون إلى سيوفهم لمجرد عدم قبول الحق منهم، على حين أن المعنى بالاحتراس يفيد أنهم لا يفزعون إلى سيوفهم إلا حالة عدم قبول الحق منهم وامتناع العدو عن إعطائهم إياه والفرق كبير بين المعنيين.

وقول صفى الدين الحلى:

فوفنى غير مأمور وعودك قليس رؤياك أضغاثًا من الحلم

فالاحتراس في (غير مأمور) فإن لفظة (وفنى) في البيت فعل أمر، ومرتبة الآمر فوق مرتبة المأمور فاحترس بقوله: (غير مأمور)

وقد يكون الاحتراس في آخر الكلام نحو قوله تعالى: ﴿اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ [القصص:٣٢] ، فإن المعنى بدون قوله تعالى: ﴿مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ [القصص:٣٢] موهم أن يكون ذلك البياض لمرض كالبرص أو سوء أصاب اليد، ولهذا أتى بقوله: (من غير سوء) لدفع هذا الإيهام.

ونحو قول الشاعر:

وما بى إلى ماء سوى النيل غلة ولو أنه - أستغفر الله - زمزم

فالشاعر أتى بجملة (أستغفر الله) للاحتراس، لأنه أراد أن يقول: (ولو أنه زمزم)، ففطن لما قد يتوهمه السامع فيه من الاستخفاف بأمر زمزم وهو الماء المقدس، فسارع إلى دفع هذا الوهم وقال: (أستغفر الله).

فهذه الزيادات التى وردت في الأمثلة السابقة سواء كانت في وسط الكلام أو آخره هي إطناب بالاحتراس، وكذلك كل زيادة تجيء لدفع ما يوهمه الكلام مما ليس مقصدًا.

(٧) الاعتراض: وهو أن يؤتى في أثناء الكلام أو بين كلامين متصلين في المعنى بجملة أو أكثر لا محل لها من الإعراب لفائدة غير دفع الإبهام.

ومن هذا يفهم أن الإطناب بالاعتراض يؤتى به في الكلام لفائدة أو لغرض يقصد إليه البليغ. ومن أغراض الإطناب البلاغية بالاعتراض:

(أ) التنزيه: وذلك كقوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ﴾ [النحل:٥٧] . فجملة (سبحانه). في الآية الكريمة معترضة في أثناء الكلام لغرض بلاغى هو المسارعة إلى تنزيه المولى جل شأنه وتقديسه عما ينسبون إليه.

(ب) الدعاء ومن أمثلته قول عوف بن محلم الشيبانى يشكو كبره وضعفه:

وإن الثمانين (وبلغتها) قد أحوجت سمعى إلى ترجمان.

فقوله: (بلغتها) جملة معترضة بين اسم إن وخبرها قصد الشاعر بها الدعاء لمن

يخاطبه استدرارًا لعطفه عليه. ويجدر التنبيه إلى أن (الواو) السابقة للجملة الاعتراضية ليست واو الحال ولا العطف، وإنما هي (واو) الاعتراض.

ومن أمثلة الإطناب بالاعتراض أيضًا قول عباس بن الأحنف:

إن تم ذا الهجر يا ظلوم (ولا تم) فما لى في العيش من أرب

فجملة (ولا تم) معترضة بين الشرط وجوابه. وغرض الشاعر من وراء هذا الاعتراض هو المسارعة إلى دعاء الله بألا يقدر وقوع هذا الهجر والتقاطع بينه وبين حبيبته

ومنه قول أبى الطيب المتنبي:

وتحتقر الدنيا احتقار مجرب يرى كل ما فيها (وحاشاك) فانيا

فقوله: (وحاشاك) إطناب بالاعتراض للدعاء كذلك وهو حسن في موضعه.

(ج) التنبيه على أمر من الأمور: ومنه قول أبى خراش الهذلى يذكر أخاه عروة:

تقول أراه بعد عروة لاهيًا وذلك رزء (لو علمت) جليل

فلا تحسبى أنى تناسيت عهده ولكن صبرى يا (أميم) جميل

ففى البيت الأول اعترض الشاعر بين الصفة والموصوف بقوله: (لو علمت) والغرض من الاعتراض هنا التنبيه على عظم المصاب وشدة تأثيره في نفسه وذلك لأن مفعول (علمت) محذوف تقديره: لو علمت مبلغ هذا الرزء وعظيم تأثيره في نفسى. وفى البيت الثانى اعتراض بجملة النداء (يا أميم) بين اسم (لكن) وخبرها لتنبيه المخاطبة إلى جمال صبره.

ومن هذا النوع أيضًا قول الشاعر:

واعلم (فعلم المرء ينفعه) أن سوف يأتى كل ما قدرا

فقوله: (فعلم المرء ينفعه) جملة اعتراضية بين الفعل (اعلم) ومفعوله. وقد أتى الشاعر بهذا الاعتراض لينبه على فضل العلم وعظيم نفعه للإنسان. والمعنى هنا أن المقدور آت لا محالة وإن وقع فيه تأخير. والفاء السابقة للجملة الاعتراضية هي فاء الاعتراض. ومنه قول كثير عزة:

لو أن الباخلين (وأنت منهم) رأوك تعلموا منك المطالا

فالإطناب بالاعتراض هنا هو (وأنت منهم) وقد بادر به الشاعر للتنبيه على بخل

المخاطبة وأن الباخلين وهى واحدة منهم جديرون بأن يتعلموا منها المطال.

(د) التحسر: ومنه قول إبراهيم بن المهدى في رثاء ابنه:

وإنى (وإن قدمت قبلى) لعالم بأنى (وإن أخرت) منك قريب

ففى البيت هنا إطناب بالاعتراض في كل من شطريه، هو في الشرط الأول (وإن قدمت قبلى) وهو في الثانى (وإن أخرت)، والغرض البلاغى الذي قصد إليه الشاعر من وراء هذين الاعتراضين هو إظهار الأسى والتحسر على أن الموت سبق إلى ولده.

(هـ) التعظيم: نحو قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾﴾ [الواقعة: ٧٥-٧٨] فموضع الإطناب بالاعتراض في الآية الكريمة هو في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ . هذا الاعتراض هو في الواقع اعتراضان: أولهما (إنه لقسم عظيم) والثانى هو (لو تعلمون). والغرض البلاغى منهما هو تعظيم القسم بمواقع النجوم وتفخيم أمره، وفى ذلك تعظيم للقسم عليه وتنويه برفعة شأنه، وهو القرآن الكريم.

ومن الإطناب المعجز حقًّا ما ورد في قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٣-٢٤]، فالاعتراض بقوله: ﴿وَلَن تَفْعَلُوا۟﴾ يفيد استحالة معارضة القرآن والإتيان بسورة من نوعه.

فالإطناب بالاعتراض كما يبدو من الأمثلة السابقة وعلى اختلاف أغراضها لا يكمل المعنى فحسب، وإنما يضفى عليه ظلالاً من الحسن ويمكن إدراك هذه الحقيقة في أي مثال من الأمثلة إذا ما قارنا بين معناه بالاعتراض ومعناه مجردًا منه.

(٨) التذييل: والإطناب بالتذييل هو تعقيب الجملة بجملة أخرى تشمل على معناها للتوكيد.

وقد تحدث أبو هلال العسكرى عن أثر التذييل في الكلام وموقعه منه فقال: (وللتذييل في الكلام موقع جليل، ومكان شريف خطير، لأن المعنى يزداد به انشراحًا والمقصد اتضاحًا والتذييل هو إعادة الألفاظ المترادفة على المعنى بعينه حتى يظهر لمن لا يفهمه ويتوكد عند من فهمه... وينبغى أن يستعمل في المواطن الجامعة، والمواقف

الحافلة، لأن تلك المواطن تجمع البطيء الفهم، والبعيد الذهن، والثاقب القريحة، والجيد الخاطر، فإذا تكررت الألفاظ على المعنى الواحد توكد عند الذهن اللقن، وصح للكليل البليد) (١).

أقسام التذييل:

والإطناب بالتذييل قسمان:

أ - تذييل جار مجرى المثل، وذلك إن استقل معناه واستغنى عما قبله، نحو قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾[يوسف:٥٣]، فجملة قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ تشتمل على معنى الجملة السابقة: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓۚ﴾ وقد عقب بها عليها توكيدًا لمعناها... وإذا تأملنا جملة التذييل وهي ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ وجدناها مستقلة بمعناها لا يتوقف فهمها على فهم ما قبلها. ومن أجل ذلك يقال لهذا النوع من الإطناب بالتذييل: إنه (جار مجرى المثل).

ومنه أيضًا قوله تعالى: ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء:٨١] فجملة ﴿إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ تعقيب على الجملة السابقة تشتمل على معناها توكيدًا لها، وهى في الوقت ذاته مستقلة بمعناها لا يتوقف فهمها على فهم ما قبلها. ولهذا يقال: إنها إطناب بالتذييل جار مجرى المثل.

ومما ورد شعرًا من هذا النوع قول إبراهيم بن المهدى في رثاء ابنه:

تبدل دارًا غير داري وجيرة ... سواي وأحداث الزمان تنوب

فجملة (أحداث الزمان تنوب) إطناب بالتذييل جار مجرى المثل، لأنه كلام مستقل بمعناه ومستغن عما قبله:

ومنه قول الشاعر:

فإن أك مقتولاً فكنت أنت قاتلي ... فبعض منايا القوم أكرم من بعض

فالشطر الثاني من البيت جاء تأكيدًا للأول لاشتماله على معناه، وهو في ذات الوقت كلام مستقل بمعناه ومستغن عما قبله في فهمه، ولهذا فهو إطناب بالتذييل جار مجرى المثل.

---

(١) كتاب الصناعتين ص ٣٧٣ ولقن الكلام بكسر القاف يلقنه بفتحها: فهمه، واللقن بكسر القاف: الفهم بكسر الهاء، والاسم اللقانة بمعنى الفهم بسكون الهاء.

ومنه كذلك قول أبى نواس:

عرم الزمان على الذين عهدتهم بك قاطنين وللزمان عرام [١].

فقول أبى نواس: (للزمان عرام) تأكيد للمعنى السابق لاشتماله على معناه، وهو مستقل عنه بمعناه، فهو لهذا إطناب بالتذييل جار مجرى المثل.

ومنه قول الحطيئة:

نزور فتى يعطي على الحمد ماله ومن يعط أثمان المكارم يحمد

فالشطر الثانى إطناب بالتذييل للشطر الأول جار مجرى المثل لأنه مستقل بمعناه ولا يتوقف فهمه على فهم ما قبله.

ب - تذييل غير جار مجرى المثل: هذا هو القسم الثانى من أقسام الإطناب بالتذييل، وهو الكلام الذي لا يستقل بمعناه، ولا يفهم الغرض منه إلا بمعرفة ما قبله.

ومن أمثلته قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ ۖ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ﴾ [سبأ: ١٧] فقوله تعالى: ﴿وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ﴾ تذييل لقوله: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ ۖ﴾، وقد جاء هذا التذييل توكيدًا لما قبله لاشتماله على معناه، ولكنه هو غير مستقل بمعناه ولا يفهم الغرض منه إلا بمعونة ما قبله ومن أجل ذلك يقال له: إطناب بالتذييل غير جار مجرى المثل إذ المعنى وهل نجازى ذلك الجزاء الذي ذكرناه إلا الكفور؟

ومنه أيضًا قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ ۖ أَفَإِي۟ن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ﴾ فقوله تعالى: ﴿أَفَإِي۟ن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ﴾، تذييل لقوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ ۖ﴾. وهو إطناب بالتذييل غير جار مجرى المثل، لأنه غير مستقل في معناه عما قبله.

ومنه شعرًا قول ابن نباتة السعدى:

لم يبق جودك لى شيئًا أؤمله تركتنى أصحب الدنيا بلا أمل

فالشطر الثانى من البيت إطناب بالتذييل غير جار مجرى المثل للشطر الأول. فهو تأكيد لاشتماله على معناه، ولكنه غير مستقل بمعناه، إذ لا يفهم الغرض منه إلا بمعونة ما قبله.

---

(١) عرم الزمان بفتح الراء: اشتد وشرس بكسر الراء، والعرم بضم العين: الشدة والشراسة والأذى.

ومنه قول عنترة :

فدعوا نزال فكنت أو نازل وعلام أركبه إذا لم أنزل؟

فالشاعر استوفى المعنى في الشطر الأول وذيل بالشطر الثانى وهذا الإطناب بالتذييل غير جار مجرى المثل، فهو تأكيد لمعنى سابقه لاشتماله على معناه، : ولكنه غير مستقل بمعناه، إذ لا يفهم الغرض منه إلى بمعونة ما قبله .

ذلك هو الإطناب مقابل الإيجاز وفيما يلى تلخيص لكل قواعده التى سبق شرحها وتفصيل القول فيها :

(أ) الإطناب زيادة اللفظ على المعنى لفائدة .

(ب) والإطناب يأتي في الكلام على أنواع شتى منها :

١ - الإيضاح بعد الإبهام، لتقرير المعنى وتمكينه في ذهن السامع .

٢ - ذكر الخاص بعد العام للتنبيه على فضل الخاص .

٣ - ذكر العام بعد الخاص، لإفادة العموم مع الاهتمام بشأن الخاص .

٤ - التكرير لداع : كتأكيد الإنذار، وكالتحسر، وكطول الفصل .

٥ - الإيغال : وهو ختم البيت بكلمة أو عبارة يتم المعنى بدونها، ولكنها تعطيه قافيته، وتضيف إلى معناه التام معنى زائدًا .

٦ - الاحتراس : ويكون حينما يأتى المتكلم بمعنى يمكن أن يدخل عليه فيه لوم، فيفطن لذلك ويأتى بما يخلصه منه .

٧ - الاعتراض : وهو أن يؤتى في الكلام أو بين كلامين متصلين في المعنى بجملة أو أكثر لا محل لها من الإعراب لفائدة سوى دفع الإبهام .

٨ - التذييل : وهو تعقيب الجملة بجملة أخرى تشتمل على معناها توكيدًا وهو ضربان :

أ - جار مجرى المثل إن استقل معناه واستغنى في فهمه عما قبله .

ب - غير جار مجرى المثل إن لم يستقل معناه ولم يستغن في فهمه عما قبله .

المساواة

والمساواة هي إحدى الطرق الثلاث التى يلجأ إليها البليغ للتعبير عن كل ما يجول

بنفسه من خواطر وأفكار. فالبليغ على حسب مقتضيات الأحوال والمقامات قد يسلك في أداء معانيه تارة طريق الإيجاز وتارة طريق الإطناب، تارة طريقًا وسطًا بين بين، وهو طريق المساواة.

وإذا كان الإيجاز هو التعبير عن المعاني الكثيرة بالألفاظ القليلة مع الإبانة والإفصاح، وإذا كان الإطناب هو زيادة اللفظ على المعنى لفائدة، فإن المساواة هي أن تكون المعانى بقدر الألفاظ والألفاظ بقدر المعانى: لا يزيد بعضها على بعض.

فالمساواة، كما يقول أبو هلال العسكرى: هي المذهب المتوسط بين الإيجاز والإطناب، وإليه أشار القائل بقوله: كأن ألفاظه قوالب لمعانيه، أي لا يزيد بعضها على بعض [١].

وقد عدها ابن الأثير قسيم إيجاز القصر، وسماها (الإيجاز بالتقدير)، وعرفه بأنه الإيجاز الذي يمكن التعبير عن معناه بمثل ألفاظه وفى عدتها، أو هو ما ساوى لفظه معناه [٢].

ولكى نتبين حقيقة (المساواة) التى هي طريق وسط في التعبير بين الإيجاز والإطناب نورد فيما يلى بعض أمثلة لها ثم نعقب عليها:

(١) قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾.

(٢) وقال تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾.

(٣) وقال رسول الله ﷺ: «الحلال بين والحرام بين وبينهما أمور متشابهات».

(٤) وقال الشاعر:

أهابك إجلالاً وما بك قدرة … على، ولكن ملء عين حبيبها
وما هجرتك النفس أنك عندها … قليل، ولكن قل منك نصيبها

فإذا تأملنا هذه الأمثلة وجدنا الألفاظ فيها بقدر المعانى، وإننا لو حاولنا أن نزيد فيها لفظًا لجاءت الزيادة لغير فائدة، أو أردنا إسقاط لفظ لكان ذلك إخلالاً بالمعنى. فالألفاظ في كل مثال مساوية للمعانى، ولذلك يسمى أداء الكلام بهذه الطريقة (مساواة)

---

(١) كتاب الصناعتين ص ١٧٩ .
(٢) المثل السائر ص ٢١٢

وفيما يلى طائفة منوعة من الأمثلة على (المساواة) تزيد في جلاء أمرها وتوضيح حقيقتها:

(١) قال تعالى: ﴿فَمَن جَآءَهُۥ مَوۡعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ﴾ [البقرة: ٢٧٥]، فقوله: ﴿فَلَهُۥ مَا سَلَفَ﴾ من جوامع الكلم، ومعناه أن خطاياه الماضية غفرت له وتاب الله عليه فيها، إلا أن قوله: ﴿فَلَهُۥ مَا سَلَفَ﴾ أبلغ، أى أن السالف من ذنوبه لا يكون عليه إنما هو له.

(٢) وقال تعالى: ﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيۡهِ كُفۡرُهُۥ﴾ [الروم: ٤٤]، ﴿فَعَلَيۡهِ كُفۡرُهُۥ﴾ كلمة جامعة تغنى عن ذكر ضروب من العذاب، لأن من أحاط به كفره فقد أحاطت به كل خطيئة.

(٣) وقال رسول الله ﷺ: «**لا تزال أمتي بخير ما لم تر الأمانة مغنمًا والزكاة مغرمًا**». فالألفاظ هنا مساوية للمعانى تمام المساواة، وكل زيادة أو نقص في ألفاظ الحديث إخلال بالمعنى.

(٤) ومن حديث مطول يتضمن سؤال جبريل عن الإحسان قوله: «**ما الإحسان؟**» قال: «**أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك**».

فقوله: «**تعبد الله كأنك تراه**» من جوامع الكلم أيضًا لأنه ينوب مناب كلام كثير، كأنه قال: تعبد الله مخلصًا في نيتك، واقفًا عند أدب الطاعة من الخضوع والخشوع، وأخذ أهبة الحذر وأشباه ذلك، لأن العبد إذا خدم مولاه ناظرًا إليه استقصى في آداب الخدمة بكل ما يجد إليه السبيل وما ينتهي إليه الطوق.

(٥) ومن أمثلة المساواة شعرًا قول النابغة الذبيانى:

وأنكِ كالليل الذي هو مدركى ... وإن خلت المنتأى عنك واسع

(٦) وقول الأعشى في اعتذاره إلى أوس بن لام عن هجائه إياه:

وإنى على ما كان منى لنادم ... وإنى إلى أوس بن لام لتائب
وإنى إلى أوس ليقبل عذرتي ... ويصفح عنى ما حييت لراغب
فهب الي حياتى فالحياة لقائم ... بشكرك فيها خير ما أنت واهب
سأمحو بمدحى فيك إذ أنا صادق ... كتاب هجاء سار إذ أنا كاذب

(٧) ومن المساواة هذه الأبيات المشهورة:

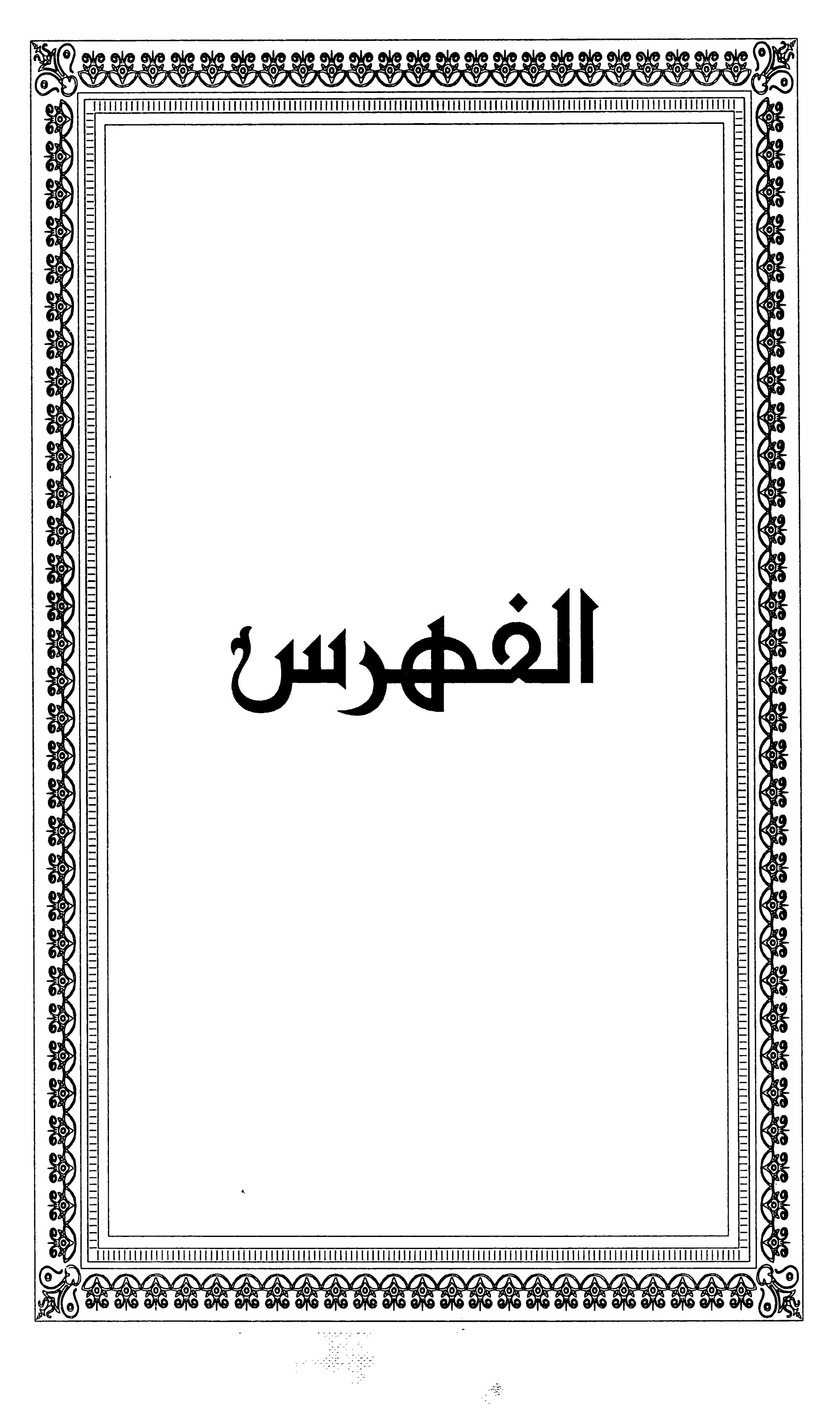
ولما قضينا من منى كل حاجة ومسح بالأركان من هو ماسح
وشدت على دهم المطايا رحالنا ولم ينظر الغادى الذي هو رائح
أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا وسالت بأعناق المطى الأباطح

(٨) ومن هذا الضرب أيضًا أبيات أبى نواس التالية في وصف آثار مجلس شراب والتى قال فيها الجاحظ: «لا أعرف شعرًا يفضل هذه الأبيات»:

ودار ندامى عطلوها وأدلجوا بها أثر منهم: جديد ودارس
مساحب من جر الزقاق على الثرى وأضغاث ريحان جنى ويابس
حبست بها صبحى فجددت عهدهم وإنى على أمثال هذا لحابس
تدار علينا الراح في عسجدية حبتها بأنواع التصاوير فارس
قرارتها كسرى وفى جنباتها مها تدريها بالقسى الفوارس[1]
فللراح ما زرت عليه جيوبهم وللماء ما دارت عليه القلانس

* * *

(١) المها: الظباء والغزلان وبقر الوحش. والقسى: جمع مفرده القوس التى يرمى عنها، والفوارس تدرى المها بالقسى: أي يختلونها ويحتالون لصيدها. وفى البيتين الأخيرين يصف أبو نواس كئوس شراب منقوشة بالصور في قراراتها صورة كسرى وفى جنباتها منظر صيد يطارد فيه الفوارس بقسيم الظباء والغزلان ويحتالون لصيدها. وفى البيت الأخير يريد أبو نواس أن يقول: إن حد الخمر من صور الفوارس المنقوشة على جنبات الكئوس تصل إلى ما زرت عليه جيوبهم. أي إلى التراقى والنحور. ثم زيد الماء فيها مزاجًا فارتفع الشراب فيها وانتهى إلى ما دارت عليه القلانس. أي إلى ما فوق الرءوس. وهكذا بهذا التعبير الرمزى يرينا الشاعر حد الراح أو الخمر صرفًا من حدها ممزوجة في هذه الكئوس.



الفهرس



الفهرس

* * *